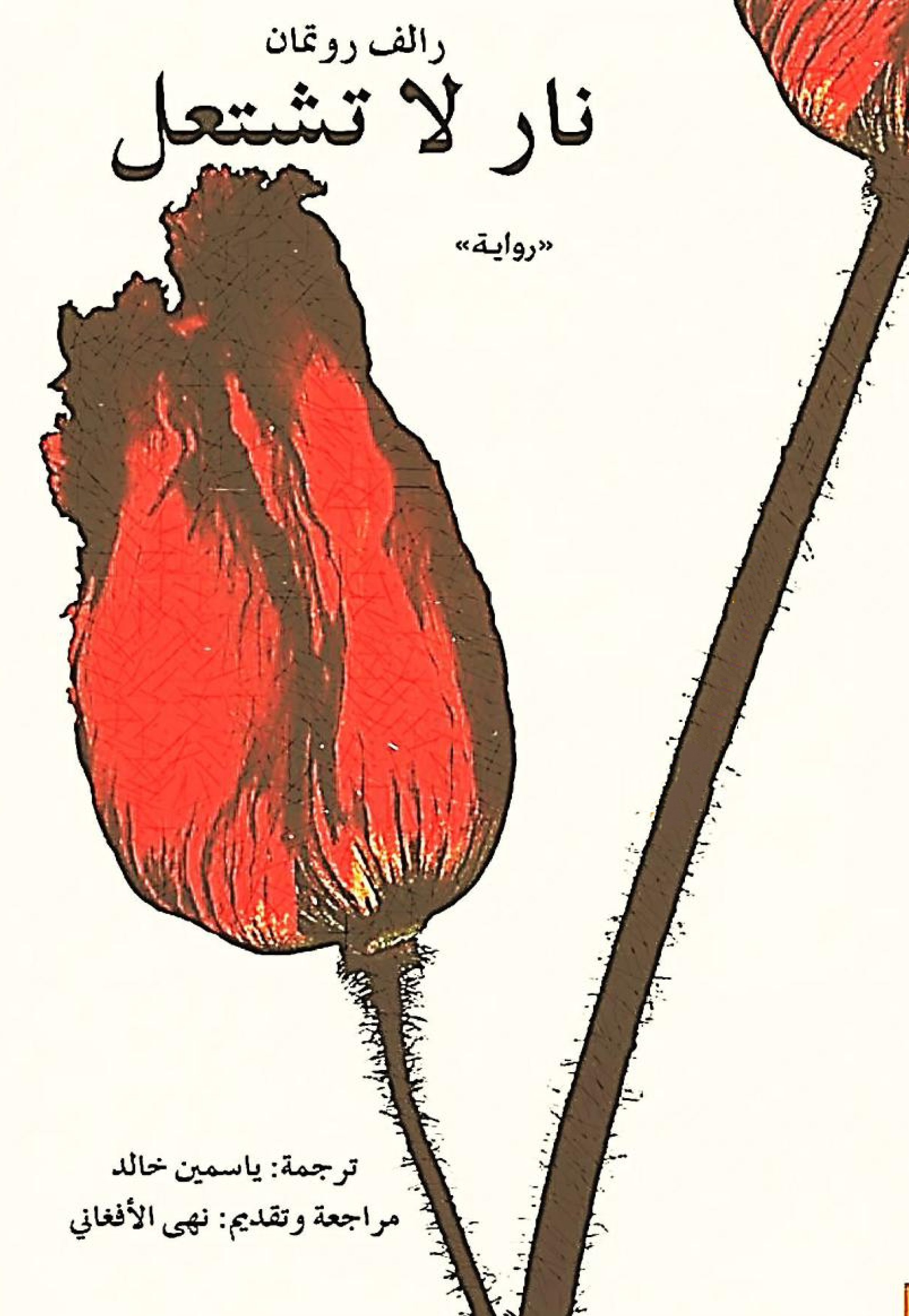

رالف روتمان
نار لا تشتعل
«رواية»
ترجمة: ياسمين خالد
مراجعة وتقديم: نهى الأفغاني

رالف روتمان

نار لا تشتعل

رواية

ترجمة: ياسمين خالد

مراجعة وتقديم: نهى الأفغاني

نار لا تشتعل

رواية

الطبعة الأولى 1432هـ 2011م

نار لا تشتعل
رالف روتمان
PT2678.O84 F4812 2011
Rothmann, Ralf
Feuer brennt nicht
نار لا تشتعل: رواية / رالف روتمان ؛ ترجمة: ياسمين خالد؛ مراجعة وتقديم: نهى الأفغاني.-ط. 1.-
أبوظبي: هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، كلمة، 2011.
ص383 ؛ 12×20 سم
ترجمة كتاب: Feuer brennt nicht : Roman
تدمك: 9-763-01-9948-978
1. القصص الألمانية. أ. خالد، ياسمين. ب. أفغاني، نهى. ج. العنوان.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الألماني:
Feuer brennt nicht
Ralf Rothmann



www.kalima.ae

ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 468 6314 2 971+ فاكس: 462 6314 2 971+



http://www.fask.uni-mainz.de

Johannes Gutenberg-Universität Mainz
Fachbereich Translations-, Sprach- und Kulturwissenschaft
An der Hochschule 2, 76726 Germersheim
Postfach 11 50, 76711 Germersheim
Telefon: 07274-508-0, Fax: 07274-50835-429

كان عليهم الاعتقاد
بأن ضوء الشمس هو الذي ملأ عينيّ بالدموع

خوليو كورتاسر

المحتويات

-1-
السنوات المبكرة

مهما كانت الرحلة اعتيادية أو ثانوية، ومهما كانت محطة القطار كئيبة، ومهما امتلأت مقصورة القطار بأطفال دوى ضجيج لعبهم، وبحاملي الحقائب الذين يجهدهم افتقارهم إلى لياقة الحركة، وبلاهثي الأنفاس ممن كادوا يفوتون القطار: إذا ما قدمت كافة الإعلانات، وأغلقت الأبواب، وترقب الركاب تحرك القطار، فإن كثيراً ما تكون هناك لحظة سكون قد تحمل من المعاني أكثر مما تحمله كلمة «أخيراً!» التي لا يتلفظ بها أحد، أو ما يفوق المسافة بين هنا وهناك. تبدو وكأنها لحظة انقطاع غامض عن الكلام، ينصت بها إلى أنفاس المستقبل، وتخضع أغلبية الناس إليها ذليلة- حتى المتذمرين ونافذي الصبر منهم- لفترة مدتها نبضة قلب واحدة.

نحن لا ندري بشيء حينما يموت أحدهم.. لا نعلم الكثير، بل نجد أنفسنا بصدد لغزٍ، حيث إن المرء إذا أراد أن يتجنب ما هو غامض أو مبهم، فعليه أن يصمت. حقاً لقد تعودنا على أن الشخص الراحل سوف يظل حياً في داخلنا وساكنا في وجداننا، ولكننا في وقتٍ ما سنكون نحن طيّ النسيان، فماذا بعد ذلك؟ إن الشيء المؤكد الوحيد، هو أنه

ليس بوسع أحدٍ على وجه الأرض أن يمحو حياة إنسان من صفحة الوجود، مهما طال عمره أو قصر. فهي وجدت لمرة واحدة حتى نهاية الكون. وبقدر ما تركت آثاراً في الماضي، سوف تؤثر على غوامض الحاضر والمستقبل. وبما أن الطبيعة في الحقيقة لا تعرف الموت، وإنما هي في حال تغيرٍ لا نهاية له، فإنه سوف يكون هناك في ما وراء الطبيعة ما يضاهي ذلك. والآن، وفي هذه اللحظة، هناك عدد لا يحصى من الناس الذين يغمضون أعينهم للأبد، بينما يفتحها آخرون للمرة الأولى في الوقت ذاته، وإذا ما صرفنا النظر عن كافة الأمور الشخصية، فقد يُخلق لدينا انطباع بأن الوجود بكل أسراره، وصراع البقاء، والفناء ما هي إلا غمزة أو طرفة عينٍ في بحر من السكون.

أيكفي هذا عزاءً؟

تبدو الرحلة وكأنها أبدية.. الجو حار، والهواء يرتجف فوق أرصفة محطة القطار، وفي داخل المقصورة تتطاير حبوب لقاح أشجار الحور من حولنا.. إنها مقصورة ترام قديم. فدككها الخشبية لم يعد لها مثيل في برلين الغربية منذ زمن طويل. طفاية الحريق تهتز، والنافذة المفتوحة يترجرج زجاجها داخل الإطار.. تنغلق الأبواب بصوت مدوٍّ، وتحمل المحطات التي نمر بها أسماء غريبة: أوستكرويتس،

فوهلهايديه، وروميلسبرغ. في كارلسهورست تغفو بعض الخيل في الشمس أمام جدار مغطى بالرسم الغرافيتي خارج اسطبلات ساحة سباق الخيل. الخضرة تزداد، ولا أحد يتكلم، بل يحدق الناس خارج النوافذ والتعابير على وجوههم لا يبدو عليها إلا القليل من السرور.. الكثير من الرجال يرتدون قمصاناً عليها رسم باهت، من الغريب أنه يشبه الرسم الذي نراه على الأرائك التي تعرضها محال المفروشات الرخيصة، والنساء شعورهن بلون التبن.. يرتدين حلياً رخيصة، ويبدو لون بشراتهن الأسمنتي رمادياً داكنا، في حين كانت شفاههن رقيقة كلما لاحظن أن أحداً ينظر إليهن. وعلى الرغم من أنهن تطلعن إليه وإلى ألينا بأعينٍ جاحظة من دون أدنى حرج، حينما دخلا إلى المقصورة، فإن من الظاهر أن الالتفات إليهن غير مرغوب فيه أبدا، حتى ولو وإن كان مجرد نظرة ودية، وذلك مثل تلك المرأة التي نزلت في كوبينيك ثم التفتت خلفها، وعندما أومأ لها فولف برأسه، هزت رأسها عجباً ثم انصرفت معتبرة ذلك إهانة، وقد كانت ترتدي نعلاً من صنع الدولة الأخرى[1].

المزيد من حبوب لقاح أشجار الحور، من دون أن تكون الأشجار على مدى البصر. ما من أحد على الرصيف

(1) المقصود جمهورية ألمانيا الديمقراطية السابقة.

بمحطة هيرشجارتن.. العصافير تلتقط الطحالب من بين شقوق الألواح الخرسانية في الأرضيات التي من المفترض أن تعيد الذكرى إلى الشوارع القديمة المرصوفة بالحصى. تشرب «ألينا» من زجاجتها البلاستيكية جرعةً من الماء، بينما يرصد هو خفية انعكاس صورتها المهتزة، على زجاج نافذة القطار. تجلس معتدلة القوام، واضعةً يديها في حجرها بنعومة، وتلعب بين الفينة والأخرى بخاتم ترتديه في إصبعها الأصغر. ولأنها شاحبة من السهر فإن عينيها الزرقاوين تبدوان أغمق من المعتاد.. تظهر على وجهها تجاعيد طفيفة، تمتد من زاويتي جفنيها إلى صدغيها. أما جبهتها فهي وضاءة على الرغم من أنها بلغت السادسة والثلاثين من عمرها، وينتشر عليها النمش بشكل متناظر.. كانت قد قصت شعرها الأحمر حديثاً، والذي كان بعقصات في الماضي، مما يجعل وجهها يبدو ممتلئا بعض الشيء. وبذقنها المستدير، وشفتيها الرقيقتين، وبأنفها المستوي والمقوس قليلاً تحت الجذر، تشبه جميلات حركة الشباب الألماني الحر، كما يظهرن في المطبوعات القديمة.. في الكتب التي تحمل إكسليبرس[2]. إلا أن «ألينا» ليس من طبعها التزين بوقارٍ اصطناعي، وإدعاء الحفاوة بحتمية القدر مثل هؤلاء النساء، فهي أخف ظلاً

(2) عن Exlibris (لاتينية)، وتعني في العرف الغربي لطباعة الكتب الختم الخاص بصاحب الكتاب.

من أن تكون كذلك. تأخذ «ألينا» نفساً عميقاً بفم مفتوح، وكالمعتاد، حين ترمقه ناظراً إليها يشرق وجهها بابتسامة عريضة كرد فعلٍ انعكاسي. يتوقف القطار، ولسبب ما لا يتابع السير، كما كان السكون يزداد. تتطاير حبوب لقاح أشجار الحور كندفات الثلج، تطايراً وحشياً.

كانا قد اتخذا القرار مع نهاية العام.. تقريباً وقت عيد الميلاد. لقد ملّا من حيهما القديم، حيث أصيب بالتهابٍ رئوي كان في بادئ الأمر، مجرد إزعاج لا أكثر، وذلك عقب رحلة عمل قام بها في تشرين الأول، نتيجة ما أمضاه من وقتٍ في الانتظار على أرصفة القطارات، تحول بسبب هواء برلين البارد إلى نزلة شعبية حادة تصحبها حرارة مرتفعة، واستغرق شفاؤه بعضاً من الوقت. وبينما كان متعباً في فراش المرض، ينهل من الشاي ويحاول القراءة، كانت «ألينا» تزين غصون شجرة الصنوبر ببعض الفيونكات والشموع والكرات الزجاجية. فمراسم عيد الميلاد الساحرة لا بد منها.

تفوح رائحة دخان الفحم وعوادم السيارات، رغم أن النوافذ مغلقة. لقد زحف الصدأ إلى أطر النوافذ، فكان الزجاج يترجرج كلما مرت سيارة توزيع بضائع. يتشاجر مدمنو المخدرات الذين يقطنون الغرف التي فوقهم.. يشتمون، ويلعنون بعضهم بعضاً بأصواتٍ متحشرجة.

أحدهم أسباني أو من أمريكا اللاتينية، يصيح قائلا: «تي ماتو!».. ويكررها صارخا: «تي ماتو!» أي سأقتلك. شيء ما يطرق الأرضيات الخشبية، وفي الطابق أسفلهم تنبح كلبة البواب «لولا» التي قلما يصطحبها معه إلى الحانة، التي كانت محفل شربٍ في طابق القبو. وليلا نسمع صوت كرات البيلياردو عبر الموقد، كما نسمع صوت باس الجاك بوكس، بل ونشعر به في الفراش.

هذا البيت يثير الجنون مع أن المنظر من هنا جميل. فترى الإوز يسبح في مياه قناة الدفاع المدني، وترى السماء حتى روافع بناء ميدان أليكساندر بلاتس.. المنطقة قذرة، وتفوح من المواسير رائحة كريهة، تبدو لـ«فولف» وكأنها إهانة، خاصة حين يعود إلى بيته بعد جولة في ألمانيا الغربية النظيفة يكون قد أقام خلالها بفيلا ناشره أو فندق فرانكفورتر هوف.. يفتح الأبواب الثقيلة ويصعد إلى الطابق الرابع بين صناديق البريد المنبعجة ونبات الأصص الجافة، والسدادات المعدنية وقطع زجاج المصابيح المكسرة تحت قدميه.

فضلاً عن ذلك تعاني «ألينا» من عطس غريب، وعلى الأغلب من حساسية ضد التراب الذي ينجم عن القمامة الملقاة في الفناء.. هما بالطبع يعلمان أن الوضع لا يمكن أن يستمر هكذا، فذلك أمر واضح منذ سنوات. وبعد

سقوط جدار برلين تغيرت الطبيعة الثابتة للأحياء المختلفة في المدينة، وهذا الأمر لم يكن ملحوظا على الإطلاق في البداية، مثل الأسنان التي تتغير بتركيب تاج أو جسر جديد، فما كان سابقا يترجم على أنه ابتسامة يصبح إظهاراً هجومياً للأسنان. نتج من ذلك أن الطبقة البوهيمية التي كانت تسكن حي كرويتسبرغ بطول القناة على الضفتين، اضطرت إلى الفرار إلى حي فريدرخسهاين، هروباً من الارتفاعات الجديدة في الإيجارات، وراحت عصابات نويكولن تجوب متنزّه الهازنهايديه، وتحولت محطة مترو الأنفاق زودشتيرن إلى ملتقى لتجار المخدرات والمدمنين، حيث تقف فرق منهم أمام المحطة، ومعها كلابٌ دفاعية، كماماتها المفكوكة معلقة بأربطة عنقها، وعندما تعود رفيقته من إحدى المحاضرات أو الدروس الخصوصية في ساعة متأخرة، لا بد من أن ينتظرها على رصيف القطار ليصطحبها إلى البيت.

فالخوف يداهمها، وأصبحت لا تغادر البيت وحدها في الليل على الإطلاق، كما أنه كثيراً ما يشعر بعدم الارتياح، ولكن ما يخشاه أكثر من ذلك هو منطقة أخرى، وحياة جديدة لعلها أقل طلاقة. ذلك لأن البيت على الرغم من كل فيه من مساوئ، وبقدرما يثبط الجيران السكارى من همته،

إلا أنه يتحلى بميزة طيبة: فهما يعيشان به معاً، ولكنهما منفصلان ، فلكل منهما شقته المستقلة في ذات الطابق، وهما كذلك منذ سنوات مسايرة للظروف ومن دون أن يبذلا الكثير من الجهد. وعلى الرغم من وجود أزمة سكنية أدت إلى ارتفاع الإيجارات، فقد تمكّنا من تجنّب قائمة الانتظار الخاصة بشقة الجوار التي أصبحت فجاة خالية، حيث أرسل خطاباً إلى مديرة المنزل، تضمن نداء لبقاً وجهه إلى حسها الشاعري، ووضع معه كتاباً يحمل إمضاءه.. كانت تلك هي المرة الأولى التي يحصل فيها على سكن، لأنه كاتب، حيث سبق أن حرم من مثله في الماضي للسبب ذاته.

متجاوران رغم بعدهما مع شيء من روح التشارك.. كان ذلك تصورهما منذ البداية.. حياة مشتركة دون أن يستنفد ازدياد القرب و الاعتياد- ما بينهما من سحر واستهواء، هنا يبدو ذلك ممكناً. يوجد لديهما مطبخان، وحمامان، وسريران كبيران، وأمل واحد، وذلك منذ أكثر من سبعة عشر عاماً.. كثيراً ما لا يرى أحدهما الآخر لأيام. وفي بعض الأحيان يترك ما أعد لها من طعامٍ في آنية على عتبة بابها. يرميا لبعضهما بعضاً الرسائل عبر فتحة البريد.. بعض الأبيات الشعرية، وحتى السفاهات أو حلوى اللوز.. يتمنيان لبعضهما بعضاً نوماً هنيئاً، دقاً على الحائط، وعندما

يتكلمان هاتفياً وتدور عند «ألينا» الموسيقى يتابع «فولف» الاستماع إليها بصوت منخفض بعد أن ينهيا مكالمتهما.

تطل شقتاهما على الفناء الخلفي، فيدخلهما المزيد من الضوء، كما أنهما أكثر هدوءاً. وفضلاً عن ذلك، إن نوافذهما محكمة، كما أن المدفأة على ما يرام. في وقت متأخرٍ من ليلة الميلاد، وبينما هما متربعان على السجادة ويفردان أمامهما خريطة ممزقة للمدينة، ترجع إلى زمن ما قبل سقوط الجدار.. الجزء الغربي ما زال يبدو وكأنه جديد. – إلى أين يا نور عيني؟ سبق له أن سكن في حي شتيجليتس وفي شوارع عدة في شونيبرغ، بينما أمضت هي سنواتها الأولى ببرلين في حي فيدينغ. وما من شك في أنه لا رجعة إلى هناك. فمجرد التفكير في مثل هذه الخطوة يجعل القلب ينقبض وتتسارع ضرباته. إذاً، فإما إلى حى فريديناو أو إلى شارلوتنبرغ، حيث المساكن واسعة وذات أسقف عالية والأرضيات باركيه أو إلى حي داليم. بيد أن الأحياء الغربية المألوفة، وخاصة أحياء الطبقة الوسطى، تبدو بمعزلٍ عن باقي أنحاء المدينة، وكأنها قد فقدت شيئاً من ملامحها منذ بداية العهد الجديد[3].

في سوق الكانتو ترى أكواماً من أطباق الفاكهة، ولافتاتٍ إعلانية مغطاة بالميناء لتزيين الحمامات، وأثاثاً غامق اللون في

(3) أي منذ سقوط جدار برلين وإعادة توحيد البلاد عام 1989.

الحجرات البيرلينية، وكذلك مدخني الغليون الصلع الذين يرتدون الصديريات الجلدية. أما الأحياء المفضلة حديثاً، مثل ميته وفريدرخسهاين وبرينسلاور برغ التي قد تدخل في الاعتبار، فتكاد لا تتعرف عليها، بسبب كمّ التمدن والشعارات، حيث أصبح الشباب هناك مهنة، والنجاح عقيدة، كما أن السكان يعيشون خلف جدار وكأنه من ورق.. تسمع صوت طقطقة خافتة، حين يقوم أحدهم بإغلاق غطاء جهاز الكمبيوتر المحمول. إذاً هل مغادرة المدينة هي الحل؟ كلا، حتى هذا يُعدُّ أمراً مستحيلاً. حقاً، ليس من الممكن أن يقع أحد في غرامها، بالتأكيد لا. لكنها وعلى الرغم من ذلك تظل الخيار الأفضل لكل من ليس لهم مكان آخر.

ولأنها ترغب في تدخين إحدى سجائرها التي قامت بلفها بنفسها، تضيء «ألينا» نوراً علوياً.. يتساقط الجليد، وترى ندفات الثلج في ضوء النوافذ وهي تتساقط في الفناء على أغصان شجرة البلوط التي تحتك بالأسوار، كلما هفهفت الرياح، تاركة أثراً بل نقشاً على هيئة هلال. تغمض عينيها، ثم تدور بطرف إصبعها السبابة، وتنقر بها على اليمين في أسفل الركن الخارجي من الخريطة. شوارع ملتوية، أزقة تقريباً، وبنية قروية على الضفة الشمالية لبحيرة

الموجيلزيه تحيط بها مساحات خضراء واسعة، ومحطات ترام في وسط الغابات. يوجد هناك مرصد فلكي، ونفق يمر تحت نهر الشبري، الذي يحمل اسماً آخر وهو نهر داميه بداية من منحنى ما. الـ «فوروم كوبينيك» قريب، وهو مركز تجاري، ومطار شونيفيلد يبعد من هناك، الأمر الذي يبعث الارتياح، وتشعل «ألينا» عود ثقاب قائلة: «هنا سوف نعيش». تنعكس الشعلة على زجاج النافذة.. زجاج مزدوج، وبعض الندفات تتطاير إلى داخل الغرفة، وتذوب بشعرها الأحمر.

إن الكتابة عن الذات بصيغة المتكلم، قلما تنجح من دون أن يصحبها تصور ما. فكلمة «أنا» تضع قناعاً زائفاً على وجه الحقيقة. ومهما توافرت العزم على صراحةٍ لا تعرف الهوادة أو حتى على نزع الحياء، فإن ذلك يقل خلال عملية الكتابة، وتتحول نقاط الضعف الشخصية إلى محاسن وفضائل. ولهذا ليس سوى صيغة الغائب، التي تبدو مثل سترة شفافة، خاصة حين تكون نقلاً على لسانه. تماماً مثل الطفل الذي يعتقد أن أحداً لا يراه، إذا ما أغمض عينيه أو أخفى وجهه بين كفيه، أو الأسير الذي جعله عريه محط أنظار الناس وموضع سخريتهم.. صيغة الغائب تسدل ستائر الأجفان.

أثناء جولة في فريدرخسهاين ومن أول نظرة يحظى بيتٌ مصممٌ على نمط البيدرماير ومكون من طابقين بإعجابهما.

من النظرة الأولى، قوالب طوبية صفراء بينها ملاط أبيض، ونوافذ عالية، وشرفات تحملها الأعمدة، وشرفة زجاجية بالطابق الأرضي، هي حالياً غرفة انتظار في عيادة طبيب. يعطي تقسيم البيت انطباعاً جيداً تحت ظلال الأشجار التي لا تزالت جدباء، وإذا بـ«ألينا» تكتشف لافتة صغيرة خلف قضبان الباب: شقة خالية بالطابق الأخير تحت السقف.. تسحبه من ذراعه إلى المدخل المؤدي إلى الفناء الداخلي.. صاحبة البيت– وهي سيدة في الستين من عمرها تقريباً– واقفة في الحديقة، وتستقبلهم بترحاب.. تكاد تشع أساريرها ضياءً.. ترتدي حذاء ملمعاً، ذا كعبٍ عالٍ وثوباً غامقاً لا يحدد لخصرها أية ملامح، وبيديها قفاز مطاطي لونه وردي لا يزال يحمل بطاقة السعر. شعرها المعالج كيميائيا بالتموج الدائم، لا يتحرك من كثرة مثبت الشعر المضاف إليه.. كأنه مكسو بطبقة من المرنغ. ما من شك في أن الهدف من أناقتها هو حفظ المسافات، وهو ما يقرب من أسلوب أخذ الاحتياط عند الأمريكان.. أخذت تتفحصهما بنظراتها الثاقبة التي لا تفوتها أدق التفاصيل. تنحّي السيدة المجرفة جانباً، ثم تبدي أسفها لعدم استطاعتهما معاينة الشقة في الوقت الراهن، فاليوم هو الأحد، وقد يشعر المستأجرون الحاليون بأنهم أُخذوا على حين غرة، ولكنها تتفق معهما على إجراء

مكالمة هاتفية. «ألست حضرتك كاتباً؟ إذاً، فهذا هو المسكن المناسب.. ستريندبرغ كان يسكن هنا في الجوار»[4].

في الأيام التالية تتردد «ألينا» وفولف على الحي، ليتأكدا من أن هذا المنزل هو بالضبط ما يبحثان عنه. وذلك لأن من أهم مواصفات مسكنهما المستقبلي الهدوء. ومن هذا المنطلق يبدو الطابق الأخير أفضل من أي طابق آخر، حيث لن يصدر صوت أقدام من الطابق الأعلى. كما يبدو أن باقي المستأجرين ينتمون إلى الطبقة المتوسطة، وذلك حسب ما توحي به ستائر نوافذهم.. ليس بينهم شباب من هواة موسيقى الراب أو يساريون فوضويون من أنصار حركة «البانك». كما أنه لا يسمع من هنا أي صوت للترام، أوقطارات البضائع ليلاً إلا لمدة لا تزيد على ساعة أو ساعتين، ناهيك عن أن الطائرات التي تحلق فوقهم متجهة نحو مطار برلين تيغل، تطير على ارتفاع بالغ العلو عندما تكون السماء صافية، وهم يرغبون في إغلاق المطار على أي حال. بيد أن الشارع الذي يقع فيه المنزل يسلكه العديد من سائقي السيارات لتجنب إشارة مرور ذات فترات حمراء طويلة. ولأن الشارع مرصوف بالحصى فإن عجلات السيارات تصدر صوتاً وكأنها تسير

(4) يوهان أوغست ستريندبرغ هو شاعر وكاتب مسرحي وروائي سويدي (1849– 1912)، انتقل عام 1892 إلى برلين وأمضى بها خمسة أعوام.

على جنزير. كذلك يُسمع مثل هذا الضجيج في شارع فورستنفالدر دام القريب، بصفة متواصلة. كما أن سيارات النقل بالذات تتخبط، وتتناثر فيها البضائع كلما مرت في طريق وعرة. لكن «ألينا» تعزي فولف بأملها في أن تختفي آثار تلك الضوضاء داخل الشقة. على كل حال، فالمنطقة أكثر هدوءاً من مسكنهما في حي كرويتسبرغ في محطة زودشتيرن المزعجة.

فوبيا الضوضاء مرض مهني، حيث يصبح حتى دبيب النملة مزعجاً. وعلى الرغم من أنه لم يأبه للضجيج لفترة طويلة من عمره، فقد غلبه النوم ذات مرة أثناء إحدى حفلات موسيقى الروك التي كان يتردد عليها في صباه، إذ خلد إلى النوم تحت خشبة المسرح. وحتى عندما كان في الثلاثين من عمره تعّود على أن يستفتح يومه بأغنية «دم دم بويز» لإجي بوب. لم يحدث أن تطرقت إلى ذهنه فكرة اختيار منزلٍ ما، لأنه هادئ أو صاخب، حيث إنه كان دائماً يود لو وجد منزلا وحسب.. لم يكن الضجيج يتعبه إلا عندما بدأ بكتابة النثر. فأصبح جلده يقشعر لحدة الأصوات، وعرف عن تجربة أن الكلمات التي تنطوي على ما يفوق حدود المعتاد، لا يستحضرها في ذهنه إلا حين يكون في حالة من السكون التام، وذلك لأن السكون ليس مجرد فراغٍ مطلق بلا صوت،

بل هو ترجمة للحقيقة إلى ما هو مسموع. إذاً عليه أن يسترق السمع للحقيقة، ليقف على ما يود نقله إلى كتابات. ومنذ ذلك الحين، أصبحت عملية البحث عن المكان الذي يهيئ له الظروف الملائمة للإنتاج- مثل الفنادق التي تتميز فعلاً بالهدوء، أو الأماكن التي تبعد تماماً عن حركة المرور- تمتص تقريباً القدر نفسه من الطاقة التي يستهلكها لإنجاز عمله الأدبي ذاته. ومن ناحية أخرى تثير لديه الرغبة في أن يكتب في ظل هدوء تامٍ، بعضاً من الشكوك، لأن النصوص الجوهرية ضمن مجمل الإنتاج الأدبي للكاتب، لا يتوقف إنجازها على مدى توافر الهدوء في مكان العمل، بل إنها في الغالب تنشأ تحت أي ظرف من الظروف.

لمدة أسبوعين، يقومان بمعاينة الشقة. وعلى الرغم من أنهما في صباح يوم باردٍ- أو حتى قارس البرودة- قرب نهاية شهر مارس\ آذار، إلا أن كافة النوافذ مفتوحة على مصراعيها، حتى إنهما لا يخلعان معطفيهما، بينما تعرض عليهما صاحبة البيت، الشقة. هناك ثلاث غرف، وحمام رئيس وآخر للضيوف، وخزائن ضخمة يمكن السير فيها، والمطبخ يبدو فاخراً لما يحتوي عليه من أثاثٍ مثبتٍ، وموقد الطهي مغناطيسي، وشفاطه لامع مع دعائم خشبية قديمة. بيد أن «فولف» الذي اشتغل عامل بناء في الماضي، يلاحظ

وللوهلة الأولى أنه تم ترميم البيت بأقل تكلفة ممكنة، بل بأزهد مواد البناء ثمناً. فهناك قطع مسطحة من الخشب أسفل الموكيت، كما أن جدار الجملون مكسوٌ بقشرة خشب رقيقة، مثل تلك التي كثيراً ما يتم استخدامها لإخفاء الرطوبة أو حتى العفونة. وفضلاً عن ذلك يعتقد «فولف» أنه يشم رائحة المدخنة التي تراكم الهباب على جدرانها الداخلية، ويشك في كفاءة النوافذ المنحدرة، حيث إن هناك آثار بللٍ على الأطر توحي بأن مياه الأمطار تتسرب إلى الداخل. ولكنه عندما سأل السيدة عن ذلك هزت رأسها قائلة: «ليست لدي أية فكرة. من الأفضل أن تسأل زوجي عن ذلك، فهو مهندس معماري. نحن لدينا ثلاثة بيوت للإيجار، جددها زوجي كلّها بنفسه، وحتى الآن لم يتوجه إلينا أحد المستأجرين بأية شكوى».

هدأته تلك الإشارة إلى مهنة زوجها بعض الشيء. وبعد أن قرأ الفرح في عيني «ألينا» لم يرغب في أن يعكّر عليها صفوها. فهي معجبة بالشقة أيّما إعجاب، وتقرصه خفية، بينما كانا يتبعان السيدة عبر الباب الزجاجي لحديقة السطح. تطفو قطرات ندى متجمدة في الهواء، في الأفنية، والحدائق الواسعة، وتبرق الإبر الجليدية الرقيقة على الأسوار والشجيرات وأعواد الكرنب الجافة في ضوء الشمس

الخافت. في مكان ما على حدود الغابة، يعلو صفير الترام، ويدور سرب من الحمام فوق الرف، ويدوي من اسطبل مفتوح صوت صهيل فرس، لا يبدو لهما منه إلا أثر التقاط الأنفاس. تهمس «ألينا» قائلة: «هذه هي شقتنا»، وعندما تنحني صاحبة البيت على الدرابزين مهاتفة ابنها الذي يسكن بالطابق الأول، تهمس «ألينا» قائلة: «هذه هي شقتنا».. «أليست كذلك؟»، تصر ألينا بنبرة شبه مرتجفة، ومرة أخرى تبهره شجاعتها وإصرارها الدؤوب على رغبتها المستقبلية التي يقرأها في تعابير وجهها، متسائلا لوهلة حزينة عمّا قدمه لها على مدار كل هذه السنين. وإلى جانب نزعاته واضطراباته النفسية، والبشرة التي ازدادت ذبولا لم يقدم لها أي شيء.. تلك المرأة رائعة. وأخيراً.. عندما يومئ برأسه بالإيجاب، ويلف ذراعه حول كتفيها، تدوي طائرة لوفتهانزا مثل قصف الرعد فوق السطح.

الذكريات تكون عامة في العادة، كما أن الجزء المرغوب فيه منها، قلّما يكون حقيقياً، فهي توهمنا بأن شيئاً ما قد أصبح ماضياً ومنتهيا، ولكننا كلما اتسعت آفاقنا ينمو معها إدراكنا بأن الزمن ليس شيئاً ثابتاً لا يتحرك. فالزمن عموماً هو بمنزلة التزامن، ومن المحتمل أن يكون هذا التصور صحيحاً لمجرد أنه يفوق بصيرتنا. فلا أحد يدري، إذا ما نشبت

العصور الوسطى أو العصور القديمة في أعماق الأحلام في هذه اللحظة، أو حتى في المستقبل من خلال آليات الطاقة الفكرية والضوء. وبينما تأكلني لذعة ناموسة، يحك أفلوطين رأسه، وينقل إلى شخصٍ ما برمجياته عن طريق غمزة بعينه. أياً كان الأمر، فالذكريات ليست الوسيلة التي تجعل من الحياة الشخصية عملاً فنياً، فهي تفتقر إلى الكمال كي يتسنى لها أن تكون كذلك.

أما الحب فإنه يختلف عن ذلك تماماً. لقد كانت بداية بطيئة نوعاً ما، أشبه ببداية كلاسيكية: المؤلف وبائعة الكتب. كان قد انتهى من أول مواجهة له مع الجمهور، قبل ذلك بلحظات قليلة، حيث كان قد حاز عن شعره، وقصة من قصصه منحة سنوية في إقليم الزاورلاند.. اشتملت على إقامة مجانية في شقة بفيلا مكتب الأحوال الشخصية في إحدى المدن.. سلالمها من الرخام، وغرفها فسيحة، ونوافذها بيضاوية كبيرة تطل على تلال وغابات. يكثر الثلج والمطر هناك، بصفة شبه متواصلة، ودوماً تظهر في السماء قطع متناثرة من السحب، تحاصر القمم العالية لأشجار التنوب. وشارع التسوق الذي يقع في الوادي، يمثل بصيص النور الوحيد، إلا أن البصر خداع، فالناس بذلك التيار البشري الزاخر، إما الرمادي أوالبيج أو كليهما، حتى أن أحذيتهم

أيضاً إما رمادية أو بيج. وطبعاً، ينعكس التذمر الذي يعلو وجوههم على نفسيته، وهو الذي يجني أرباحاً طائلة من أموال دافعي الضرائب على عدد من القصائد القليلة غير المقفاة. بينما هم يحسبون القرش حساباً داخل محل السوبر ماركت «بيني ماركت»، فإذا بعامل يدكّ عربة التسوق في عقبيه، أكثر من مرة كي ينضم إلى الصف مقتربا من الخزينة، ولأنه أبدى بعضاً من الاعتراض لقيامه بذلك، فإذا بالآخر يقول: «عفوا يا أخي، أتعبناك معنا...».

يظهر نفسه دائماً بالتفكر، والمثابرة على العمل، ويتحدث عن روايته الأولى، وإنما هو في الحقيقة يقضي أشهرا عديدة مستلقياً على الأريكة، ومحملقاً في السماء، لا يتوقع منه إلا القليل. يقوم من حين لآخر بقراءة شيء من نصوصه في نادي الروتاري المحلي، على سبيل المثال، أو في دار الكتب، أو في المركز الثقافي بالمدينة المجاورة، أوعند ساقية قديمة تجعجع عجلتها. بيد أن اكتئابه كثيراً ما يجعله عرضة لدرجة من الشلل، يجد فيها مشقة بأن يرفع فنجان الشاي إلى فمه. الكتابة نعمة نالها منذ الصغر، على الرغم مما يتكبده بسببها من مشقة. أما كونه كاتباً، فذلك شيء لا يحتمل على الإطلاق، أو على الأقل أمام الناس. فلو لم يكن كاتباً، لكان ذلك أهون لنفسه من أن ينتظر منه الجمهور ما يتعدى حدود نصوصه

من كلام. وأغلبية ما يثار في خاطره من الظن إذا تلعثم عند الحديث، هو أنه قد لا يكون مؤلفاً حقيقياً، فإذا بصاحب مصنع البيرة، يلفت نظره إلى إشكالية ما في استخدام حالة الإضافة بنصٍ من النصوص، وإذا بمجلس الطلبة قد انتهى من قراءة كل كتاباته، وإذا بزوجته تسأله عما إذا كان يعرف تلك القصيدة لشيلر، والتي قال في مطلعها: «أنت يا من رغب أيضاً في صنع الأمجاد...». يتطلع إليه الناس باهتمامٍ وهو يوقّع على أحد أعماله الأدبية، ثم سرعان ما تتشنج أصابعه لدرجة أنه لا يتمكن من استكمال كتابة اسمه. وإذا ما حاول أن يتجنب حدوث ذلك منذ البداية عن طريق خفة حركة اليد، وتكبير الحروف الأولى، فإن المكان لا يكفي لإمضائه كاملا.

يخرخر الماء في الساقية، وينظر منسق الحفل الثقافي إلى عقارب الساعة.. يقوم بإدارة مكتبة مجاورة تبيع الكتب بالبريد.. فيها قسم لاهوتي لا يستهان به، بما في ذلك مستلزمات الشعائر الدينية المختلفة. قلما تجد فيها أحد الأعمال الأدبية المعاصرة، فأكثر كتبها تحقيقاً للربح هي كتب الزراعة، وتنسيق الحدائق. حضر سبعة مستمعين.. ولأنه على موعد آخر، يعرّفه على المتدربة خلف طاولة البيع.. «ألينا». «سوف تصطحبك بعد ذلك إلى البيت». تومئ له

برأسها ويبدو عليها الخجل، لكن يدها دافئة وناعمة وعلى درجة طيبة من الجفاف.. شعرها الأحمر الغزير، مربوط إلى الخلف، وفي نبرة صوتها الرقيق شيء ما يذكره بعشبة المروج الحولية. وعندما سألها عن مصدر اسمها، حيث إنه غير مألوف، ذكرت أن أم أحد أجدادها كانت لاتفية الأصل. في حوزتها نسخة مستهلكة لأحد دواوينه الشعرية، وعندما تسأله أن يقدم لها إهداءً، يكتب لها في كتابه : «شكراً لك لطلتك البهية!»

الحفل الثقافي يقام في الطابق الأول.. في قاعة ضخمة جداً.. تخفض الضوء وتجلس في الصف الأول، بمفردها، وتضع محفظة النقود على مقعدٍ آخر بجوارها. هناك رجل وامرأة طاعنان في السن، ومعهما كلب ضخم أهلب.. يجلس بجوار المدفأة. ليس هناك مكبر للصوت، والقراءة أمام المقاعد الشاغرة يتصبب لها العرق، وعلى نظارته يتكاثف البخار. «ارفع الصوت من فضلك!».. ينادي أحد المستمعين من الصفوف الأخيرة، وإذا به يتشبث بصفحات الكتاب، ويزداد سرعة في القراءة كي ينتهي منها، وهو بذلك يسلب الكلمات أنفاسها، فيضيع سحرها، وحتى البشوش منها يفقد وقعه. لكن إذا ما تثاءب الكلب في ما بين هذا وذاك، وأطبق عظم فكه متنهداً، تخللت الصمت همسة أو

ضحكة من هنا وهناك، أو حتى نفس عميق. وعندما يصفق الحضور في الختام، تصفيقاً متردداً، وضامراً، لكن بدوي يبدو وكأنه يزيد القاعة تقوساً، ينتفض الكلب واقفاً وينبح، وما يلبث أن يهرع إلى باب الخروج.

في ما بعد، عند شرب النبيذ مع صاحب معرض فني، ومديرة مصلحة الشؤون الثقافية، وصيدلي، لازم الصمت في أغلب الوقت، تلك الجميلة، التي تعبث بمفتاح سيارتها، وتنظر إلى لوح الزجاج السميك للنافذة، مغادرة بأحلامها إلى خارجها. يحاول دون جدوى أن يحدد معالم قامتها تحت البلوفر الصوف المنفوش وبنطلون الجينز الواسع.. أوفرول في الغالب، فيه على كل جانب جيب كبير. حتى أحذيتها تبدو على الأرجح صحية، ولا ترتدي من الحلي شيئاً، فثقبا أذنيها خاليان. كما أن شعرها الأكرت يلمع تحت ضوء الشموع المشتعلة على بسطة النافذة، وبشرة عنقها بالغة الشحوب بصورة مفزعة، وفولف، الذي يحدثه الصيدلي بأنه أحد «معجبي جوته» وأنه يسافر سنويا إلى مدينة فايمار، يمد يده إلى يدها.. إلى أصابعها التي لا تكف عن الحركة، ويسألها بصوتٍ خافتٍ، إذا ما أصابها الملل أو كانت تفضل الذهاب إلى البيت. لكنها هزت رأسها فقط، وتدلت فوق جبينها عقصة من شعرها، وتبدو له الابتسامة التي يلمحها

على شفتيها ابتسامة اضطراب وسخرية في آن معاً. ابتسامة مأخوذة، حيث إنها في الواقع تحرك جانباً واحداً من فمها، فهي تقوس شفتها العليا إلى الأعلى، بعض الشيء، وتظهر أنيابها في ضوء الشموع المرتعش، وأسنانها اللامعة.. تسحب يدها من يده في هدوء.

بحسب ما توحي به تصرفاتها، فإنها غير مهتمة أبداً بأمر ذلك الرجل، الذي تعدى الثلاثين من عمره، أو ربما هي عفيفة للغاية. تساقط الجليد في الخارج. وفي داخل السيارة الصغيرة، التي كانت عبارة عن عربة عتيقة مهملة، يظل الجو بارداً لفترة طويلة. مقلة في الحديث هي، وعيناها مثبتتان على الشارع.. عليها أن تركز على المنحنيات المنحدرة في الغابة، وعلى جسور الوديان، حيث لمعت ندفات الثلج لتصبح كالزجاج.. تخبره بأنها في القريب العاجل ستتقدم للامتحان، وبعدم رغبتها في الاستمرار في العمل كبائعة كتب. فالأدب الألماني هو ما تود دراسته، وكذلك التاريخ الفني والعلوم المسرحية، في مدينة كولون. كما تخبره بأن الغرفة في بيت الطلبة، قد تم حجزها.. يضع يده بحيث لا يكون هناك مفر من أن تلمسها عندما تحرك ناقل السرعة، ولكنها بطريقة ما تتجنب ذلك. يظهر لسانها بين شفتيها أثناء انعطافها إلى ساحة الانتظار، أمام مكتب الأحوال

الشخصية. شجرة المانوليا لا تزال جرداء الورق. ثم قالت: بالمناسبة، خطيبي أيضاً يدرس في كولون.. «علم اقتصاد المؤسسات»، وبعد ذلك سوف يتولى إدارة مكتب السياحة الخاص بوالديه.

حسناً، إلا أن «فولف» لا يخرج من السيارة على الفور.. بدأت المدفأة تحدث فارقاً.. يتظاهر بالاهتمام ويرغب في دعوتها لمرافقته إلى أعلى.. لتناول فنجان قهوة، أو كأسٍ من الكونياك.. يخشى من ذلك الإحساس، الذي كثيراً ما يراوده بعد مثل هذه الحفلات من أنه يعيش عيشة فنادق، وخاصة في الساعة التي يمضيها بين الملاءات الباردة. بيد أنه لا يجد من الكلام ما هو أفضل من الصريح.. يعبث بصورة لاصقة على لوحة المفاتيح.. بيمامة بيضاء على خلفية زرقاء، وحينما يعرض عليها أن يريها غرف الفيلا، المصنفة تحت الحماية الأثرية ترتسم على وجهها تلك الابتسامة مجدداً، لكنها الآن وبكل وضوح ابتسامة هزلة ساخرة، ثم ترد قائلة : «أعرف هذه الغرف» وتحّول عصا السرعة إلى وضع العودة إلى الخلف. «لقد قام والدي بترميمها». وعلى الرغم من أنه يظل واقفاً أمام البيت يراقبها وهي تدور بالسيارة، تتجاهله «ألينا» عندما تمر به.. تمسح بظهر يدها زجاج السيارة المكسو بالبخار وتركز على الطريق.

لم يكن ليعد نفسه خفيف الظل وقتئذ، ولكن من المؤكد أنه لم يكن على إلمام بمهارات الغزل المعتادة والضرورية في بعض الأحيان في التعامل بين الجنسين. في أواخر السبعينيات وأوائل الثمانينيات، عندما اتضح له مدى تأثيره على النساء على الرغم من أنه خجول– ما من مرة تطلب منه ذلك الكثير، إذ لم يكن عليه سوى أن يقاوم نظراتهن–تسنى له بسرعة أكبر الدخول ضمن صفوة المقربين، كلما تعرف على امرأة. وقد بقيت معه قلة صبره وبرود مشاعره منذ ذلك الحين.. لا يعنيه السعي وراء كسب ود النساء، حيث تحول كبرياؤه دون أن يأبه لذلك، ثم إنه يصعب عليه احترام امرأة تكترث بما هو أشبه بأساليب المغازلة في مواسم التزاوج عند الحيوانات. فحين تعرض عنه إعراض المزدري بابتسامة مغرية كي تختبر نيته السليمة، وطاقته، وقوة تحمله، ومعدنه الأصيل، يعرف أنه ليس سوى انجراف نحو الغريزة الحيوانية. إنه يحلم بالبصيرة الصماء في ما وراء الثرثرة.. بالنظرة الواحدة التي تشتمل على كل شيء.. يحلم بشخص يستطيع أن يصمت معه.

يطول فصل الشتاء في هذه المنطقة، فنوافذ الطابق الأرضي يكسوها الجليد، ولكنه الآن يذوب من جديد، والبراعم تترعرع وتلمع كالزجاج، ويعاود «فولف» العمل من جديد،

أخيراً. شيء ما يدفعه عبر الصفحات، أمل جديد، يبدو أن له علاقة بهذا الفصل من فصول السنة، بتغير موقع الأرض من الشمس. يجلس عارياً على مكتبه في نور الصباح الذي دلف إلى الغرفة. وكما يدخل المرء عند قراءة بعض الكتب في حالة غيبوبة تقارب الراحة التامة للأعصاب، ولا تسمح حتى باستشعار واستيعاب ما يقرأ إلا بصورة شاحبة، يسلم بمجامع نفسه إلى الطلاقة اللغوية وموسيقى الكلام، واثقاً بأن النص يعاونه بشكل ما، بأنه يعمل شيئاً من أجله– هكذا هي حاله الآن مع الكتابة. نسي كل الخطط والمسودات، ومعظم مذكراته مكرمشة، مكورة. وبينما هو مستسلم للمنطقية الإيقاعية والأدبية للجمل.. لرائحة أقلام الرصاص وحفيف سنونها على الورق، يملأ صفحة وراء صفحة، بقصة لم تتطرق إلى ذهنه كلمة واحدة منها قبل ذلك. نعم، الربيع يقرض له القصص، أسابيع وأسابيع، وهو يعابثه بإضافة نعوت لا حاجة إليها.. تاركا البراعم تتفجر، وجرس التليفون يرن وكأنه من بعيد.. غالباً يتصل أحدهم بمكتب الأحوال الشخصية، إلا أن الصوت يعلو في الصالة ويصك الآذان: «ألينا».

تعلقت خصلة صغيرة بذقنه، ثوم أخضر من الأوملت الذي أعده متعجلاً.. هذا ما يراه في مرآة الردهة. لقد اقترب موعد دخولها الامتحان بكلية الإدارة المكتبية، وقررت أن

تلقي محاضرة عنه وعن عمله وترجو لقاءه، في أقرب وقت ممكن. يقترح مطعماً إيطالياً بشارع التسوق، في معظم الأحيان يكون شاغراً في المساء، وهو مصمم على هيئة كهف من الجبس ممتلئ بأحواض السمك.. مضت مدة وهي تنتظره هناك. أكواب الماء زرقاء، وكؤوس النبيذ لها أعناق من الزجاج المصنفر.. تماثيل نحيفة. يتناولان المعكرونة ويتفقان على مخاطبة بعضهما بعضاً من دون ألقاب. في حوزتهما جهاز تسجيل لا يزيد حجمه على علبة سجائر، وبينما هي ترشف من مشروب الكوكاكولا، وتسأله عن نصوصه وحياته ككاتب، يتمعن في وجهها من جديد.. وجهها الذي يروق له على نحو يختلف عما كان عليه منذ أسابيع، وكأنها نسخة منه رسمت بإصرارٍ جاد، تكمن جديته في إبراز قيمته الداخلية. يذهله أنه لم يخشوشن أمام ما قد يكون السبب وراء ذلك الشحوب، لون بشرة تلك الحمراء الشعر، الذي لا يعتقد أنه ينم عن سوء، والصفاء بشكل خاص الذي يتشح به وجهها حول جبينها الأنمش قليلاً وعيناها الزرقاوان تزيده ذهولاً. هنا يميل إليه شيء ليس من الضروري أن تكون له علاقة به.. سحر تنبعث منه طهارة ليس لها مثيل. إن تعرفه على هذا الوجه بين حشدٍ من الناس أو حتى مجموعة من الصور أسرع من التعرف إلى وجهه– حتى وإن كانت إحدى

تلك الصور غير المصقولة عائدة إلى زمن ما قبل مجيئنا إلى هذه الدنيا.

وبينما هي تحادثه، يساوره شعور متزايد بأن دوره كمؤلف يضيق عليه الخناق. أما جديتها السخيفة فإنها تذكره بالسترات التويدية، المبتلة، والتي يتصاعد منها البخار قليلاً، مصيدة المؤلفين، بحسب ما يدور بخلده. كان يعمل في العديد من المهن حتى فترة قصيرة.. كلها مرهقة جسدياً، والحد الفاصل بين الشاعر والعامل لا يزال رقيقاً ومتخلخلاً للغاية، ليسمح له بأن ينسب إلى نفسه واحدة من الهويتين. يمد يده إلى أصابعها مجدداً، ويسألها عن رموشها، السوداء المسكرة: كيف تستطيع أن تزينها بالمسكرة، دون أن تصير فيها كتل صغيرة كما هي الحال لدى نساء كثيرات، أو حتى كتلة واحدة. تبتسم في خجل وتوقف جهاز التسجيل: أجل، إنه أيضاً نوع من الفنون.. نوع متعب تمارسه كل صباح. إذ لا يروقها لون رموشها الحقيقي.. الأحمر، أفتح من لون شعرها بعض الشيء.. تقريباً أشقر في فصل الصيف. «دون المكياج– كما يقول رفيقي– أشبه الألبينو».

هذه المرة تترك له يدها بعضاً من الوقت، وتشرب كذلك شيئاً من النبيذ لاحقاً.. الأزرار على أساور قميصها الأبيض، أحجار داكنة اللون، تحدث صوتاً خفيفاً كلما احتكت

بكأسها، وأثناء الحديث يزداد إعجابه بحسن انتباهها أكثر فأكثر، وبالثقة الساكنة التي يلتمسها في نفسه، حيث إنه يمنح عباراته إشراقة جديدة، ومعالم واضحة لا تكتسبها من دونه، فما من كلمة واحدة قالها عبثاً. ببصيرة متدللة تقول جملاً، وكأنها تحرك بطاقتها الناعمة شيئاً ما بين جوانحه، وفي لحظة وسوسة هُيّأ له أن أسرارهما أبطلت بعضها بعضاً، وأنه منزه عن كل خطأ، وطاهر حتى من ذنبه الأكبر. قد تكون محاور الحديث اعتيادية قليلاً أو كثيراً، بيد أن رنينها الباطني سبر عمقاً في ما بينهما يألفانه من بعضهما بعضاً ولا يفترقان به منذ ذلك الحين. وعندما يصمتان ويتأملان الأسماك في الأحواض، يحتويهما وفاق صامت.. غني عن الكلام لا محالة، كأنه شيء ناعم، أو غلاف غير مرئي.. يطلب «فولف» المزيد من النبيذ.

في الطريق إلى الفيلا يسألها عن رفيقها، فلا تجيبه بالكثير، طبعاً. كما أنه لا يرغب في الحديث عن رفيقته، فتلك قصة أخرى، ويتوقفان تحت شجرة المانوليا المزدهرة والمضيئة بنور مصباح الشارع. بعض غرف مكتب الأحوال الشخصية تستخدمها الجامعة الشعبية مساءً في إعطاء دروس رقص التانجو في ما يبدو. لا يريان الراقصين والراقصات، وإنما فقط أخيلتهم على الحائط الذي يظل يتحرك حتى بعد أن تتوقف

موسيقى البندور. تملأ السحب السماء، وتغشى وجه القمر وهما في السكون يسمعان أوراق تويج الأزهار اليابسة وهي تتساقط على الكلأ، على الرصيف.

كلاهما ثمل بعض الشيء. فمنذ أن اتضح له أنهما سوف يبقيان معاً هذه الليلة، حرص على تناول الكمية التي يحتاج إليها لمنع سرعة القذف. في الشقة تمسك «ألينا» بياقته، وعقصات شعرها تزغزغه في وجهه، وطريقة تقبيلها تخيب أمله. يتمنى لو كان فمها أكثر نعومة وأخف حركة، وأكثر خبرة أيضاً، بشيء من الوقاحة.. يتمنى أن يحس بيدها بين ساقيه، إلا أن شفتيها مبتلتان كالأطفال، وتبقي عينيها مغمضتين حتى بعدما يرفع شفتيه عن شفتيها، ثم تأخذ نفساً عميقاً وتسأله عن مكان الهاتف.

إنه في غرفة النوم.. تتصل بالبيت لتترك خبراً بأنها لن تعود هذه الليلة. وعلى الرغم من أنه لا يفهم منها شيئاً، يلفت نظره صوتها المتغيرفبدا وكأنما الخيط الذهبي قد استؤصل منه. ثمة شيء مألوف يلقي بظلاله عليها.. لا ينم فقط عن طاعة أبوية متفق عليها، بل أيضاً عن حزم مقتضب الكلام، لكي لا تستمع إلى النصائح أو التنبيهات، ليس هذه المرة. ولكن الظاهر أنها لا تستطيع أن تتجنب ذلك.. إنها تسكن ببلدة صغيرة في إقليم الزاورلاند.. إنها مخطوبة، وانهاؤها

المحادثة من دون وداع مع تقطيب حاجبيها يجعل تلك اللحظة تتجمد. «فولف» ينزع سدادة قارورة بورجوندي حديث. يصيح بها «احترسي» وهي تهبط على الأريكة، «ظهر الأريكة يهتز!»

فتجيبه «أحقا»، وتترك أزرار أساور قميصها تسقط في كأس نبيذ خالية. «العالم بأسره يهتز».. يقبلان بعضها بعضاً مجدداً، وبينما هو يوقد بعض الشموع، تسقط بنطلون الجينز والكيلوت دفعة واحدة، وهو يحاول بلا جدوى أن يتنحنح تخلصاً من بحة صوته. عند رؤية قسمات جسمها اليانعة، تتلاشى المعالم الطفيفة أو حتى غير المكتملة من جمالها وهي مرتدية ثيابها. عانتها ليس فيها سوى القليل من الشعر.. شعلة ضيقة، وحلمتا ثدييها شاحبتان، شبه ورديتان، وما ينطوي بين يده وينفتح له عن طيب خاطر يهزه، خاصة وأن «ألينا» لا يبدو أنها تدرك كم هي مبهرة، وكم هي مشرقة في صباها. يقول لها ذلك بينما كان يفتح حزامه ويدوس على كعب حذائه ليخلعه، وهي تشبك أصابعها خلف رأسها، وتنزل بعينها إلى الأسفل ناظرة إلى نفسها في ابتسامة ساخرة وكأنها تفكر: إذا أردت أن تصدق بأن هذا جسد حورية، فبكل سرور.. لنعمل به شيئاً لذيذاً.

«فولف» متهيج، ويكاد يكون عنيفاً هذه الليلة، وكأن

عليه أن يتحقق من نواياها معه. ولكن «ألينا»، التي تحتويه بكل أطرافها، وكأنه طوق نجاتها وسندها وسط التيار، تبكي من لذة الشهوة وتريده أشد، وفي النهاية ينفجر الواقي. «ما من مشكلة».. تلهث ألينا، «ليست هناك أية مشكلة. إنني في فترة السماح». بيد أن قلبها يدق بقوة، وفي ما بعد، بينما هما مستلقيان جنباً إلى جنب يتصببان عرقاً ويتقاسمان السيجارة. تمسح قضيبه وتبتسم قائلة: «إنه مازال يبكي».

في الصباح التالي، تتنقل «ألينا» عارية بين حجرات البيت.. وكان بين يديها فنجان القهوة.. تجوبها في تريث وحذر، كأنها ترتاب في حقيقتها. تتلفت في ما حولها في تحفظ، وتتجاهل مكتبه الفوضوي أثناء ذلك كأنه إحدى الخصوصيات، وأحياناً تشير من النافذة إلى البلدة وتصيح: «في الخلف هناك، هذه كانت مدرستي!» أو: «على ذلك المنحدر كسرت عظمة أنفي، أثناء الانزلاق». كانت كتفاها متصلبتين قليلاً، وكانتا تبدوان غير اعتياديتين، كما كان حوضها مائلاً إلى الأمام مثل الكثير من الناس شديدي الحذر أو قليلي الثقة بالنفس، على نحو يجعل مؤخرتها تبدو مسطحة أكثر مما هي عليه، ولديها بطن ظاهرة صغيرة، كقبو فلورنسي. ولكنها من الخلف كانت تبدو مثل الشاب فساقاها قويتان، ولمعان عقصات شعرها المسترسلة في كل

النواحي، يجعل بشرتها تبدو أكثر بياضاً، وتكاد تنضح رقتها نوراً.. كل ما فيها يستغيث به «احمني!»، وما يروعه أنه ما بين غمضة عينٍ وانتباهتها أحس بأنه يملك القدرة على القيام بذلك.

تلفت انتباهها، الحركة والضجة حول ما يتم نصبه في السوق أمام البيت.. استعدادات مهرجان الربيع، ولكي لا يراها أحد وراء النافذة، تضع ساعديها على البسطة، وتسند ذقنها إلى كفيها، فتتدلى مؤخرتها مستديرة في الغرفة، كما كان ثدياها الفتيان ثقيلين، ما أدى إلى ظهور ضلوعها على الجانبين. ومن دون أن يصدر صوتاً يذهب خلفها في سرعة خاطفة ويوشوشها «ابقي هكذا!»، ويجثو على ركبتيه ويتنشق بملء صدره، رائحة الكهرمان من بين فخذيها.

المنحة تستمر لمدة شهرين. وفي خلال هذه الفترة لا يتقابلان أكثر من مرة واحدة أسبوعيا تقريباً. في معظم الأحيان كل خميس، حيث تدّعي الذهاب إلى الرياضة البدنية- بسبب ميل جانبي بسيط في العمود الفقري- وبعدها إلى المساج، فهي لا تريد أن تضع والديها أو خطيبها أمام أمر قد لا يكون واقعاً من الأساس. تركن السيارة خلف مكتب الأحوال الشخصية بين صناديق قمامة ودغل، وتسدل ستائر النوافذ الكبيرة فور دخولها الشقة.. بيت إحدى عماتها ليس

بعيدا، ولكنها أعتادت أن تأتي وكأن هناك سبباً للاحتفال.. تحضر معها نبيذاً أو شمبانيا أو حلوى، وتنتظر اللحظة التي ترفع فيها ما على المائدة ولحظة نزع فستانها على أحر من الجمر.. تعشق الملابس الداخلية الجميلة، وتشتري لنفسها حمالات جوارب ماركة ليرلينجسلوهن.

تيسّر عليه الأمور في السرير، على الرغم من أنه ليست هناك أية معايير تقريباً في هذا الجانب، فقد كان في معظم الأحيان يرى نفسه متوسط المستوى كعاشق. بغض النظر عن أن الحديث عن الحياة الجنسية المنتظمة أو المتزنة وكأنها ضرورة صحية يثير اشمئزازه، فمرات ومرات يكون قد بقي بمفرده لفترة أطول مما ينبغي، ومن ثم يصبح ممتلئا بالشهوات. المهم أن يحذر ويراعي الطرف الآخر ليدوم لمدة أطول. إلا أن «ألينا» لا تقيم وزناً لذلك، بل تأخذه كما هو. وأحياناً، تصل أول مرة إلى النشوة بعد لحظات قليلة.. تعشق عنفه ولا تلتفت على ما يبدو إلا للقليل من ارتباكه، الذي له علاقة بصغر سنها بلا ريب، وبنعومة بشرتها التي تكاد تكون غير حقيقية، إلا أنها أوضحت له للمرة الأولى في الحياة ما قد راح بلا رجعة. يخشى يديها وخاصة في الظلام أو في ضوء شمعة تشتعل خلف باقة زهور، لكنها تضحكه في ليلة لقائهما الأخيرة حينما تقول: «أتعلم ما الذي لفت نظري

إليك في الوهلة الأولى؟ بكل صراحة؟ فمك الرائع.. كلا، مؤخرتك!»

لم يكن وداعهما لبعضهما بعضاً شجياً. فالأمل، كلمة جميلة، ولكنها بلا مناسبة. قد تتمنى أن تدرس في برلين، ولكن تلك الأمنية لن تتحقق لها في الوقت الحالي، إذ ليست هناك أية أماكن.. يشربان كأساً من النبيذ، ويأخذان على بعضهما بعضاً عهداً بالامتناع عن التدخين. وأخيراً.. يهديها عقداً رقيقاً من الذهب فيه لؤلؤة واحدة، ثم يصحبها إلى الباب.. ومن ثمّ إلى سيارتها. وفور انطلاقها تصطدم المرآة الجانبية بزهرة ليلكٍ فتنزعها، ويلاحظ أنها تبكي. إلّا أنها تخرج له لسانها، وتنعطف عند الناصية.. حياة في اتجاهات مختلفة. يوم مغادرته يراها مرة أخرى في شارع التسوّق، خلف فاترينه عرض لأحد محال الملابس.. تقف بين رفوف القسم الرجالي، حيث يعرض عليها البائع بعض المناديل، ومنسوجات عالية القيمة. وعلى الرغم من أنه كان يشير إليها، إلا أنها لم تلمحه. وبين غمضة عين وانتباهتها، يفكر في أن يذهب إليها، ولكن سيارة الأجرة قد وصلت.

هناك لحظات بعد القراءات الأدبية، تندرج ضمن الأوقات الأكثر كآبة، والأقل أملاً في الحياة، خاصة عندما يكون الحفل جيداً، والتصفيق طيباً، وعدد النسخ المباعة كبيراً: الجمهور

قد غادر القاعة، وبائع الكتب يجرد الحساب، والكاتب يوقع على بعض النسخ لشباك العرض، والفتاة التي تحت التمرين تنزع له الغلاف عن الكتب. وبينما هو يجول بفكره في كيفية التهرب من الدعوة المعتادة لتناول الطعام في أحد المطاعم ذات القوائم المجلدة والأطباق الشهيرة بالمنطقة، يرفع نظره عن الكتب قليلاً، ويلاحظ أن بعض المستمعين ما زالوا موجودين.. لعلّهم من أصدقاء أو معارف بائع الكتب، لأنهم يقدمون له المساعدة، حيث كانوا يعيدون طاولات العرض إلى مواضعها، ويجمعون الأكواب، والمنفضات، وأطباق الفول السوداني الصغيرة.. بعضهم كان يومئ برأسه له أو يبتسم في خجلٍ، وآخرون كانوا يتحاورون مع بعضهم بصوتٍ خافت، والكاتب الذي يكتب اسمه مراراً وتكراراً يساوره فجأة ذلك الشعور الرديء، بأن كل ذلك قد كان بلا جدوى، وأنه لم يمنح الناس ما تتوق إليه نفوسهم، وأنه لن يستطع فعلياً منحهم إياه أبداً، و بناء على ذلك فإنه ليس إلا عابث صبياني بائس.. أحد هؤلاء الذين يعمون أبصار جمهورهم تبرجاً، كيلا تنكشف حقيقة عماهم الشخصي، وذلك لأن كل مشارك في مثل هذه الفعاليات الثقافية قد ترك بيته الساكن أو خرج من شقته حيث القطة والبطاقات المصورة خلف رفوف البهارات لأجل شيء مختلف تماماً، كل

منهم يأمل في أن يتلقى وعداً، أملاً جديدا يتعلق به ويجعله يهيم بين السحاب ويداري الآن إحباط أمله من خلال المساعدة في رص المقاعد.

يفكر في «ألينا» التي انتقلت إلى كولون.. يتمناها لنفسه في غرفته بالفندق، ملفوفة في ملاءة فقط، أثناء عرض فيلم جنسي. بيد أنه لا يعلم شيئاً عنها، بل حتى رقم هاتفها لا يعرفه.. هذا إذا كان لديها هاتف من الأساس.. إنها هي التي تتصل به بين حينٍ وآخر، من كابينة تليفونٍ أمام بيت الطلبة.. في أيام الأحد يسمع أجراس الكنيسة من الخلف، وكأنها تدوي في المدينة بأسرها، ثم يتحدثان بغير كلفة مع بعضهما.. ثرثرة مرحة من دون أية تحفظات.. ما لا يعهده في نفسه تحت ظروف أخرى ومن ثم يندهش منه بعد أن يضع السماعة، وكل مرة تقريباً يجلس بعدها على مكتبه وهو يحلّق فرحاً، ولفترة ما تصبح الكتابة من أبسط الأمور. إلا أنه لا يزال غائباً عن ذهنه، أنها السبب في ذلك حتى عندما تتعقد الأمور في الكتابة مجدداً.

أين كان بالأمس؟ دار النشر هي التي تحدد المواعيد، والكاتب عليه التنفيذ. حتى أنه أصبح يحفظ كتابه الرفيع عن ظهر قلب.. قد يغمض عينيه أثناء القراءة، ويفكر في ما سوف يأكله في ما بعد.. أيحضر بعضاً من البيتزا أم أنه يفضّل شريحة

لحم محمرة. الكثير من الفاكهة سيكون أفضل، مع القليل من الشوكولاته.. وذات الشيء في اليوم التالي.. أسابيع طويلة، ويسلك طريقاً أطول، مروراً بمسقط رأسه، ويقف بعضاً من الوقت أمام قبر والديه، وعداد التاكسي يدور.

الرحلة من «كرويتسبرغ» إلى «فيدينغ» يغلب عليها الطابع الوحشي في هذا الوقت، وذلك لأن مترو الأنفاق يترك الجزء الغربي لبرلين، ابتداءً من شارع كوخ، ويسير عبر شرقها حتى شارع راينيكندورفر، على مدى ست محطات. ولأنها محطات معطلة، ومغلقة، من دون أن تتغير حالها حتى بعد نهاية الحرب، فيجب على القطارات أن تلتزم بسرعة السير أثناء المرور فيها. كتابات يدوية بخطوطٍ ألمانية قديمة مزقها الرصاص، وسلالم مهشّمة، ومداخل مسدودة بوساطة جدار، وبين الفينة والأخرى لافتة أو ملصقة: «الشيوعية والسوفييتية هما سبب تفاقم الأزمة الدولية!»، أو «الجمهورية الألمانية الديمقراطية تضمن حفظ السلام بين الشعوب!».. نادرا ما تضيء لمبات كهربائية أو لمبات نيون، فيخيل للمرء أن نورها أضعف من المعتاد، وأنها تجعل وجوه الحرس العسكري تبدو مصفرة، وكأنها أقنعة.

في فصل الشتاء يرتدون قلنسواتٍ من الفرو، عليها نجمة حمراء وذات غطاء للأذن، ويمكن رؤية أنفاسهم الساخنة

وهي تطغى على الهواء من حولهم. إلا أنهم لا يبدون أي ردود فعل إذا لوّح لهم أحد السائحين بيده في فرح ومرح، أو عوى ثمل بشيء من إحدى الفتحات الهوائية في سقف القطار، أو حتى قذف أحدهم قشرة موز من إحدى النوافذ.. يقفون في صمتٍ بين الأعمدة والعوارض،حاملين على أكتافهم أسلحتهم، ويتفحصون كل عربة من عربات القطار، بأعينهم طولاً وعرضاً. صغيرو السن منهم، يبدون تعساء، وقليلي الحيلة أمام السلطة التي أوكلت، أما الكبار منهم، وعلى كثرة ما يحملونه من شوقٍ ينكرون وجوده، أشرار.. يخيل للناظر أنه يقرأ على وجه هذا الضابط أو ذاك– بحاجبيه المقطبين اللذين يعلوان نظرة فولاذية– «صبراً!».. أمنية الانتقام من صميم القلب، كلما مر مثل ذلك القطار ذي اللون الأصفر اللامع، وبريق الانتصار الفاقع بمملكته تحت سطح الأرض، مرور الألم في وريد رجل مسن.

بعد مرور بضعة أشهر قضتها «ألينا» على ضفاف نهر الراين، تسنى لها أن تبدل شقتها بشقة طالبة من حي «فيدينغ»، تحوي غرفة ومطبخاً وحماماً، من دون دش. منطقة لا يكاد أحد يحظى بمكان أكثر كآبة منها، وخاصة إذا كان آتياً إلى برلين الغربية. فئران، وأبواب معدنية، وصناديق متهالكة تفيض منها القمامة.. تفوح من الحدائق الخلفية

الضيقة رائحة كريهة، مزيج من نتانة الجدران المبللة، ودخان احتراق الفحم، وكلاب الجيران التي تتبرز في بئر السلم مراراً وتكراراً، كل ذلك كانت تشاهده حين تذهب إلى المسبح المسقوف على بعد شارعين، ثم تعود في صقيع الشتاء بشعرها المبلل إلى البيت. تدرس الأدب الألماني، والعلوم المسرحية، والتاريخ الفني مثلما خططت تماماً، ومن أجل تمويل ذلك، ونظراً إلى إن والديها لا يستطيعان منحها إلا القليل من المال تضطر إلى أن تعمل أحياناً في مصنع ماكينات، تجهز ألواح الصفيح بالقطعة، أو تسافر في العطلات الدراسية إلى ألمانيا الغربية، في محيط مدينة «كريفيلد»، حيث تعبئ الخيار في برطمانات لمدة اثنتي عشرة ساعة في اليوم. «بدون قفاز».. تقول ذلك، وتريه أصابعها المملحة، «وليس هناك صابون في الحمام».

لديها أصدقاء في برلين، ومعارف من الزاورلاند، وتعيش حياتها من دون أن يشارك هو فيها بصورة فعالة. فهو يعمل يومياً في كتابة روايته الأولى. ولأنه يشك في موهبته، ينقذ نفسه بالانضباط.. لا يتقابلان إلا في نهاية الأسبوع، في معظم الأحيان في حي كرويتسبرغ، في شقته الهادئة بالطابق الأخير تحت السطح.. يملآن الثلاجة بالتموين، ولا يتجاوزان عتبة البيت إلا يوم الاثنين، أو يسافر هو إليها ليحرق

المسودات الأولى التي تم تصحيحها بمدفأتها الحجرية، ويعد لها الطعام بعد ذلك. ونظراً إلى أنه عمل لفترة طويلة في الحانات والمطاعم الكبرى، فإنه يتقن أعمال المطبخ في سهولة ويسر. ولأنه يطبخ من أجل ابتسامة.. من أجل السعادة التي تغمر وجهها، فإنه يتقن الكثير من الأكلات على الرغم من أنها لا تلذ له بقدر ما تستلذها، وهي التي تتغذى بشكل أساسي على الشاورما التركية والتفاح. فضلاً عن أن الطبخ ليس مجرد عمل ضروري فحسب بالنسبة إليه– مع أن الطعام قلما يكون شهياً، كما كان أيام الطفولة، عندما كان والداه يجنيان البازلاء والراوند من الحديقة، ولوح الخشب الذي يقطع عليه الفطر تفوح منه رائحة أطيب من رائحة الفطر نفسه– بل إن الاهتمام الذي تحظى به المواد الغذائية وعملية إعدادها يدخل الطمأنينة إلى قلبه، ويهدئ من روعه لمجرد أنه ليس هناك أدنى شك في ما وراء ذلك من الحكمة.

لقد انتقلت «ألينا» إلى برلين من أجله، ولكنهما لا يتكلمان عن ذلك، فهو أمر بدهي، بعد أن تركت خطيبها. ولا يبدو أنها تنتظر منه أن يغير شيئاً في حياته من أجلها. فتقطع مسافة طويلة لتراه مرتدية ثوباً أسودَ يبرز مفاتن جسدها من دون أن ترتدي شيئاً تحته، وتشير إلى الحائط، إلى رسم خياله ذي القوام الممشوق وما فيه من قرن، ثم تحرك

الأباجورة كي يبدو أكبر حجماً. وهو يعشق جرأتها حين تسلّم نفسها إليه، منفرجة الساقين فور اقترابه من الفراش.. يعشق أن يحك وجنتيه في حلمتي ثدييها، وهما متصلبتان ولكنهما طريتان، ثم يمتثل فوقها وكأنه يؤدي تمارين شد العضل: مشدود الذراعين، وممشوق القامة من أصابع قدميه حتى كتفيه، بينما هي تدلك عضوه رويداً رويداً، بفضول موضوعي، مستخدمة في بادئ الأمر أطراف أصابعها فحسب، ثم كفها، وهو يتملى مذاق سعادته بالمني، الذي يخرج منه متدفقاً، بعد أن اختزنه لها لأيام، وكأنه لم يتلذذ به مع أية امرأة من قبلها– وبها وهي تلهث الأنفاس فرحة بالسلطة التي يمنحها إياها، ثم ترفع ذراعيها وتطوق بهما عنقه، وتجذبه إليها في رقة وهمس.

وهنا فقط يمكن التماسه فعلياً، الفرق في السن في ما بينهما. فبالنسبة لـ«ألينا» التي لا تزال تحتفظ بصورة لفصلها المدرسي على حائط الصور، يرتدي الأطفال فيها بلوفرات ملونة، مخططة بالعرض، ومعهم المعلم طويل الشعر، يعد الجنس أمراً بديهياً، تماماً مثل الأكل والشرب. فهي ليست قليلة الحياء، بل قد تحمر خجلاً، إذا ما التقاها عارية في حمامه، ولكنها كما أنها لا تظن سوءاً بأحد، ولا تسبّ أو تلعن أو حتى تذكر أحداً بسوء– ليس لمجرد أن تلك هي طريقتها، بل لأن هذه

هي طبيعتها–لم يحدث أن جال في خاطرها شعور بالخطيئة، لأنها قد ابتغت سعادة لا يشكل الجسد فيها إلا وسيلة جميلة فحسب. بينما القوة الدافعة لدى «فولف» مصدرها المحرمات، مما يمنح الأمر بعضاً من العنف، ولكنها نادراً ما تتعدى به حدود الجسد. الفضل في ذلك يرجع إلى الكنيسة الكاثوليكية بتربيتها الزائفة في المدرسة وإلى نادي الشباب اللذين أفسداه لأقصى الدرجات، وجعلاه مستعداً لأن يفعل أي شيء. ولكنه في النهاية، ومهما نفر من تلك العبارة، فما يقوم به ما هو إلا ممارسة الحب.. «ألينا» هي الحب.

حياته الجنسية.. يوميات من الكبت، فلا يزال الجنس جوهر الحياة بالنسبة إليه كعهده منذ زمن، ونعمتها الحقيقية. ولهذا السبب فشل غالباً في كل هذه المرات. ففي حقبة الستينيات التي صبغتها تعاليم الدين المسيحي بلون كتابها الأخضر وأفعمتها تزمتاً، وألقى عليها القساوسة ظلال ثيابهم الطويلة في نبرات منذرة محذرة، انبعثت في نفسه الشهوة، وقت افتتانه بأغنيات فريقي «البيتلز» و «الرولينغ ستونز» تقريباً، وعندما توارى للمرة الأولى مع فتاةٍ في الأدغال على مشارف بلدته، لم يكن قد بلغ الثالثة عشرة من العمر، ولم يكن لديه أدنى تصور حول ما هو مفترض أن يحدث بينهما بخلاف ما قرأه في مجلة «برافو» من مقالاتٍ غامضة،

بالإضافة إلى بعض النكات الخارجة على ألسنة أصدقائه في المدرسة، ممن يبدو أنهم قد قاموا بذلك من قبل، وقد قاموا بالتقاط بعض الصور الإباحية. ولشدة خوفه من أن يعثر عليهما أحد، لم يخلع من ملابسه سوى ما لا مفر منه، فأنزل بنطاله إلى ما فوق ركبتيه بقليل، وجسمه كله يهتز مرتجفاً، ولم يعثر حتى على مهبل تلك الفتاة السمينة البالغة من العمر ستة عشر عاما، والتي كانت تضاجع الكثيرين آنذك. وعندما توسل إليها وهو يلهث الأنفاس أن تقدم له يد العون، أشاحت بوجهها عنه وقالت في سأم: «كلا».

فضيحة مبقعة بين النجيل والمني.. كانت هذه المرة الأولى، وبداية لشعوره بذنبٍ لا نهاية له.. لم يفارقه لزمنٍ طويل، فقط لمجرد إحساسه بالشهوة. كانت للأخلاقيات الجنسية خلال تلك السنوات، علاقة ما برذاذ الشعر، والتسريحات المتصلبة، والحواجب المرسومة، وأثواب الكوكتيل ومقاعد الكوكتيل وسجق الكوكتيل في منازل ليست فيها أية مشروبات كوكتيل من الأساس. كما كانت للاخلاقيات الجنسية علاقة أيضاً بالملابس الداخلية الرجالية المصنوعة من القماش المضلع، والنسائية الساتان الفضفاضة، إلى جانب الرغبة المتعذرة أبداً، والهمس في الظلام بشفتين رفيعتين وعبارة: «أنا لا أقوم بمثل هذه الأفعال!»

في حقبة السبعينيات المنمقة أصبحت الحال أفضل مما كانت عليه من قبل.. ليس فقط لأنه بدأ يكسب المال وتمكن من الذهاب إلى بيت الدعارة إذا دعت الضرورة. فقد حاول أن يجرب الكثير في الفرش المعبقة برائحة الدخان من دون أن ينتمي إلى أوساط تلك الثقافة التحتية فعلياً. رفيقته التي أطلق عليها عشاقها السابقون اسم «شعلة الفراش»، لأنها كانت تفيض تألقا عندما تصل إلى الذروة، رغبت في أن تنال منه أيضاً تلك التسمية، ولكنها ما لبثت أن انضمت إلى الحركة النسوية. فجأة أصبح عضوه مشكلة من جديد.. فجأة لم تعد هناك قمة للشهوة التي منحها إياها عهداً طويلاً. فقد تحتم عليه أن يعيد النظر في ملاطفاته من جديد، وارتكب خطأ قراءة كم من أعمال الأدب الأنثوي أكثر من أية امرأة، فلم ينتفع منه بشيء. إذ إنه مهما بلغ تعاطفه مع النساء من مدى، يبقى رجلاً، ومن ثمّ ليس له أن يفهم النساء كما يرغبن. وحتى لو فهمهن هكذا، فسيطلبن أن يُفهمن بطريقة أخرى. لقد تفوقن عليه دائماً بابتسامة.

ثم جاءت حقبة الثمانينيات، الانقلاب. ففي الوقت الذي كانت فيه تسريحات وأزياء العقد السابق، توصف من خلال الشعر الطويل والأكمام وبنطلونات الشارلستون هيئة المخروط–حيث كان كل شيء ذا طابعٍ واسعٍ من قمة

الرأس حتى أخمص القدمين–أما الآن فقد انقلب الأمر تماماً من حيث الشكل: لقد أصبحت الأحذية بمقدمات مدببة، والبنطلونات ما فوق القدم ضيقة، والأكمام منتفخة عند الكتفين بطريقة جعلت المظهر العام يأخذ شكل الوتد. حتى الوجه نفسه لقد عكست ملامحه صدى هذه الهيئة مرة ثانية، ابتداءً بالذقن وحتى أطراف الشعر المتباعد عن الرأس كأشعة الشمس. كان الناس يحبسون أنفسهم في حمام الـ «دشنغل» أو الـ «سلمبر لاند»، أو ما شابههما من أسماء ساحات انتظار الحظ، ويمسحون آثار البودرة من على الأنف، وهي نوع رديء من الكوكايين، ويمارسون الجنس بسرعة وعنفٍ في وضعية الوقوف. وحين أراد في إحدى المرات أن يلعق فرج امرأة شدته من أذنيه إلى أعلى، وقالت: «كلا، ليس هذا.. إنه شخصي للغاية». وفي إجازات نهايات الأسابيع التالية، وفي المكان نفسه، ووسط الراقصين والراقصات ذوي القسمات الحادة والحركات المتقززة، ما لبث أن تجاهل كل منهما الآخر.

عندما ينتهي من كتابة روايته تدعوه «ألينا» للقيام برحلة وتود أن تذهب إلى مدينة أمستردام، حيث إنها لم تقم بزيارتها بعد. أما هو فقد تردد عليها مراراً في صباه الذي أمضاه في ألمانيا الغربية، بغية تدخين الحشيش الذي يسهل الحصول

عليه هناك وحضور الحفلات الموسيقية بالـ «باراديزو». وفي كل مرة ترجعه أزقتها الضيقة والمرصوفة بالحجارة، والتي كانت عرضة لرياح باردة وممطرة تنتفض منها الدماء في العروق. فهو لا يطيق قرب البحر إلا في الجنوب. وفضلاً عن ذلك يزعجه انتشار الإجرام في كل مكان، وحين يقول لها: «انسي أمستردام!»، تومئ برأسها في حزن، ولكنها تلاحظ مباشرة أن ذلك يصلح، لأن يكون عنواناً جيداً لكتاب. عند ذلك يقبلها، ويحجز غرفة في فندق مطل على قناة برنسنغراغت.

وفي غضون ذلك كانت قد انتقلت من حي «فيدينغ» المتدني إلى «كرويتسبرغ»، بمحطة زودشتيرن، فأصبحا بالمصادفة يسكنان على بعد شارعين من بعضهما بعضاً، ويترددان على المحال والمقاهي ذاتها، مما تسبب لها ببعض المشكلات في بادئ الأمر كما يبدو. تخشى أن يزعجه فضولها، ولكنها غالباً تود فقط أن تسمع من «فولف» أنها ليست فضولية مطلقاً. بلى، إنه بالأحرى سعيد بقربها منه.. على الأقل في الوقت الراهن. يطبع كل صفحة من الصيغة النهائية للرواية ما بين خمس عشرة إلى عشرين مرة على الكمبيوتر، فما إن تصدر عنه أية هفوة، حتى وإن كانت مجرد فاصلة، يكون ذلك بمثابة إشارة إلى أن ثمة شيئاً في النص

بأكمله ليس على ما يرام. الأمر الذي تثبت صحته في أغلب الأحيان. إن طريقة العمل هذه هي إشارة إلى أن ثمة شيئاً في داخله ليس على ما يرام.. هذا ما يستنتجه لاحقاً. لأسابيع طويلة لا يزيد عدد ساعات نومه على أربع ساعات في الليلة، حينها يشرب القهوة بالإبريق، ولشدة توتر أعصابه، كثيراً ما يراوده شعور بأنه أصبح شديد الحساسية لدرجة أنه سيخر على الأرض إذا ما ارتطم به عقب سيجارة. إلا أنه في المساء، وأثناء تناول وجبة العشاء الرخيصة في المطعم الهندي، أو التركي والتمشية على ضفة القناة بعد ذلك، تنفرج أساريره لدندنة «ألينا» إلى جانبه في رضا، وعطرها يسكن ثائرته، وابتسامتها تزوده بالطاقة.

لا يبدو أن نزواته المفاجئة طوال هذه الفترة تزعزعها، فهديره كالبركان.. رغبات أو بالأحرى غرائز. تعتني بتغذيته، وتعد له كوباً من الحليب الساخن بالعسل. وبينما هو واقف بجوار النافذة ينهل منها، تصحح له الصفحات الأخيرة وتجد على الهامش حلولاً لمشكلات كاد ييأس منها. كونه يعبر بوضوح، من دون أن يستسلم لسطوة أحادية المعنى، ذلك هو نموذجه خلال هذه المرحلة، ولأنه يطبق عليه بأسنانه، تتلبد أمامه بعض الأمور بالغيوم. «هذا خطأ».. تقول له في مرة من المرات، مشيرة إلى مقطع قرب

النهاية. «النيران لا تحترق! بل تتوهج أو تشتعل أو يتصاعد منها الدخان. ما يحترق هو شيء آخر..». هنا أحس بحمرة وجهه من شدة الحرج.

حسناً.. في ما يخص الرحلة، فلها الشكر. بعد أن يحضر المسودة إلى مكتب البريد، يجد وسط الحشيش أرنباً صغيراً، أبيض اللون، ولعبة من القماش ربما سقطت من إحدى عربات الأطفال. ثم يمضي منهكاً.. يطغى عليه حر ساعات الظهيرة المتأخرة، وآثار المادة البيضاء لمصحح أخطاء الكتابة لا تزال على يديه، وإيقاع السطور الأخيرة حيٌّ ومتقدٌ في ذهنه. يفكر للحظة في شراء زهرة، ولكنه لا يفعل. كانا قد اتفقا على تناول الطعام بشقة «ألينا»، ثم ركوب القطار الليلي، مروراً بمدينتي هامبورغ وبريمن. الاضطرابات داخل الجمهورية الألمانية الديمقراطية في تزايد مستمر، وكثيرٌ من المواطنين يخترقون الحدود المجرية ومنها إلى النمسا، فراراً من دولة تفككت عراها. حديقة سفارة ألمانيا الغربية في مدينة براغ تبدو مثل معسكرٍ للاجئين، وعلى الرغم من ذلك لا تزال خطوط السكك الحديدية لمرور الترانزيت تواصل عملها. يصغيان إلى نشرة الأخبار والموسيقي، وبينما كان يقطع الخضراوات عرضت عليه «ألينا» ما تود ارتداءه في أمستردام من ملابس. كانت قد قامت بطلاء أظافرها باللون

الأحمر للمرة الأولى.. الأحمر الداكن، ولا يزال ينقصها شيء من الخبرة. كما أن حذاءها لم يعرفه، فقد كان ذا كعب عالٍ بمقدمة لا تغطي الأصابع بالكامل، إذ إن الفراغات في ما بينها كانت تثير لديه الشهوة. يبدو أن الرحلة الجماعية الأولى تعني لها أكثر مما يتصوره.. تثرثر بلا كلل، وتشرب كأس النبيذ الثاني مباشرة، وتتألق بعض الحمرة في خديها وإذا بها فجأة تريد أن تعرف منه ما الذي يكنّه لها من مشاعر. يضغط بقدمه على دواسة صندوق القمامة وقشر البصل ملء يديه، ثم يرد عليها قائلا: «نعم؟ لا أسمعك جيداً.. صوت الكمانجات عال للغاية».

ثم يدس يده في حقيبة سفره، ويقذف بالأرنب الأبيض إليها في رمية عالية.. بعد الأكل يبقى القليل من الوقت، ولكن «ألينا» تسحب يده من شعرها، وتعد بعض الشاي، وتحكي أثناء ذلك عن عملٍ جديدٍ في الشهر المقبل.. هنا في الجوار. يعرف المحل من اسمه، وهو دار كتب يسارية سابقا يقع مقرها بحي شتيجليتس.. في السبعينيات علقت في واجهات العرض الخاصة بها، ملصقاتٍ بخط اليد تزينها أزهار القرنفل البلاستيكية، وأعداد لا تحصى من النداءات المشبعة بعلامات الاستفهام. والآن نشأ عنها اتحاد مؤسسات مستقلة، سلسلة تبتاع السلع المعمرة ويشتهر

مديروها باتباعهم سياسة أمريكية في إدارة شؤون العاملين. إلا أن «ألينا» فرحة بالعمل هناك، فقد كانت تعمل يومين في الأسبوع، مما يعني أنه أصبح لديها المزيد من الوقت من جديد، من أجل الدراسة ورسالة الماجستير اللتين تود أن تنهيهما بسرعة. وبالفعل تحرك يدها إلى الخلف وكأنها تلقي بشيء وراء ظهرها.

ومرة أخرى، يعجب بالسلاسة التي تنظم بها حياتها اليومية. فمن الظاهر أنها لا تضع في حسبانها من الأساس أنها قد تحرم من أحد المقومات الضرورية للعيش، مثل مكان السكن، والعمل، والغذاء. ولأنها إضافة إلى ذلك ليست لديها رغبة ملحة في الحصول على أي شيء، يؤول إليها كل شيء. في زمن من الوقت، أقل بكثير مما استغرقه في أسابيعه الأولى، اتضح لها أن تلك الهرولة المتوهجة والمدعمة من كافة الجهات ما هي إلا حركة دون إنتاج، فهي تنهك الأعصاب ليس إلا، في حين أن الحياة بين الجدران لم يعد فيها شيء له ضرورة فعلية، ولا حتى في هوامش الحياة. ولكنها الآن يبدو عليها الحزن، وكأن قلبها قد انقبض.. ثمة شيء لم تفض إليه به، أسدل عليها هالة سوداء، ولكنها لا ترفع نظرها حين يسألها عن ذلك.

تعبث بشعر الأرنب القماشي في حجرها، ويحاول

استخلاص التغير من بين طيات الصمت الذي حل بلهجة الحديث، فتصبح أنفاسه ضحلة.. يغمض عينيه قليلاً، ولأن معاناته من نقص مزمن في الواقعية، جعلته متنبها لكل ما قد يهدد كيانه الحالم، وهو عبقري الأوهام، لا يفاجأ أبداً عندما تخبره بأن دورتها الشهرية تأخرت. يومئ برأسه فقط، وينظر خارج النافذة إلى المدى البعيد، يرتشف فنجان الشاي، أو بالأصح يختبئ خلف حافته الذهبية، و«ألينا» تقلع للأرنب الصغير بضع شعيرات، ثم ما لبث صوت الحفيف الخافت، أن أصبح ذا وقعٍ قاسٍ عليه حول جملتها الأخيرة، ويصمت فجأة، حينما شرعت في الحديث عن إنذار كاذب. فقد انقطعت عنه لفترة قصيرة، وبعدها عاد كل شيء إلى مجراه الطبيعي...

ولكنه يشعر بأن هناك أمراً لا يزال يقلقها، فهي تتحسس حليها.. تزيح اللؤلؤة التي بعقدها يمنة ويسرة، وترمش بلا كلل، ثم تأخذ نفساً عميقاً: لكن طبيبة أمراض النساء قد نصحتها أمس أثناء الكشف بأن تبدأ بالتفكير في الأطفال، الآن، وهي في منتصف العشرين. فما حدث، غالباً ما يكون إشارة. ولذا... تزدرد ريقها بصعوبة، ويسمع صوت ذلك في حلقها، وعندما يهمّ واقفاً ويفتح النافذة، بشكل مفاجئ بعض الشيء.. يبدو له وكأن شيئاً ما في داخلها يهوي أرضاً.

على أي حال، تواصل الحديث بصوتٍ أقل انخفاضاً، بحيث يكاد يكون همساً: فهي تود أن تعرف رأيه في ذلك، وإذا ما كان بوسعه أن يتصور ذلك؟

تمس «ألينا» شغاف قلبه في الوقت الحالي، بأكثر مما قد يعترف به، ولا يريد أن يخيّب رجاءها. إلا أنه لا يود أن يثير لديها آمالاً كاذبة لمجرد أن ذلك يتماشي مع الوضع الحالي للهرمونات. من المؤكد أن في مطالبة امرأةٍ سليمةٍ بتوديع كل ما لديها من آمالٍ وإقناعها بعدم إنجاب الأطفال، إهانة لها.. تماماً كأن يُتوقع من رجل ألا يضاجع أنثى أبداً. ولكن مشكلته هي أنه لا يرى الدنيا كما تراها هي، بل يراها كما يجب في رأيه أن تكون: حياة حرة، مليئة بالمتعة والمغامرات، ولا يتصورها في شقة بثلاث حجرات، وبقفص أطفال أو في بيوت متلاصقة أشبه ما تكون بعطلات ثابتة.

تنوه له «ألينا» الآن، همساً بأن الحياة ليست ورقة تنتهي عند حافتها، وأن منطق الحياة يختلف عن ذاك الذي تكون عليها القصائد الغرامية، وبأنها تتطلب تحمّلاً للمسؤولية ونداءً بالتوجه نحو المستقبل.. كل ذلك يصدمه، ويعتقد أن من حقه أن يثور غضباً، عندما تتحدث إلى جانب ذلك عن شقة الجوار التي ستصبح خالية عما قريب.. في هذا الوقت بالذات! «لن أتمكن من إتمام ذلك قبل رحلة التزلج»، هذا ما

يسمع أحدهم يهتف به في الشارع، والمذيع الإذاعي يتمنى بداية طيبة لعطلة نهاية الأسبوع مع إذاعة هوائي الثقافة والسكيرتزو رقم واحد سلم سي صغير مصنف رقم عشرين لفريدريك شوبان. هناك مكيدة تدبر، هذا ما يساوره من شك، ويشعر وبأنه قد غفل عن قراءة شيء ما، لأنه مطبوع بخط صغير، ذلك البند السري الذي يحتوي بالمرصاد على الرسم الهندسي لما هو متوقع. يفضي به ذلك إلى مذاق قاتم ومريب في فمه، ويفسد عليه الرحلة فجأة، فيرمي بالتذاكر على السرير، ويشد الحقيبة على كتفه تاركاً «ألينا» وحدها مع الدموع.

ما إن يعود إلى البيت، حتى يرن جرس الهاتف، ولكنه يتجاهله. يعيد ملابسه إلى الخزانة، ويرتب مكتبه، ويمزق مذكراته، والصيغ العديدة لمخطوط كتابه قطعاً صغيرة، ثم يقشر تفاحة ويواصل الاستماع إلى المذياع.. أنباء جديدة عن الغليان الذي يسود ألمانيا الشرقية.

كان مثل أغلبية معارفه وقتئذٍ لا يعي من أمر الدولة القائمة على الجانب الآخر من الجدار شيئاً أبداً، وذلك على الرغم من أن برج التلفزيون كان يقع على مدى البصر.. بكرته العاكسة للضوء الوردي في ليالي الصيف. فقد قام بزيارة شرق برلين مرة واحدة خلال خمسة عشر عاماً.. صُدم خلال بكآبة

شوارعها المجردة من الأشجار، والرائحة النتنة التي تنبعث من السيارات التي تبعث على الضحك، وعلامات الحزن المرتسمة على وجوه الناس الذين يتوارون عن الأنظار إلى داخل بيوتهم ذات الواجهات التي دمرها الرصاص، مما جعل اشتراكيته الرومانسية التي خرجت من منطلق أن وجود حرية ومساواة ومؤاخاة من دون جمال ليس ممكناً من شدة الرعب والفزع، أكثر رومانسية. كل ذلك كان نتيجة خطأ سريع الزوال، حتما، وحيث إنه لم تسنح له الفرصة بأن يصرف العشرين «مارك» في مكان آخر، لأنهم ألزموه بتغييرها، أنقذته دار مكتبة بميدان أليكساندر بلاتس. وهناك شعر بقدر أكبر من الارتياح، رغم أنه أدرك بسرعة أن العملاء هم السبب في ذلك.. أناس من الغرب بصفة رئيسة، ذلك لأن شراء كتب مجلدة بالقماش المشمع، وبأسعار متواضعة– جوركي، وبريشت، ودوستويفسكي كاملا بأقل من سعر وجبة عشاء في مطعم الـ «روبنجاتر»– كان يعد بالنسبة إلى الكثيرين السبب الوحيد في الذهاب إلى برلين الشرقية. دهش «فولف» عند رؤيته الرفوف التي تضم عدداً لا بأس به من الكتب ومن بينها الكثير من الأعمال الكلاسيكية التي كانت في غنى عن أي رونق يضاف إلى السلع التجارية، مما جعل أغلفتها وطباعتها تبدوان في نظره أكثر إنسانية عما

كان موجوداً في الغرب. و فجأة أصبحت تهز قلبه من جديد قصيدة غنائية لشكسبير رصت أبياتها مائلة بمجرد أن مرر أطراف أنامله عليها، أو طبعة سيئة لأشعار «جوته» على ورق يحتوي على الخشب، وأمضى ساعات طويلة يقلب الرفوف بالطوابق المختلفة رفاً رفاً، ولكنه في النهاية لم يشترِ إلا كتيباً لماكس فريش.

قامت محاسبة الخزينة، والتي كانت ترتدي جونلة صوفية وبلوزة غير مكوية جيداً، بطباعة السعر على جهاز الكاش. كانت في ضعف عمره على الأقل، فاليدان الخاليتان من أي حلي أو مجوهرات، ضاربتان إلى الحمرة من كثرة الغسيل، ولم تفح منها أية رائحة على الإطلاق، كما أن وجهها بدا وكأنه يأبى على نفسه التعابير بكافة أنواعها.. ولعل ذلك كان سبب الغموض، الذي بدا له محيطاً بها، إلا أنها حتى لم ترد له الابتسامة. كانت ترتدي جوارب قد انتهى عهدها بالغرب منذ زمن بعيد.. لونها بني وفيها خياطة تشبة حلوى العرقسوس، كما أن شعرها كان معقوصاً على قمة رأسها في شكل كعكة، كان يطلق عليها سابقاً الـ «دوت» أو «بصلة هللويا»، وبينما كانت تحصّل النقود، خطر له أن يشتري شيئاً آخر. فأشار إلى فاترينة العرض العلوية ذات الرفوف الممتلئة بالأعمال الأدبية الأجنبية: «أيوجد هناك أيضاً براوست؟»

لم يرد من ذلك السخرية أو الاستفزاز، خاصة وأنه قد لفت نظره وجود مجلداتٍ لا تحصى لكل من هيمنجواي، ومايلر، وفوكنر، وسارتر، ومالرو. فقد كان مجرد شاب أراد منذ زمنٍ طويلٍ أن يقرأ رواية «البحث عن الزمن الضائع»، ولكنه لم يستطع شراء طبعة الغرب المجلدة في حافظتها الثمينة، والآن رأى أن الفرصة سانحة. وكان لا يزال بحوزته عدد كبير من الماركات الشرقية. رفعت السيدة نظرها، وردت خصلة شعر انسدلت على وجهها خلف أذنها، وكانت شفتاها مصبوغتين بأحمر الشفاه.. حمرة خرساء، ولفت نظره منديل حرفه مشغول بالكروشيه. «براوست؟» سألته السيدة في صوت خافت، وكأنها لم تسمعه بوضوح، ومع ذلك بقيت جامدة الوجه.

دس «فولف» الباقي في حقيبته.. قطع النقود المصنوعة من الصفيح، بينما كانت تتفحّصه بعينيها طولاً وعرضاً. بدت على وجهها، خيبة أملٍ عميقة، قد اعتاد عليها من قبل.. وبغض النظر عن أنها لم تكن لتعوض عن ذلك طوال حياتها فهي لم ترض بأن تصبح إلى جانب ذلك، موضع سخرية. حتى لون بشرتها بدا له غاضباً، وارتعش خداها الذابلان عندما هزت رأسها. بيد أن التعبير في عينيها الكبيرتين والملتهبتين عند شرطتي جفنيها كان يقظاً وذكياً،

ثم بدا عليها، وكأن سذاجتها قد اكتشفها ذلك الرجل ذو الشعر الطويل والسترة الجلدية،، وطرقعت لسانها مثلما تفعل مدرسة عقب جواب تلميذ في منتهى الغباء. ثم ردت قائلة: «لا يوجد هنا براوست»، وصرفت وجهها شطر الزبون التالي.

لكنها عندما خرج إلى الشارع، وتطاير دخان سيجارته نحو واجهة العرض، رفعت نظرها مرة أخرى من على لوحة المفاتيح ذات اللون العاجي وبجوارها الغلاف الواقي في انتظار موعد الإغلاق. وقد بدت تجاعيد وجهها أكثر نعومة، وشبه منبسطة، وخيل له أنه التمس في نظرتها عذراً، أو ربما عطفاً، ولمح ظل ابتسامة حول فمها الحزين، الذي قد بهتت حمرته عند الزاويتين. ثم حركت رأسها على نحو يكفي لأن يُفسر على أنه إيماءة تحية في الخفاء.

« أرجوك لا تكوني شديدة الحساسية هكذا». «ألينا» تلهث وتتحشرج، وهو يعلق السماعة بين كتفه وأذنه، لكي ينزع بذور التفاحة. صوتها الذي عادة ما يدوي رنينه العذب في أذنه، بحيوية ونشاطٍ، يقع الآن من مسمعه موقعاً غريباً، مطموس المخارج، وكأنما تخيم عليه ظلال الصمت الذي يتحصن به. «إنني لا أريد أي أطفال مبدئيا»، تمضي «ألينا» في الحديث. «إنني أدرك جيداً أهمية الخلوة بالنسبة إليك..

كل ما أريده هو أن أسمع منك إذا ما كان بوسعك أن تتصور ذلك».

ثمة شيء ليس على ما يرام في ما يتعلق بإدراكه للموقف. كما يسمع قضم تفاحة صيفية، أو كوقع القدم في الثلج الطازج، يعلو صرير كلماتها على أفكاره، ويقتعد حافة مكتبه محملقاً ببصره في غسق المساء، بلونه الأحمر البنفسجي، الذي تسبح فيه أسراب الغربان. ثم ضغط أضراسه قائلا: «بإمكاني أن أتصور الكثير...»، ويبعث وقع لهجته برودة أكثر مما أراد، خاصة وأنه لم يرد من وراء ذلك، إلا كسب الوقت. لكن ما يتبع ذلك من صمتٍ، يجب حتماً أن يهمس فيه بأذنها «... ولكن ليس معك أنت!»، حتى ولو أنه لا يعتقد ذلك بطبيعة الحال. من ناحية أخرى، فهو لا يقوم بأية محاولات، من أجل تصحيح ما قيل. ينظر إلى صورة خيال ظله المنعكسة على زجاج المكتب المتسخ.. القسمات الجامدة، التي تظهره أكبر سناً مما يشعر، ويقذف ببضعة مشابك إلى سلة المهملات. وهنا تتنحنح «ألينا» وتقول.. إنها ستسافر إلى أمستردام على الرغم من كل ذلك، وبمفردها إذا لزم الأمر. ثم تنتظر قليلاً، بينما هو يلف السلك حول إصبعه، ثم تضع السماعة، ذ إنها لم تنل منه رداً. من دون وداع.

ماذا حدث بحق السماء؟ تحول سخطه إلى خجل،

وانعكست صورة–لا يخجله أن ردة فعله لا تتجاوز لهاث الفزع، حين يتعلق الأمر بالحياة بصورة مباشرة، بقدر ما يخجله أن «ألينا» قد شهدت منه هذا الخوف– ما لا يود الإقرار به على الإطلاق، بل وفوق كل ذلك لا يود الإقرار بجبنه. وبينما هو يحاول أن يوهم نفسه بأن آلام معدته تثبت قوله (وهي في الحقيقة بسبب أكل البصل)، يمزق بعض مشاعر الغضب الأخيرة على الورق، وينظر في صورة بالأبيض والأسود لألينا بجانب الآلة الكاتبة.. بالشعر المموج وبصيص ضوء على الجبين. استخدم فيها الفلاش رغم أن الحجرة كانت مضاءة.

وفجأة يخطر بباله، أنها في بعض الأحيان، تزيّن وجهها بالماكياج قبل أن يتحادثا هاتفياً.. إنها لا تستعرض ثيابها الجديدة أمام المرآة، بل أمام عينيه أولاً، وتشعر في شهر مايو بأنها «مثل زهرة الليلك»، وبأنها دائماً تدرك ما هو حقاً شاعري على عكسه، الناحية السفلية المشرمة لورقة ما، رائحة الشاي التي تنبعث من بعض الخيل على طرق الخيالة في الغابة، النظر إلى ساعة اليد بقطعة من خبز الذبيحة في الفم. وحين يتذكر أن أحد أحلامها يتمثل في حجرة مخصصة للكراسي الجميلة فقط، وأنها حتى عيد ميلادها السابق كانت تعتقد أن الأصوات التي ترد مصادفة هي هدير أمواج البحر

الذي احتفظت به بداخلها بطريقة ما، وأن كلمة «بورتمونيه» المأخوذة من الفرنسية (portmonnaie) مصدرها port de monnaie، أي ميناء النقود. يضيّق الندم عليه الخناق، ويبحث عن كتيب جدول مواعيد القطارات، ويقلب صفحاته.

وترتعش أصابعه خلال ذلك.

كلها تقادمت، وعفا عليها الزمن، والآن لا يمكن أن ينجده إلا المستحيل.. عليه أن يعود إلى ما قبل الحاضر، ما قبل الذنب، والألم، والدموع، ويتصل بالدليل ويبلغه أن هناك قطاراً آخر قبل القطار الليلي السريع، مما يعني أنه سيصل إلى أمستردام في الساعة السادسة صباحا تقريباً.. أي قبل وصولها بساعة. ويعد حقيبته للمرة الثانية، ويجد الأرنب في الجيب الجانبي.

الجدران مرصعة بالبلاط الأصفر الكبير في محطة قطار تسو، كآبة صالة السفر تبدو واضحة بأسقفها المنخفضة. منذ زمن طويل يحلم بأن يكتب قصة يفتتحها بعبارة: «حين كانت لا تزال هناك تذاكر استقبال..». لا بد من أن ذلك كان في وقتٍ ما من طفولته. عربات قطار سكة حديد الرايخ، فارغة أكثر مما تصور.. يأخذ مقصورة لنفسه. تفوح من كسوة الحائط، ومن الدكك المتصلة في ما بينها رائحة البلاستيك والمطاط المعروفة عن الجمهورية الديمقراطية،

وتوجد صورة لغابات تورنغن معلقة فوق مسند الرأس. لم يتغير شيء في المحطة التي تقع على الجانب الآخر من الجدار.. ينعكس وميض ضوء القمر على زجاج النوافذ المنزلقة في برج المحطة، وذوو الزي الموحد وحقائب العمل الصغيرة المشدودة إلى بطونهم، ينظرون في صمت إلى القطار وهو يدخل المحطة. على أرصفة القطارات المعطلة في الخلف، تقف مقطورات مركبات محملة بالدبابات المغطاة، لا تبرز منها إلا المدافع.. العث يحلق على ضوء المصابيح العالية، ناثراً تراب أجنحته في الهواء.

الرجال الذين أياديهم اليمنى مسترخية عند موضع خياطة البنطال، بينما ترقد اليسرى فوق طرف الحقيبة المصنوع من الألومنيوم الممتلئ بالأختام والإيصالات يومئون للسائق برؤوسهم ويركبون القطار. بعضهم يذهب مباشرة إلى عربة الطعام أو يمازح جابي الأجرة الذي يفتش على تذاكر السفر، ولكن الموظف الذي يفتح باب مقصورة «فولف» يلتزم بقوانين العمل. بلا تحية يتفحص الرجل رف الأمتعة بعينيه، ويثني الركبتين بعض الشيء لينظر تحت الدكك، ثم يطلب الاطلاع على «أوراق السفر». لا يزال كل شيء كما كان دائماً: حتى أنه لا تفوح منه رائحة العرق أو مزيل رائحة العرق أو الكولونيا أو أي شيء.. القميص الرمادي الفاتح

منشّى، والأظافر نظافتها لا تشوبها شائبة، وخاتم الزواج موجود في مكانه. خلف النوافذ، الجمهورية القائمة، وبعد أن انتهى من مقارنة رقم الجواز بالأرقام الواردة على قائمة المطلوبين، وضع قطعة مستهلكة من ورق الكربون، تكاد تكون شفافة من كثرة الأسماء التي كتبت عليها، تحت تأشيرة مرور الترانزيت وملأها، وكانت تعلو وجهه سمات الجد. ولكنه عندما يضعها داخل الجواز، ويعبر العتبة، ويتلمس التأشيرة بكلتا اليدين، تعلو وجهه ابتسامة خفيفة، وتعبير حزين مع شيء من المرح، وكأنه يعرف أنه قد ختم على الهواء منذ لحظة.. ثم يتمنى رحلة طيبة.

يتباطأ القطار وصولا إلى صالة السفر، التي اجتاحت أرجاءها شمس الصباح في محطة القطار الرئيسة في أمستردام، حيث تتداخل أصوات مكبرات الصوت المسجلة مع الإرشادات الشفهية المباشرة، ورفرفة أجنحة الحمام. على الأرصفة أعداد لا تحصى من الناس المتجهين إلى أعمالهم، تدفق صامت ليس المرء إلا عقبة في سبيله، ولا يقطعه سوى صرير آلات ختم التذاكر.. يخرج «فولف» من محل الزهور وينتظر خلف لافتة تنبه إلى الإضرابات القادمة.

وبينما فرامل ضغط الهواء تصفر، والأقواس الكهربائية يتم إدخالها، يسمع دقات قلبه كقرع الطبول من شدة

الاضطراب، بل ويتصبب منه بعض العرق مع أن قدميه باردتان في ذات الوقت. وعلى الرغم من أن «ألينا» تنزل من القطار على بعد خمس أو ست عربات، إلا أنه يراها على الفور. أحدهم يناولها الحقيبة، وشعرها الذي أرجعته بيدها إلى الوراء يتدلى مجدداً فوق جبينها عندما تقدم الشكر، بانحناءة من رأسها. باهت لونها، وعيناها ذابلتان، ثم لا تلبث أن تراه بعد خطواتها الأولى وهو واقف خلف اللافتة، من دون أن يبدو عليها أي أثر للمفاجأة. تحتضن معطف المطر الأزرق بيدها، وتجر حقيبتها خلفها وسط الحشد، فيخرج من مخبئه، وينظر نحوها بعينين جامدتين.. يصطدم كتفه بالآخرين مراراً وتكراراً ثم يتوقف عن السير.. في يده الزهرة البالية.

شيء ما في وجهها يذكّره بالأطفال.. شيء طيب ومسالم ألحق أحدهم به شراً لمجرد أنه جميل ونبيل، ولكنه لم يستطع أن ينتقص من جماله، راقياً على الرغم من الدموع. جريحة تبدو، وفي الوقت نفسه، كانت الرؤى قد استنارت أمام عينيها بفضل اكتشافها المذهل لما برز من تحت جرحها من قدرة أعمق على مقاومة الجراح. «لماذا أنت هنا؟» سألته بصوت خافت، بينما تطقطق من فوقهما الأرقام والحروف على لوحة الإعلان، وعلى الرغم من أنه فهم ما قالته، إلا أن

وقع كلامها كان يقول: «ماذا تفعل بي؟»، لقد فتتت رقة صوتها كبده.

يبدو من مظهرها، وكأنها قضت رحلة القطار بأكملها وهي تبكي– وبالفعل هذا ما فعلته كما أخبرته لاحقاً– ومن كثرة ما مسحت أنفها اخشوشنت أرنبة أنفها، واحمرت. يقبل جبهتها بحذر، جفنيها ورموشها التي أصبحت بلا لون، فمها الذي لا يزال مستنكراً، ويلمس أثناء ذلك تلك المنطقة المنحنية إلى الداخل أسفل الأنف، والتي يطلق عليها في سن الطفولة اسم مجرى المخاط، ومن المأثور أنها من فعل ملاك، يغلق شفتينا بإصبعه قبل مولدنا، تتجه قبلاته نحو الجانب الآخر من جبهتها. يتحسس جذور شعرها و يفكر في الدوي الذي تحدثه هذه اللحظة والتي تؤثر في قلبه بهذا الشكل، لأن الذكرى قد ابتدأت تكثفها، لأن أحدهما يتذكرها حاليا في مستقبل بعيد ما.

«تعالي إلى الفراش»، يقول لها همساً.

-2-
تصوف أمريكي

إن البعد عن الحقيقة، يبدأ مع الرغبة في الإبداع الفني، مع التنسيق للقيام به، ولكن المرء لا يدرك ذلك في بادئ الأمر. فهو يأتي مع توالي السنين، السأم من الرواية، الاشمئزاز من التوهم، والتخريف، والتأخير، والإسهاب، والحذف. إنه ينطوي على شيء مجامل، سافل، كاذب، وبعد أكثر من دستة كتب يعتقد أنه يدرك: أنها قد انتهت. مهزلة القص هذه، ليست مقبولة بعد الآن. فكل فكرة يتبين أنها تافهة، قبل أن يتلفظ بها، وكل موضوع قد استهلك على شاشات التلفزيون وأكل وشرب عليه الدهر، فما الداعي لإنتاج جديد؟ إن ابتكار شيء اليوم يعني ضياعه من الحقيقة، وما يخيب الرجاء (بلا معنى)- أما إذا فكر أحدهم وبكل جدية في أن يتوقف، إلى الأبد، فإنه يتخبط داخل أردأ الفخاخ، وذلك لأن توقفه لن يكون بمنزلة نهاية كل ما قد يحققه مستقبلاً فحسب، بل سيضيع كل ما تم التوصل إليه إلى تلك اللحظة، فالذي يملك أن يتوقف ما كان ليبدأ من الأساس.

عند الحافة الجنوبية الشرقية لبرلين، قبل حدودها مع براندنبرغ بقليل، يصبح المشهد شبه قروي. غرف زجاجية

للاستنبات تحت أشجار صنوبر تمايلت أغصانها من شدة الرياح، حدائق ضيقة، إنها محمية الإربيتال الطبيعية. وسط الأعشاب الطويلة جدول أو مجرى تحيط بمياهه النشطة، أشجار الصفصاف المتشابكة ذات الأغصان المتداخلة، والتي تحول دون أن تتغير هيئته.. خيال واحد خلف الحلفاء. حبوب لقاح أشجار الحور تتطاير في الهواء سابقة لأوانها في هذا الوقت من السنة، تنتشر في كافة أرجاء عربة المترو الصاخبة، مما يستدعي نزع الأبواغ من على الشفتين، ومن بين شعر الرأس. تتكتل إلى أنسجة فاتح لونها، وتلتف مشكّلة نديفات طولية تحت المقاعد، ولا تهدأ ثورتها إلا حين يتباطأ القطار دخولاً إلى المحطات. مرة أخرى ينظر «فولف» إلى انعكاس صورة «ألينا» على زجاج نافذة القطار، إلى حدود جسدها ورأسها وقرطها اللؤلؤي، وترتسم على وجهها ابتسامة غامضة وتتلمس يده برقة. «سوف نتمّ كل شيء، أليس كذلك؟»

ماذا عساه أن يقول؟ الصناديق معبأة، والشاحنة محملة، وغالباً تنتظر أمام الباب منذ وقت طويل. بعد ليلة لم يغمض له فيها جفن من كثرة الشكوك والتي ازدادت حتى وصلت به حد اليأس، وبعد محادثات امتدت لساعات طويلة قبل مطلع الصباح، أُرهق فيها فكر وقلب كليهما حتى توارت

«ألينا» خلف باب الحمام وهي تجهش بالبكاء، أما هو فلم يعد يشعر إلا بالتعب، كما هي حال «ألينا» مع الرجال، لم يسبق له أن عاش مع امرأة في مكانٍ واحدٍ لفترة طويلة. كل المحاولات فشلت فشلاً ذريعاً، ومن ثم فهو لم يعد يعتقد أنه قد يتسنى له أن يتعلم ذلك يوماً.. ليس وهو في أواخر الأربعين. ومن ناحية أخرى لا جدال في أنهما لن يقدرا على استئجار شقتين في فريدرخسهاين، فالحي محبب لدى الأسر الشابة ذات الرزق الموفور، وكذلك الأسعار. فإذا أرادا أن يرميا حي كرويتسبرغ وراء ظهريهما، فلا مفر من أن ينتقلا ليسكنا معاً في شقة واحدة، وهذا السبب المادي ينطوي على شيء يندى له الجبين، وذي طابع فكاهي، حيث إنه يذكّره بأوائل الثمانينيات، عندما كانت تكاليف السكن في برلين الغربية باهظة، والأزواج الذين كانوا يسكنون معاً ثم يقررون الانفصال لم يستطيعوا ذلك.

لم تكن الأمور المالية، موضع نقاش في ما بينهما إطلاقاً إلى الآن. من البديهيات بالنسبة إليهما ألا يطالبا الظروف بأكثر مما هو ضروري، ولهذا السبب لم يسبق أن أصابتهما ضائقة فعلية. وإذا أخذت الأناقة على أنها الاقتصار على أمس الضروريات في أجمل صورها، فحياتهما تعد أنيقة. هو ما زال كاتباً فاشلاً—وإنما بمرتبٍ كافٍ، وبوسعه الاعتماد

على دار نشره كلياً– وألينا تدرس الألمانية بصفتها لغة أجنبية في المدارس الخاصة، وهو أيضاً عمل متواضع الأجر، إلا أنهما حتى الآن كان لديهما دائماً من المال بقدر ما يحتاجان إليه. كانا خفيفي الحركة، حرّين، طليقين ولكنه الآن يرى هذه الحرية في خطر محدق. إلا أن «ألينا» التي تملك ثروة من القناعة، وترى دائماً الحياة بمنظار وردي، تسخر منه، وتعتقد كعادتها أن القدر يتفوق عليه ذكاءً، فهو الذي وصل به الأمر إلى أن يفكر في العمل بالقطعة، في وظيفة بأي مكتب تحرير. «لا تضع من قدرك».. قالت له في ليلة الانتقال إلى الشقة الجديدة. «إذا عملت يوماً واحداً من أجل المال، فلن أستطيع أن أستمر في حبك».

بعد ذلك صك الجرس الآذان برنينه النافذ، وأصبح الأمر رسمياً. حضر السيد شميشو، متين البنية، وذو اللحية المدببة والذي يصل شعره إلى الكتفين، ويعمل منذ عام 1968 مع عماله على نقل الآثاث في شاحنة رسمت عليها الأزهار، حيث كانوا يعدون القهوة والشطائر في مطبخه الكئيب. وأثناء ذلك قص عليهما السيد شيميشو قصة الأستاذ الجامعي وزوجته الأستاذة، التي حدثت قبل أسبوع تقريباً. إذ إنهما أخيراً، وجدا شقة جديدة.. شقة واسعة، بل وفوق كل ذلك في حي جرونيفالد! استغرق حزم الأمتعة أياما طويلة، فعقود

من العمر عبئت في صناديق، وأثناء ذلك كانا يتوقفان مرة أو مرتين، لأن تلك الكأس أو ذاك الخطاب يذكي لديهما الذكريات. إلا أنهما عندما أوقفا السيارة أمام المنزل الجديد، وهو فيلا أثرية فاتنة، أبت السيدة أن تغادر السيارة، حيث تغرغرت عيناها بالدموع ولم تقدر على الكلام، و امتد ذلك لنحو ساعة كاملة، حتى أن الزوج أيضاً صم وحدق معها في المطر بالخارج. في آخر المطاف عادا بالسيارة إلى بيتهما القديم من دون أي تفسير أو تعليق. عادا إلى الضيق المألوف وأفرغا الصناديق من جديد...

من المؤكد أن غرضه من إخبارهما بهذه القصة كان تشجيعهما، فهو الخبير بالنفوس، ويعرف جيداً رائحة العرق البارد التي يثيرها الشك و التردد في اللحظة الأخيرة. فهو لا ينقل الأغراض فحسب، بل وأيضاً الخطايا. وهو ليس أمراً صعباً. على بطاقته الشخصية مكتوب «من حسن الحظ أنني في الخدمة». ثم أخذ يجوب الشقتين بإبريق القهوة في يد وشطيرة الجبنة بخبز الجاودار في اليد الأخرى، متفحّصاً بعينه قطع الأثاث القليلة طولاً وعرضاً، ولفائف السجاد والصناديق الممتلئة بالكتب، ثم قال: «إيه! نقلة واحدة تكفي لكل هذا!»

وفي الوقت الذي انتشر فيه فجأة رقص «التانغو» في

كل مكان، تناهت إليه من مكان ما جملة سجلها: ليس من الضروري أن تكون تام الكمال، بل يمكنك ارتكاب خطأ ما بلا ريبٍ، واتخاذ خطوة خاطئة، ولكنك إذا فعلت ذلك فافعله عن اقتناع.

اقترب وقت الظهيرة، و«ألينا» لا تزال نائمة. لديها كدمات على الذراعين، وعلامات حمراء من أثر حمل الصناديق. حليها على طبق صغير، إلى جانب الفراش، العقد ذو حجر الأكوامارين. كانت تصلهما بصوت خافت، الموسيقى الكلاسيكية من الجار المقيم في الطابق نفسه، مقطوعات التوكاتا لباخ. وأشعة الشمس تدخل عبر الجرار البرتقالي أمام نافذة في السقف المائل، الدعائم الخشبية تطقطق من شدة الحرارة. وكلما مرت شاحنة في الشارع، أو قطار على جسر سكة الحديد يرتعش سطح ماء الكوب على المقعد، وقمم نباتات الحجرة تدون رسم نبض الساعة المضطرب على الهواء.

كما اعتادت في معظم الأحيان، فهي عندما يزداد وهج الضوء تضع ذراعها على عينيها.. تبرز إحدى ساقيها من تحت اللحاف، طلاء الأظافر الذي بدأ يتقشر من على أصابع قدمها. ربلة ساقها صلبة، وبشرتها بيضاء، بياضاً ساطعاً.. لا تزال تحمر حياء منه في بعض الأحيان، فهي لا ترتدي الفساتين

من دون جوربين خارج المنزل أبداً. في حلقتها الأربية أعلى فخذها بضعة نتوءات حمراء فيها شعيرات قليلة، وتحت قميصها ذي الحمالات الرفيعة وكلفة الساتان يرتسم ثديها الذي لم يكد يتغير طوال هذه السنوات، فهو رقيق وثقيل في آنٍ واحد، بالامتلاء ذاته. تلهث ألينا بصوتٍ خافتٍ وتزدرد ريقها، وعندما تتقلب على بطنها ثانية، ينزلق كيلوتها الضيق من على ردفيها. وعلى الجانبين تمتد بعض الخطوط الفاتحة التي تشبه الندوب، ولكنها بعكس أغلبية النساء ناهضات النهدين في أواخر الثلاثين من العمر كانت خاصرتاها بارزتين وردفاها مستديرين.. يمد يده تحت القماش، ويتحسس في حذر بشرتها الحليقة بين الفخذ وعانتها، نظراً للنعومة الواضحة في هذه المنطقة والتي تختلف عن المناطق الأخرى من جسدها.. بقايا رقيقة من الطفولة، ثم يدنو منها ويعض أذنها برقة.

«أهلاً وسهلاً بك في الشقة الجديدة»، يقول لها همساً.. الصوت خشن بعد نوم عميق، والشفتان جافتان، فتتثاءب وتتمطى، بينما تتلمس أصابعها طريقها إلى عضوه الذي لايزال غير منتصب بعد، وهو الأمر الذي يحدث بين الفينة والفينة، مما يثير لديه القلق في بعض الأحيان. فحتى الآن كان انتصاب عضوه أمراً يعتمد عليه، منضبطاً، كعقرب ساعة،

بل ومتقدماً في معظم الأحيان، لدرجة أن المشكلة تكون في إخفاء إثارته، فما القوة في غير وقتها إلا ضعف. ولكنه الآن يلاحظ ارتخاء عضوه المتكرر بين وقت وآخر، وكي لا تفكر «ألينا» بأنها لم تعد تغريه كالسابق، يستخلص نفسه من يدها، ويقبلها حيثما تفضل، بينما يحرص على عدم احتكاك ذقنه بها، ليس بعد. تأخذ نفساً عميقاً، وترفع مؤخرتها له، وهي تدس وسادة صغيرة تحت بطنها في الوقت نفسه، لتظهرها أكبر حجماً.. هذه الحركة تنم عن خبرة تصل به إلى قمة الإثارة.

لكنها ليست على القدر الكافي من البلل.. إنه يلتمس ذلك، عندما يحاول أن يوغل إبهامه إلى داخلها، فتسيل بين فخذيها رغوة لعاب بلوري شديد البياض، دعكها بقمة عضوه، ثم يبدأ بطيئاً، شديد البطء، متجاهلاً لهاثها والرعشة البسيطة التي تصيبها عقب الاحتكاكات الأولية مباشرة في كثير من الأحيان. كثيراً ما تفشل، محاولة إيجاد إيقاع حركي موحد في ما بينهما بسبب غيابها عن الوجود بحرقة وتشوق، فيسكن ثائرها مرتميا بكل ثقله عليها ويسند رأسها على نحو يحول دون أن تشم ريح فمه الصباحي.. يده تطبق على ثديها.

العصافير تتقافز على السطح.. أنغام التوكاتا قد سكتت.

و«ألينا» تصل إلى قمة النشوة بشهقة داكنة ينفرج معها ما بين أصابعها العشر، ولكنها تواصل الحركة على الفور، وهو يتملى مذاق المباعدة بينه وبين النهاية، فلم تعد تواجهه أية صعوبات منذ أن تعلم أن يأخذ شهيقاً عميقاً أثناء ذلك، وأن يشد عضلات حوضه ثم يرخيها من جديد. فهو وعلى الرغم من أنه سنحت له مضاجعه النساء الغريبات، إلا أنه لم يعد يقذف مبكراً إلا مرات قليلة، وبالتالي لم يعد يتحتم عليه أن يتشنج أو يتمثل بغير ذلك. ولكن ما يحرجه الآن، بل ويعيده أيضاً إلى أرض الواقع هو أمر آخر، ولكن يبقى من أحد الغرائب السارة في سنه أن وصوله إلى قمة الإشباع يزداد حرارة علىالرغم من ضعفه جنسياً. ولأنه لا يعرف شيئاً عن الخصائص السماعية للشقة الجديدة، فإنه يكتم صرخة ويلصق وجهه بعنق «ألينا»، هامساً «يا إلهي!» ثم يغرقان في النوم من جديد.

في ما بعد، بينما هي في الحمام، يستخدم هو حمام الضيوف، لمزيد من الرفاهية. أثناء تناول الإفطار- حيث يبدو المطبخ المطل على حديقة السطح أكثر رحابة مما هو عليه، فإلى جانب الأثاث المثبت لا يتسع المكان إلا لطاولة صغيرة مربعة وكرسيين—سرعان ما يضيق صدره لمجرد التفكير في أنهما سيجلسان على مثل هذه المقربة من بعضهما بعضاً كل

صباح، ابتداء من يومهما هذا.. «ألينا» غير مزينة، فوجهها منتفخ بعض الشيء، وشعرها المشعث يجب غسله، وتفوح منها رائحة تشبه رائحة اللبن الزبادي بعض الشيء، الأمر الذي يحدث أحياناً لدى أصحاب الشعر الأحمر. ترتدي بيجامة من القطيفة الموبرة، وجوارب مختلفة الألوان، وفضلاً عن ذلك تتناول شرائح الخبز المحمّص بطريقة كانت دائماً تبهره مع مثل هذا الفم الصغير: قضمة واحدة ويختفي نصف الشريحة، إلا أنه أصبح فجأة يستغرب لما كان يدعوه إلى الفكاهة والمرح في الماضي، وسرعان ما يجد نفسه راغباً في النظر إليها وهي تأكل بملء فمها، وحين تنظر حالمة إلى الحدائق إشارة إلى أن كل شيء بينهما محكوم عليه بالفشل. يشغل الموسيقى.. قرصاً مدمجاً لجون كايل. الطاقة البشرية لهذا الصوت هي ما يساعده على اجتياز ضيق قلبه.. «الخوف هو صديق الرجل اللدود».

ثم يتشاوران مرة أخرى، بشأن تقسيم الغرف، وتؤكد «ألينا» أنها أكثر من راضية بالغرفتين الصغيرتين، فإحداهما للنوم والثانية للعمل. فهو في مكتبه وكتبه الكثيرة تلزمه الغرفة الكبيرة.. غرفة الجلوس، حتى أنها قد فكرت إذا ما كانا حقا في حاجة إلى سريرين، ويمكن أن ينام هو أيضاً في سريرها. ولكن عندما ينظر إليها من دون كلام ترفع يديها

سريعا.. «حسناً، حسناً. كان مجرد اقتراح». هذه الشقة تتكون تقريباً من أسقف منحنية فحسب أما أثاثها فإنه يتطلب منهما التفكير بشأنه. ففعلياً لا يصلح للاستخدام من بين قطع أثاثهما إلا القليل، بل إن بعضها قد تم نقله إلى القبو منذ البداية. وهي تحتاج إلى تصميم خاص للرفوف والخزائن لتنتصب في الزوايا الحادة، ويمكن اكتساب مساحة لا بأس بها، إذا ما تمت تغطية نصف حديقة السطح الكبيرة بلا معنى، وهي حديقة شتوية كحجرة طعام، ولكنهما في الحقيقة ليس لديهما من المال ما يغطي تكلفة كل ذلك. فهو لا يريد أن يطلب من ناشره شيئاً، قبل أن ينتهي من مسودة كتابه الجديد، الذي تعهد بتسليمه في الصيف. وبينما تقوم «ألينا» بفرش الشقة، قدر المستطاع، وبإجراء الإصلاحات الصغيرة هنا أو هناك، يجلس هو بين الصناديق التي لم تفرغ بعد، محرراً الصيغة النهائية على الكمبيوتر.

في المساء يستكشفان معاً حيهما الجديد.. يقع مبنى محطة السكة الحديدية بأقواسه المدببة، وأسواره المسننة، وعواميده المصنوعة من حديد الزهر، والتي ترجع إلى عصر الإمبراطورية الألمانية، إلى جوار متنزه الاستشفاء. في ما مضى اعتاد الناس على المجيء إلى هنا، بهدف الاستجمام. وإذا واصلا السير في الشوارع المبلطة بالحجارة، والتي تحمل أسماء مثل «ليندن

أليه»، و«كستانين أليه»، و«بريست برومينادية»، ورميا البصر داخل الحدائق من بين البيوت المزينة بزخارف من الجبس فلن تصدق أعينهما أنهما ما زالا في قلب المدينة. باستثناء وحدة سكنية بسيطة التصميم، مبنية من قوالب البلوك المسلح مسبق الصنع، وعمارة عالية مواجهة للكنيسة فإنه ليس هناك إلا القليل من المنشآت الكبيرة. القوة البرلينية المثقلة، لا يكاد يكون لها أي أثر هنا، وأغلبية البيوت التي أنشئت قرابة بداية القرن الجديد، ضمتها دائرة حماية الآثار إلى كنفها وهي لا تزال تجسد تلك الحظوة الأصيلة التي لابد من أنها طبعت على فن العمارة بروحها قبل أن يستسلم للتوجيه الفكري المغرض في العصر الحديث. أمام الكثير من المنشآت—حتى المباني الحديثة التي أضيفت إلى الصفوف بتأن وإمعان— هناك أسوار معدنية عند ارتفاع مستوى الصدر، وأعمال حدادة لها تقاليد عريقة، وتوجد هنا وهناك زخارف ترجع إلى عصر حركة الشباب الألماني الحر، حيث تبدو الغابات المحيطة وكأنها بلا نهاية، كما تبدو مشاتل أشجار الشربين، وغابات مختلطة ذات أشجار عتيقة، وفي الليلة الأولى على شرفتهما يلفت نظرهما أنهما لم يسبق لهما خلال كل هذه السنوات التي أمضياها وسط المدينة أن شاهدا مثل هذه السماء الصافية المرصعة بالنجوم. وفي الليلة الثانية، تحت ضوء البدر المنير،

يسمعان وقواقاً يغرد.

يثير إعجابهما ذلك الحي الجديد، من كافة زوايا الرؤية، حتى وإن كانت بعض الأمور فيه تبدو لهما غموضاً في غموض. ولكن الهدوء يُحدِث أثراً في البداية، وكأن الشوارع تخفي عنهما شيئاً. الـ «فيبر شيفشن[5]» خالٍ، وهو مطعم واسع الأركان فيه مدفأة مفتوحة الفوهة، وسقفه مكسو بألواح متصلة من خشب البلوط، كما أن قاعدة واجهة العرض الخاصة بمحل الآيس كريم الإيطالي لا يجلس عليها سوى شرطي واحد، يأكل الآيس كريم من كأسه بالمعلقة، وكذلك الترام الصفراء التي قد أضاءت أنوارها، تطوي الأرض طيا من دون ركاب. الورود على الشرفات في كل مكان، تحيط بها العناية والرعاية، ولكن لا يوجد أحدٌ في أي مكان... وعلى الرغم من أن درجات الحرارة صيفية والنهار يزداد طولاً فإن الستائر تكون قد أقفلت والجرارات قد انطوت ابتداءً من الساعة السابعة مساء، وهنا وهناك يومض ضوء التلفزيون عبر الخصاصات.

يسكن الحي، الكثير من كبار السن، من مواطني الدولة البائدة الذين قلما يبتسمون أو يلقون السلام، وما زالوا يقولون «صالة الشراء» بدلا من «سوبر ماركت». كثيراً ما

(5) تعني بالألمانية: مركب الحائك الصغير.

يمسكون بأيديهم روشتة، أو ورقة وصفة طبية، وليس بالنادر أن نرى في وجهي «ألينا» و«فولف» الجامدين كرباً يثقل عليهما أو حتى خطراً يعكر صفوهما. من الواضح أن الناس في الجمهورية الألمانية الديمقراطية، قد تحتم عليهم ألّا يظهروا أنهم على ما يرام، أو أنهم منشرحو الصدر ومبتهجون بالحياة، لأن ذلك قد يثير الشبهات. بيد أنه إذا بدا عليهم أنهم ليسوا بخيرٍ أو أنهم يعانون في بلادهم وبها، فلن يقيهم ذلك أيضاً من الوقوع في الشبهات. من أجل ذلك فقد تزودت أغلبية الناس من الجيلين القديم والمتوسط، بذلك الجمود الرمادي الأسمنتي على الوجوه، وبقناع ذي شفتين رفيعتين. أضف إلى ذلك انعدام الكياسة والذوق، والحملقة السافرة، وعندما تسوقهما الخطى إلى شارع «بولش شتراسيه» الرئيس، وتضحك «ألينا» بطريقتها الطليقة المشرقة على تعليق سخيف أبداه أو نكتة قد قالها فليس بالنادر أن يقف المارة في مكانهم أو يلتفتون نحوهما.

أشجار الزعرور البري، والكستناء.. تتدلى على الأرصفة العوجاء التي يصعب الاعتياد على وعورتها. بعض المزاريب ينمو فيها العشب، وفي كل مرة تقريباً تنتابهما الرغبة في طريقهما إلى الشاطئ.. مغناطيس الروح كما تسميه «ألينا». في النفق الذي يمر عميقاً تحت مياه نهر الشبري الخضراء المتلألئة

من أثر الشمس الغاربة، يكون الطقس مساءً بارداً إلى حد تتكاثف فيه الأنفاس بصورة ظاهرة للعيان، وعندما يخرجان من أحد المطاعم على الضفة ولا يسمعان سوى خطواتهما على بلاط الشارع البراق، يكادان ألا يصدقا حظهما. قنفذ يمضي في خطوات متقاربة تحت سيارة مركونة، وبوم صغير ينادي، وكل شارع يبدو وكأن له قمره الخاص.

إلا أن كل هذه في النهاية مجرد صور، حيث إن الفتنة الحقيقية لحي «كوبينيك» تعود إلى سبب أقل عاطفية: فريدرخسهاين هي بكل بساطة منطقة جميلة لم يحتلها الأثرياء بعد. فالشقق هنا عادة أصغر من اللازم. وإلى جانب كبار السن الذين سبق ذكرهم تزداد هنا كذلك نسبة الشباب، فيما يبدو أنهم أزواج من الغرب قد سمحت لهم الفرصة باكتشاف هذه المنطقة أخيراً، تاركين المرحلة البوهيمية خلف ظهورهم. معظمهم يسحب وراءه طفلين خلف النوافذ البلاستيكية لملحق الدراجة، وفقاً لنتائج الإحصاء السكاني، وهؤلاء الذين لم ينجبوا الأطفال بعد تقرأ في وجوههم عبارة «تنظيم الأسرة». وهو مكان مناسب لتربية الأطفال، حيث إن فيه مستشفيات ولادة، ودور حضانة، ومدارس خاصة وحكومية، والعديد من متاجر الملابس المستعملة للأطفال، فضلاً عن أن حركة المرور هادئة نسبياً، كما يوجد الكثير من

المساحات المائية حيث يمكن للصغار أن يطعموا الإوز خبزا، كما يمكن للكبار إطعامها بالحواف. المقاهي والمطاعم لا بأس بها، وهدوء الليل هنا- بعكس وسط المدينة- من الثوابت. بعد الساعة الحادية عشرة مساء تكون كل النوافذ مظلمة.

تطلب «ألينا» دراجتين من أحد مراكز البيع البريدي.. قطعتين رياضيتين أنيقتين من الألومنيوم، ليكتشفا الجوار على ظهريهما، فالغابات حتى مدينتي «إركنر» و«جروناو»، وحتى مدينة «بوكو» أو دلتا «أودربروخ» ليست بعيدة جداً. إلا إنهما يشاهدان حادثاً بشارع «آهورن أليه» يوم الاستلام، حيث اصطدمت سائقة سيارة ترابنت براكب دراجة صغير السن، فإذا به يجلس على حافة الرصيف، ممسكاً بجبهته التي يسيل منها الدم. يمد له المارة أياديهم بالمناديل الورقية، إلا أنه يرفع نظره إليهم في ذهول. يطقطق موتور السيارة البلاستيكية وهي غير معشقة، ويغمر دخان عادمها المشهد بلون أزرق رقيق، يخطف الأنفاس. ومن البيت يتصل «فولف» بمركز البيع البريدي فيطلب أن يمر أحدهم ويأخذ الدراجتين في القريب العاجل، علماً أنهما ما زالتا بغلافهما في بئر السلم.

أثناء مشاجرته مع ألينا التي عقبّت على ذلك يظهر ما تراكم في داخله من كوامن على مدار الأسابيع الماضية، وتثور

عليها أعصابه الرقيقة. اللعبة القماش تحت مرآة السيارة، ودم الصبي فوق الحصى المرصوف، ولكنه يقرأ الحياة كأنها نص، ويرى العلامات في كل مكان في الغالب نذائر شؤم، فإنها تعتبر ذلك شيئاً ممتعا بحكم براغماتيتها المرحة، ولكنها علاوة على ذلك قد أصبحت تملك مرونة فائقة في أن تثبت له العكس. بيد أنها تتكدر بسرعة، إذا لم يتقبل رؤيتها المستنيرة، وأصر على ظلام جهالته. وهذا الكدر الصامت الذي يبرز ملامحها بصورة جميلة وناعمة، ويشبه المشاعر التي نكنّها لشخصٍ يحطم حياته بطريقة حمقاء، يجعله عدوانيا.

فما نشأ عبر السنوات من وعي بأن الشجار بات وسيلة لتنقية الأجواء بينهما، بل وبلغ حد الإجراء الصحي الذي يعود بعده الدفء والعاطفة إلى قلبيهما من جديد، لا يغير شيئاً في اشتهائه المرير إلى أن يدفع بها خلال ذلك إلى حد البكاء. فهو يرى أن امتلاكه لهذه القدرة يعد شيئاً من الخوارق، وهبة من الشيطان بل عوضاً عن عدم تمكنه من مهارات الإقناع والتأثير الخفية البائسة، التي تقلب بها معظم نقاط النزاع بلا كلفة بحيث يقع الخطأ في النهاية عليه. فمجرد البكاء لا يعني أنها لينة الجانب، بل إن قلة الاحتجاج- بحسب تصورها- قد تقلل من احترامه لها، ناهيك عن احترامها لنفسها، وأن تكون كلمتها هي الأخيرة. فعلى ما يبدو إنها تجد في ذلك

من المتعة قدر ما تجده في اللمسة الأخيرة لفرشاة طلاء الأظافر التي يكتمل بها كل شيء.

إلا أن مسرح السخط لا يخلو من المهازل، وهو ما تبين لهما ذات مرة وهما على وشك أن يضرب أحدهما الآخر. للحظة يتسمر كل منهما كالجماد في ضلاله، مرفوع الذقن، عاضد الأسنان، ومحملق العينين، قبل أن يخفضا أكفهما ببطء ويحاول كل مهما إخفاء ابتسامة شفتيه عن الآخر، رافعاً صوته في عناد. وفي اليوم التالي مباشرة يتضح أن الشجار لم يكن شيئاً بل مجرد برق داخل فرن المايكروويف. بعد ذلك بيومين وفي الغد التالي، لن يتذكّرا الدافع وراء سخطه، ودموعها، وصراخها، وصفع الباب. وعندما يذهب «فولف» في آخر الأمر إليها، لا يعلم حتى إذا ما كان عليه أن يعتذر لـ«ألينا» من الأساس أم لا. فهو فقط لا يطيق صبراً على الجو المتوتر بينهما، والذي يضيق عليهما الشقة، ووحشة أن يكون الحق مع المرء تتساوى من حيث قسوتها مع وقوع الحق عليه. ولكن ها هي تسبقه، وتضع ذراعيها حوله، ثم تدفع بجبينها نحو جبينه وتعتذر له همساً.

وفي النهاية ليست الأمور المزرية هي ما يجعل المرء سعيداً أو تعيساً، وإنما رغبته في اعتيادها، والتي تستمد جذوتها من خموله أو ضعفه. فهما وبقدر ما أحبا محيطهما الجديد،

إلا أن ما أوجس في نفس «فولف» خيفة أثناء معاينة الشقة، قد أصبح الآن يقينا: شهر أيار في آخره حار، حرارة أشبه بسخونة فصل الصيف، والسطح يتبين أنه ليس معزولاً بالقدر الكافي. كأنهما يسكنان في فرنٍ، وعبر النوافذ التي يضطرون إلى إبقائها مفتوحة، تتسرب أصوات ضجيج المرور إلى الداخل، والتي ارتفعت منذ أن أغلقت إحدى الطرق البديلة المختصرة. تظهر العفونة في الحمام، تحت دهان الجدران، وتزداد رائحة الغاز التي تفوح من المدافئ المعطلة، وأصبح «فولف» لا يستطيع النوم سوى غفوات قصيرة، ويعاني من صداع مستمر. أما «ألينا» فقد أصبحت عيناها ملتهبتين. صاحبة البيت لا تستطيع تفسير ذلك، خاصة وأن الأسرة التي كانت تستأجر هذه الغرف من قبلهم، والتي كان لديها طفل رضيع، لم تصدر منها أية شكوى. إلا أن خبير بيولوجيا البناء الذي يتصلان به في غرب برلين يأبى أن يخرج إليهما. فهذا الشيء دائماً ما يحدث في الشرق، كما يقول، وبالأخص في الأدوار التي بنيت تحت الأسقف. فعند ترميمها أثناء مرحلة التحول، استخدمت كافة المواد الممكنة مما كان مستودعاً في مخازن الجمهورية الألمانية الديمقراطية وبولندا: أخشاب مشربة بالفورمالدهايد، ولوائح عزل من الصوف الصخري، ومواد لاصقة كاوية، وأرخص أنواع الطلاء اللامع، والتي

كانت ممنوعة في جمهورية ألمانيا الاتحادية منذ عقود مضت، فهي سم محض. «اتركا هذه الشقة».. كانت هذه نصيحته بعد الإشارة إلى أمراض الحساسية والأعصاب، وكذلك الأمراض السرطانية المحتملة. «لا يصلح ذلك إلا عود الكبريت».

إلا أنهما ما زالا غير قادرين على تصديق أنهما قد اتخذا خطوة خاطئة، وما زالا مترددين. فالانتقال استنفد منهما مجهوداً كبيراً للغاية. وبالإضافة إلى ذلك يجب إنهاء مسودة الكتاب الجديد. فقد اتصل الناشر ليسأل عن أوضاع العمل ويطلب تصميماً للغلاف، ولذا يقرران مبدئياً أن يصبرا. ومن أجل تنقية الهواء يقومان بوضع البلور الصخري في كل مكان، والنبات العنكبوتي واللبلاب، وعندما يزداد الطقس حرارة يجلسان بالفانيلات الداخلية في بئر السلم الرطب، على السلالم اللامعة، حيث يواصل «فولف» الكتابة واضعاً الكمبيوتر المحمول على ركبتيه، بينما تتصفح «إلينا» المجلات أو تتوه في أحلامها خارج النوافذ متعددة الألوان، حتى يبدأ قدوم الليل وتتجه أسراب الغربان الأولى إلى أشجار نومها.

ولكنهما عندما يعودان ذات يومٍ من جولة بالـ «هيرشجارتن دراي إك»، وهو متنزه قريب من البيت،

يجدان علاوة على ذلك أيضاً آثار دخان في الشقة.. دخان سجائر، وللحظة فزع يفكران بأن ذلك قد يكون من فعل اللصوص. قفل الباب سليم بلا ريب، وبالتالي لا بد من أنه آتٍ من الشرفات المجاورة. لكنهما عندما يغلقان النافذة لا يتغير شيء، بل على العكس من ذلك يزداد الدخان مع مرور الساعات، ومن ثم فما من شك في أنه يأتي من الشقة التي أسفلهما. فمرات عديدة تغلغلت رائحة القهوة أو المنظفات عبر أرضية الصالة. وفي بعض الأحيان يمكن لهما كذلك أن يشما رائحة الحفاضة التي تغيرها الأم الشابة لرضيعها. فمن سبق له أن سكن في منزل خلفي بحي «كرويتسبرغ» معتادٌ على ما هو أسوأ من ذلك. وهنا يتذكر «فولف» الجرذان المصبوغة بألوان الرش للجارة التي كانت من البانكز. فقد شقت طريقها أكلاً عبر جبس الحائط...

ولكن الدخان شيء لا يحتمل، فهو يسبب ضيق التنفس فقط من شدة الاستياء، حيث إنه مثل كثيرين ممن أقلعوا عن التدخين أصبحت السجائر ورائحتها تبعثان في نفسه اشمئزازاً خانقاً. مرة أخرى يتصل بصاحبة البيت، التي سرعان ما يلمس في اكتراثها البارد تطاولاً.. عبارة «أنت ثانية!» لا تلفظ بها. ولكن «فولف» عندما يصّر على موقفه ويهدد بتخفيض الإيجار، لا يسمع سوى نشيج فاكس في

الخلفية، ويعتقد أنه حتى جانب سماعة التليفون القريبة من فمه، تفوح منه رائحة النيكوتين. ثم تتنحنح وتضغط أضراسها قائلة بود: إن ابنها، وهو يعمل في بناء الجسور، قد عاد من موقع العمل، وإنه حقاً يدخن كثيراً، لكن ليس داخل الشقة، من أجل الطفلة وأحياناً في المساء، أمام التلفزيون، بعد أن تنام صغيرته. فإن ذلك لا يؤخذ على من يشقى ويتعب.. أليس كذلك؟ لكل فرد عاداته وتقاليده. وفضلاً عن ذلك، أيها الشاب، فإنني أذكرك بالتالي: لقد سألتك وامرأتك عند توقيع العقد بكل وضوحٍ، إذا ما كنتما تدخنان... »

يكتم «فولف» أنفاسه. بالفعل سألتهما هذا السؤال. وعلى الرغم من أن هذا– في نظره– ليس من شأنها، إلا أنها بدت له صاحبة بيت شبه طبيعية، يهمها في المقام الأول أن تظل غرفه وأرضياته في حالة لا بأس بها. إنها لم تهدف من وراء ذلك إلى جسّ نبض «ألينا» و«فولف» بشأن ما إذا كان يزعجهما دخان السجائر فحسب، بل وتدعي أنها بهذه الطريقة قد أخبرتهما في الوقت ذاته بأنهما سيتعرضان لمثل هذه المنغصات والمكدرات، وهذا ما يعقد لسانه. فضلاً عن ذلك فهو يشعر بأشد الإهانة، لأنها على ما يبدو تراه مثل الخروف الذي قد بلغت به السذاجة أنه لم يفهم مكرها، وهذا ما يجعل من حركة النذالة الصغيرة هذه جنين غول.

ومرة أخرى يتبادر إلى ذهنه السؤال الذي طرحته «ألينا» حديثاً: كيف لأحد مواطني الجمهورية الألمانية الديمقراطية السابقة- أي الدولة الاشتراكية المزعومة، التي أعرضت عن الملكية الخاصة- أن تقع في يده ثلاث عمارات كبيرة فيها أكثر من أربعين شقة، ويتذكر الصور التي نقلتها شاشات التلفزيون بعد سقوط الجدار: الأشخاص الثائرون الذين اقتحموا مبنى الأشتازي[6] في حشود كبيرة، بل وخربوه إلى حد ما، مطالبين بملفاتهم بأعلى أصواتهم، والذين ظن أنهم كانوا تحت المراقبة أو مضطهدين من قبل الحكومة، فماذا عساهم أن يكونوا سوى ذلك؟ لكن أغلبيتهم كانوا رجال مباحث هائجين، يخشون من أن ينكشف أمرهم، موظفين غير رسميين أصبحوا الآن يخافون من جيرانهم أو زملائهم أو أزواجهم، وأملهم أن يشاهدوا أكبر عدد ممكن من الأدلة والمستندات التي قد تثبت بها إدانتهم وهي تمحى أمام أعينهم.

تنتهي المكالمة مع السيدة في لهجة رسمية جافة، فهي تتكلم عن شقة مثالية في موقع مثالي، ولا ترى أي داع لمثل هذه الزمجرات المستمرة، فهذا لم يحدث معها من قبل. وهكذا يتحتم على السكان في البيوت المستأجرة أن يراعوا

(6) جهاز مخابرات ألمانيا الشرقية المرتبط بالمخابرات السوفيتية سابقا.

بعضهم بعضاً، وإلا فلا. «فولف»، الذي ليس لديه محامٍ، يهدد بتدخل محاميه، ثم يضع السماعة. وكعادته، عندما يكون في حيرة من أمره يشعر بأنه أكثر حمقا من جواربه. إلا أنه عندما تصله فاتورة الكهرباء بعد ذلك بقليل، ويرى على قائمة العداد في صندوق الكهرباء أنهما المستأجران الحاديا عشر خلال اثنتي عشرة سنة، يوقعان على إخطار بإنهاء العقد مع نهاية الشهر الجاري. «ألينا» تبكي، ولكنها مرتاحة النفس، ثم تدير الحاسوب، لكي تبحث عن شقة جديدة، لا بد وأن تكون في فريدرخسهاين.. «فولف» يعود إلى نصه مجدداً.

من يفهم زمنه لا يبحث عن الفوز: المذكرات الممزقة والمصفرة التي يعود تاريخ بعضها إلى أكثر من ربع قرن تفوح منها رائحة فراء كلب.

أحقر تجريد للمشاعر، على الهواء. الذعر الذي لا نهاية له، عقب فاصل إعلاني قصير. الأضواء اللاقطة تشعشع فجأة على الشاشة، وفي ضوء الكاميرات الليلية تبدو وجوههم أكثر اصفراراً مما يمكن أن تكون عليه.. هؤلاء النساء والأطفال الذين أخرجوا من فراشهم، تتعثر خطاهم بين الأمتعة التي انتزعها الجنود من الخزائن. على مرأى الرجال المقيدين الذين يجلسون على ظهور شاحنات، تومض نقاط ضوئية خضراء، قبل أن يلبسوهم الأكياس على رؤوسهم بفترة وجيزة.

عجوز ملقى في ثوبه الملطخ بالدم بين الكراسي البلاستيكية المقلوبة.. لا يصدقون أنه قد مات ويطلقون عليه الرصاص مرة أخرى أمام الكاميرات. تنتفض الجثة من قوة الرصاصة. «لقد قمت بعملي».. قال الجندي.

في الصيف. يتلقى «فولف» دعوة إلى الولايات المتحدة الأمريكية. عليه أن يتكلم عن اعتداءات الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول والتهديد الإرهابي.. كاتبان ضمن عدد من الكتاب الألمان في معهد جوته بمدينة نيويورك. السؤال هو: كيف يمكن للأدب أن يرد عليها. لقد عرضوا عليه مبلغاً هائلاً، بل لم يفتهم أنه منذ نحو عشرة أعوام على الأقل، قد عبّر وكله عاطفة عن ولعه الشديد بفندق «تشيلسي أوتيل».. بسحره المهمل، إلا أنه رفض. مهما كان ما قد يقوله، فإنه لن يكون ابتكارياً، إذا استخدم العبارات المعتادة، بل ولن يتماشى على وجه الإطلاق مع ما هو مقبول سياسياً، إذا ما أدلى بما يعتقده فعلياً بالنظر إلى ما تعرضه شاشات التلفزيون من صور. وفضلاً عن ذلك فهو لا يطيب له أن يسافر إلى هناك، ولم يسبق له أن قام بذلك، حتى في أوائل الثمانينيات عندما كان من أحد مظاهر الوسط الأدبي الشائعة أن يكون الكاتب قد عاش لفترة في نيويورك.

وعلى الرغم من ذلك فإنه قد سبق له أن ذهب إلى هناك

عدة مرات.. لأسابيع أو أشهر، في مهنته. في بادئ الأمر كان على أتم الاستعداد، لأن يؤمن بوجود سر للشعب الأمريكي.. قوة خاصة، إلا أنه في الليالي الأولى التي أمضاها على الأرض الغربية سرقت نومه أحلام مروعة بسهرات عربيدة حمراء زاخرة بمشاهد من العنف، يرى نفسه فيها يقطع الرؤوس والأعضاء التناسلية، وينتزع القلوب من الأجساد، ويشرب كؤوسا من الدم، وأن بلد الأحرار زاخر بالعبيد لشاشات التليفزيون، الذين لا يفكرون إلا بالدولارات وتكاد كثرة البيروقراطية تعجزهم عن الحركة.. لم يكن ما رآه يتطابق تماماً مع ما كان لديه من صور نمطية عن طرق «الهاي واي» التي تمر وسط مساحات شاسعة من البراري تحت السماء الزرقاء. إجراءات تقديم طلب بطاقة الضمان الاجتماعي– الـ «So-cial Security Card»– التي احتاج إليها في الفترة القصيرة التي عمل فيها استاذاً جامعياً، كانت كالكوميديا السخيفة في متاهة مليئة بالنباتات المصنوعة من البلاستيك، والتي أعطوه وراءها ختماً آخر، ثم أرسلوه عبر ردهات لا نهاية لها إلى الباب التالي، ثم إلى المبنى التالي، لمدة يومين بطولهما، حتى عاد إلى الموظف الأول مرة أخرى. وكل من ترتسم على وجوههم ابتسامات مستديمة يعنونون ما يقولونه بجدية خطيرة.

ما أحس به في هذا البلد، كان بمنزلة مزيج من الخوف واللهو، كأن شخصاً يصرخ في وجهه بصورة مستمرة، ولكنه في واقع الأمر، ليس بحاجة إلى إعطائه أية أهمية. ناطحات السحاب كلها تقول دائماً فقط: أنا! أنا! أنا! أنا! وكل مانجده في ما بينها يرد في سخرية: أنت لا! أنت لا! أنت لا! ولكن أن يقال عن المجتمع الأمريكي إنه مجتمع متزمت، فما هذا إلا قول مبتذل لا ينطبق بالضرورة على الأمريكان.

في الكلية التي درّس فيها، وإن كانت كلمة التدريس مبالغاً فيها بعض الشيء، فقد كان يتحدث مرة واحدة أسبوعيا مع دستة طلاب عن الأدب الألماني، بالألمانية، وبخلاف ذلك أخذ منهم، وصفات كيكة الجبن وكيكة الموز كما توافرت له أيضاً سكرتيرة خاصة.. استطاع أن يقرأ من على إعلانٍ ملصقٍ على مكتبها، ويحمل الكثير من الأختام والتوقيعات، ما ينبغي على الموظفات اعتباره بمنزلة «تحرش جنسي في مكان العمل» ومن ثم الإبلاغ عنه لدى الإدارة فوريا: النكات المتعلقة بالجنس، أو اللمس بكافة أنواعه، أو النظرة غير محدودة المعنى في العينين، أو إلى مناطق أخرى من الجسم، أو الضغط على الجهة الداخلية من الخد باللسان، أو تمرير اللسان مرات عديدة بين الشفتين أثناء الحديث، أو الهرش في المنطقة الحساسة، أو المصافحة لمدة أطول من اللازم.

السيدة الجالسة على المكتب المجاور، قد لقيت صعوبة بالغة في أن تحشر صدرها في البلوزة الضيقة، والنتيجة أنها تركتها مفتوحة أكثر من المعتاد. رفع نظره إلى وجه كان من الممكن أن يكون مزيناً بالمكياج بطريقة أكثر تحرشاً، وإجابة عن سؤاله عما إذا كانت لحيته التي أطلقها لثلاثة أيام مصرحاً بها، ابتسمت ابتسامة مشرقة، وأجابت: بصفة استثنائية.

كان اسمها بيتش. ورغم أنها كانت أيضاً طالبة، إلا أنها اضطرت إلى العمل في الإدارة، على الرغم من حداثة سنها، لأن والديها لم يحصّلا المصروفات الشهرية كاملة، والتي كان قدرها ثلاثة آلاف دولار أمريكي. ومع ذلك كانت في حال تحسد عليها، فزملاؤها الأشد فقراً منها كانوا ينظفون الحمامات.. الضغط على الطلبة في تلك الكلية الرائدة، كان شديدا، فمن لم يحصل على أفضل الدرجات يكون قد أضر بالجامعة، وبالتالي بقيمتها السوقية. وإلى جانب ذلك كانت لكل فصل دراسي معاد عواقب مدمرة للأسرة. ومن أجل ادخار المال لم تسكن بيتش في بيوت الطلبة، ولم تأكل في المطعم الجامعي باهظ الأسعار، بل استأجرت بيتاً يقع على مشارف الضاحية بالاشتراك مع خمس من صديقاتها، وهو عبارة عن كوخ خشبي رطب، قد بدأ لونه الأبيض بالتقشر. هناك سخنت «الرافيولي» المعلب، وساعدته على تحسين

نطقه، مقابل مبلغ مالي. لقد قاما معا بقراءة كتابه المترجم. «إننا لا نفكر إلا في الجنس».. اعترفت له مساء يومٍ أثناء تناول مشروب، «ولا نتحدث إلا عنه، في كل دقيقة. لكن الرجال هنا طبعاً أنساهم».

قام بتدليك رقبتها، وأعلى منطقة الكتفين، والتي كانت متصلبة كالخشب، بينما كانت تقلّب محطات التلفزيون. وعندما كانت تعجب للعنف الذي لا يعرض على كافة الشاشات دائماً إلا سواه، لمدة أربع وعشرين ساعة يومياً، من دون أن يضيق أحد بذلك، كان يضيف: تنهض الدنيا وتقعد إذا ظهر من امرأة مجرد صدرها ولو حتى من تحت منديلٍ رفيع، أو إذا ضاجع الرئيس سكرتيرته كأي رجل يشغل منصباً إدارياً في العالم، فهزت كتفيها. «لا توجه لي السؤال»، قالت له وفتحت أزرار بنطلونه الجينز. «هذا تصوف أمريكي.. عندما كنت في الرابعة من العمر تم إلقاء القبض على والدي: فقد تركاني أسبح في البحر عارية، ثم إن كلينتون هو فعلا قذر».

ومع أن الضحك غلبه، لأنه كان قد أحس بأنفاس كلماتها الأخيرة على قلفة قضيبه، إلا أن تلك اللحظة كشفت له عما قد حجبه عنه التحرق إلى سر. ذلك لأنه في هذا البلد، الذي يظن الناس فيه أنهم أذكياء أو نبهاء، لأن العنف يشد

عضدهم، والذي تدل وطنيته التي تبدو وكأنها قد بلغت حد اليأس على تشرد متغلغل في الأعماق، تأتي حتى الخلفيات في المقدمة. أمريكا تلك، هي مادة على أعلى درجاتها من الخصوبة، أي إن الألم، وتجويفات الرؤوس التي لا حصر لها يشكلان معاً القبو الباهر الذي تعمل تحته القوة على إفساد العقول: إذا حَرّم كل ما له علاقة بممارسة الجنس، وتزيل الرقابة كل ما هو إباحي أو شهواني، وتضع مكانه شريطاً أو صوت بيب، فمن الواضح أن ما ينتج عن ذلك هو أن الناس يصبحون لا يفكرون سوى في الجنس، ليلا ونهاراً. ومن لا يفكر سوى في ذلك طوال الوقت، ولا يستطيع أن يفكر في غيره من شدة الحرمان لا يجد في كثير من الأحوال مخرجاً سوى العدوانية. إن الجندي الشاب الذي يقول إنه لا يقوم إلا بما أمره به رئيسه، ولن يقوم إلا بذلك، ثم يفرغ سلاحه في الميت، يظهر الغباء البائس نفسه، والصرامة القابضة للنفس التي يلمسها المرء عندما يستقل سيارة تاكسي في مطار كندي.

في كثيرٍ من الأحيان، تبقى خفة دم الزنوج بصيص النور الوحيد. «ألمانيا؟»، سأله السائق ذات مرة. «كم الساعة الآن في ألمانيا؟»

«السادسة تقريباً»، أجاب «فولف».

وهنا ضحك الرجل وهزّ رأسه عجباً. «هل الوقت مازال باكراً إلى هذه الدرجة؟ يا لكم من مخبولين!»

الدفاع عن الكتب، والحياة، التي يحكي عنها بطريقة تتغلغل داخل المشاعر والأحاسيس، يمكن أن ينتزعا منها الغامض والخطير لفترة وجيزة، خاصة وأن السكينة والاستقرار اللذين يبعث بهما الكتاب يرجعان إلى أن كل ما قد يخيف القارئ أو يقلقه قد تم ترويضه. ففي قيد الصيغة ليس له أي سلطان على القارئ.. على الأقل خلال فترة القراءة. السعادة فقط لا تشعر بالارتياح في داخل النص، يجب على السعادة أن تفر من النص، فالغزال الذي لا يستحي، تفوح منه رائحة «ديزني لاند».

لكن عزاءه هو أن الحياة تستحق من الإعجاب أكثر من الأدب. وأثناء جولاتهما الاستكشافية في الحي لفت أنظارهما عدد من العمارات حديثة البناء، والتي لا تبعد عن متنزه «جولدمان بارك» بكثير، وكذلك أشجار الدلب الضخمة الموجودة فيه، حيث إن «فولف» الذي نالت إعجابه البيوت الراقية المصممة لأسرتين، بحدائقها الأمامية، وشوارعها ذات الرصيف المتعرج وأشجار البلوط والكستناء على الجانبين، قال بصورة عرضية: « كنت سأحب حقاً أن أنتقل إلى هنا».

في ما بعد، وعندما يصبح إخطار إنهاء العقد جاهزاً تناديه «ألينا» بإشارة من يدها لرؤية الحاسوب.. شقة واحدة بمساحة مناسبة في المنطقة بأكملها يمكن أن تدخل في الحسبان. «أسلوب بناء ملائم للبيئة».. كتب بالإعلان. «فقط لغير المدخنين!» يتصلان بالهاتف، ويحددان موعداً لمعاينة الشقة، ولأن الشارع لا يزال غريباً عليهما إلى حد ما، يأخذان معهما خريطة المدينة، ولا يجدان نفسيهما فجأة فقط يقفان في ذلك الجزء من فريدرخسهاين الذي أشارت إليه «ألينا» بإصبعها وقتذاك، بل وفضلاً عن ذلك أمام العمارة البنية حديثة البناء وذات النوافذ الداكنة، والتي أعجب بها «فولف» قبل أسابيع أيّما إعجاب. شقة بثلاث غرف صغيرة للإيجار، ولكن لها مذاقاً خاصاً. الباركيه المعالج بالزيت، يضفي عليه ضوء المساء بريقاً ناعماً، والمدفأة تتوارى خلف جدران مبنية من الطوب اللبن.. يتجلى الهواء في الشقة على نحو مختلفٍ تماماً، أكثر لطفاً، والسلم الداخلي المصنوع من خشب البلوط، لولبي يصل حتى السقف، ما يمنح تلك الشقة ذات التصميم الذكي، بالمطبخ الصغير، والحمام الرحب، ديناميكية خاصة، وكأنها بيت في داخل بيت. فيها شرفة ضيقة، تقع بين أشجار الشارع العريض، وأخرى أكثر ارتفاعاً تطل على الجهة الجنوبية، ويمكنك أن ترى منها

قمم البيوت، والجراجات، وحدائق البيوت حتى البحيرة، والمستأجران- يكاد يخجل مما يشعر به من الارتياح- من الغرب.. يسكنان في الطابق الأرضي، وهما زوجان في عمر «ألينا»، في الأصل من محيط مدينة فرانكفورت. السعر مناسب، بل وقد يكون مجاملاً، ومع ذلك أعلى من سعر الشقة المسمومة، ما يبعث في نفس «فولف» شعوراً طفيفاً باليأس. فهو يكره أن يعيش فوق مستواه، لأن ذلك قد يقطع على حياته وعمله الأنفاس الحرة، ويسلبهما الصدق كذلك، بحسب ما يعتقده. ومن ناحية أخرى قد يعطي ذلك القدر دفعة، خاصة وأنه كان من تجاربه المتكررة في الحياة أن أذعن لرغبته في الأمور التي تهمه فعلياً. وعلى الرغم من ذلك تعاوده حالة من التردد مراراً وتكراراً، ليجدها من أتفه التوافه لدى إحدى الشخصيات الروائية، وشيئاً لا يستحق الذكر. ثم لا يبقى أمامه إلا أن يعزي نفسه عاضّاً على أسنانه، لأن قلقه في النهاية يمثل نوعاً من التفاؤل قاتم الموقد والذي تضاء به شعلة الفرح بالنجاح.

يوقّعان عقد الإيجار، ومرة أخرى تتوقف أمام بابهما الشاحنة المزينة برسوم الأزهار، ويعاين السيد شميشو الشقة من دون أن يرى أية غرابة في أن ما يجب نقله الآن يقل عن المرة السابقة، وبينما يجهد رجاله أنفسهم بنقل الأثاث

والصناديق، يحمل شميشو أباجورة يابانية من الورق إلى الشاحنة، ويقضم شطيرته. «كما تقول جدتي دائماً: الانتقال مرتين مثل التعرض لانفجار قنبلة لمرة واحدة».

الاشتغال على النص يقترب من النهاية، والأعصاب في توتر. حقاً، إن العلامات المبشرة بالخير في تزايد، كما يحدث في أغلبية الأحيان: عنوان الرواية الذي طال البحث عنه يجد طريقه إليه، والأحداث العابرة التي انحرفت مساراتها اكتملت من تلقاء نفسها.. تتصل به ذات مساء فتاة من معارفه لم يرها منذ خمسة عشر عاماً، وقد قام بتوظيف شخصيتها في الفصل الأخير من روايته، ولكن آثار الجهد في الوقت نفسه تظهر على جسده. آلام الظهر المعتادة، حرقة العينين، والمعدة. ليس لأنه قد مرض بالفعل، فلم يحدث ذلك حتى الآن. من الواضح أن الجينات الطيبة، وحب الحركة والغذاء الصحي، إضافة لطبيعته الهيبوكندرية قد حفظته من المرض، ولكن عدم وقوعه فريسة للمرض، كان في الماضي أخفّ ظلاً، أو بمعنى أصح: لم يكن يكترث بأنه معافى بهذا القدر. وبالإضافة إلى ذلك فهو يحتفظ ببعض الذكريات عن تلك الفترة التي عمل فيها ممرضاً في أحد المستشفيات الجامعية، إلى جانب ذكرى إصابة خفيفة بالتهاب الكبد. كما يحتفظ بثقافة طبية سطحية مزعجة، لا تزال تجعله يعتبر كل ألمٍ أو

تعبٍ بمنزلة أول أعراض المرض، وتحديداً لأسوأ مرض ممكن. إن إقناع نفسه بأنه يعاني من الحمى حتى يرتفع عمود الزئبق في الترمومتر ليس سوى أحد تمريناته البسيطة.

الهيبوكندريا كتعميق للشعور بالعزة. يتوهم المرء أنه كبر في السن بمقدار ألم وهمي. ولكنها حتى وإن كانت مجرد فكاهة الأوجاع، فإنَّ الآلام المفاجئة الحادة، والدوخة المفاجئة، وضيق القلب بصفة متزايدة مثل دويّ ذلك الخطر الذي لا يراه المرء، لأنه يحوم فوقه. صحيح أنه يعتقد بينه وبين نفسه أن خوفه من قلة الحيرة والتبعية أيضاً قد ساعد على وقايته من الأمراض الخطيرة حتى الآن، ولكن قلبه في ذات الوقت يحدثه بأن المرض هو الذي غالباً سيعالجه من هذا الخوف الفاحش، وذلك لأن كل مرض يحمل معه مؤثرات على مستويات أخرى، كما يجعله يتهيأ ويتأهب. وكثيراً ما كان ذلك يتجلى واضحاً في حجرة الطوارئ، قبل أن ينبلج الصبح بنحو ساعة، عندما تبدو الآلام وسكرات الموت وكأنها قد انقطعت لفترة ما، وتكون الممرضات وأطباء المناوبة الليلية قد أخذوا غفوة،بل وحتى صوت هسهسة الأجهزة قد انخفض. ثمة شعور عجيب بالخفة قد ملأ الحجرة بعد ذلك، فتلألأت فيها المحاليل.. كالبلور كصفاء البال، وكأن الفظائع تأتي فقط من هذا العالم، وكأن هناك رحمة.

الطائرات في السماء، الترامات المصلصلة، وقطارات البضائع التي لا نهاية لها، والتي يتذبذب من تحتها ما كان سابقا مستنقعاً، تشكل قلب المدينة. السناجب في متنزه «جولدمان بارك»، والأشرعة البيضاء فوق سطح البحيرة، والطيور تصرخ داخل الشجيرات، وحين يكون الطقس بالغ الحرارة، يعمل بالشرفة الجنوبية، ويطل على الحدائق التي تضم أشجاراً عتيقة، بعضها ضخم، وفي تلك الحدائق بدأ الحفر لوضع أسس بناء بيوت جديدة. قطع الأراضي المختلفة، تربطها طرق ضيقة مكسوة بالعشب، وتزرع فيها الخضراوات، حتى التبغ. ورنين جرس بائع الخردة يدوي داخل أقبية بوابات البيوت المدنية حديثة الترميم. كل شيء من حوله بداية، وفي داخل العديد من النوافذ توجد أكوام من صناديق الانتقال، وعلى التراسات المبلطة حديثاً، تتناول الأسر الصغيرة وجبة الإفطار، وبينما هو ينمق جمله، ترتب «ألينا» الشقة. وفي هذه الأثناء تحرص على أن تبقي في متناوله دائماً بعضاً من المياه المعدنية أو العصائر أو الشاي الطازج. إنها هدية القدر، أن يمنحه الآن أيضاً الفرصة لأن يشهد تلك الإرادة البشوشة، والهمة، والتفاؤل لامرأة تهيئ لها ولحبيبها مسكناً للفترة المقبلة. تخطط التصاميم، وتتحاور مع الكهربائي والسباك، وتدور على محال الموبيليا

بعد العمل، وتحضر معها الكاتالوجات وعينات الأقمشة. تشتري خزائن ورفوفاً فاتحة اللون، ومصنوعة من خشب البتولا والكرز، كي تتناسب مع الأرضية الباركيه، ومقاعد الروطان المتينة وخفيفة الوزن، إلى جانب أريكة كبيرة لونها بني غامق. لا تريد أية سجاجيد، بل فقط بعض الألوان الرقيقة هنا وهناك. في المساء تقوم بإعداد الطعام له، وهو الذي يتلهف الآن لكل ساعة، بل ويعشق برنامجها الغذائي البسيط: المرة بعد المرة الريزوتو أو الكيش مع السلطة.. المرة بعد المرة «شوربة العيد» المعلبة. تضع له الأزهار في حجرته، وطبقا فيه فاكهة مقشرة، كما تحضر له كؤوس الآيس كريم من محل الآيس كريم الإيطالي، وتقوم بإغلاق غطاء جهاز الكمبيوتر المحمول الذي يعمل عليه كلما رأت أنه بحاجة إلى بعض المشي، ولذلك كله يشعر بأنه مدين لها بشكر شبه متضرع. هو يعلم أن الكتابة عمل جسدي شاق، فمن أجل الجملة ها هو قد شاب فؤاده.

يبدو مخزونها من الطاقة وكأنه لا ينفد، من دون أن تعي ذلك على الإطلاق. تقوم بعمل ما يجب عمله، وبينما هو لا يزال يشكو من النعاس والإعياء، تكون هي قد غلبها النوم. ولكنه عندما يستيقظ بجوارها ذات صباح يجدها هزيلة، ومصفرة اللون بشكل مريب، بل وعلى أنفها نقاط عرق

خفيفة، وهو الذي لا يزال يرى فيها الطفلة التي كانت عليها في صورة الصف المدرسي، وبالأخص عندما تكون نائمة. تطلق تنهيدات خافتة، وتلوي جسدها بعض الشيء، وعلى الرغم من أنه ليس هناك أي داع للقلق، فقد خطر له تلقائيا: ابقي معي، يا صغيرتي. لا تموتي.. خاطرة غير منطقية، تذعره وتزعجه في آن واحد. يبعد تلك الأفكار عن رأسه، وينهض من الفراش بهدوء، ويعد القهوة.

ليس بالنادر، بل إنه غالباً في أوقات اشتعال العاطفة يملأه الخوف على صحتها وحياتها، فيتفحص سمك معطفها خفيةً، وكذلك عمق نحت أحذيتها الشتوية وبطانتها، ويتحقق من كفاية مخزونهما من حبوب الفيتامين. يبقي في حسبانه أن يكون محمولها دائماً مشحوناً، وينادي عليها من على الشرفة بألّا تعبر الشارع والإشارة حمراء مرة أخرى، ويدفعها بغضب إذا اقتربت من حافة رصيف المحطة أو رصيف الشارع بشكل مبالغ فيه. وإذا وجد في غيابها خصلة من شعرها في حقيبة سفره أو بين صفحات أحد الكتب التي قرأتها قبله، يذكره ذلك في أسى بأنها قد تفارقه ذات يوم، ويجعله يبتسم مندهشاً أيما دهشة لمدى ضعف تمكنه في تلك الأثناء من أن يتصور نفسه خالي البال من الانشغال بامرأة ومنفتحا أمام كل الأبواب التي يغلقها انفراده معها.

عندما يعود بصينية الإفطار، تكون ألينا قد أفاقت، وتبتسم ابتسامة حزينة. عيناها مبتلتان، ولا ترد على سؤاله في بادئ الأمر، بل تحملق ببصرها إلى الأمام بلا حراك.. يجلس على حافة السرير، ويصب لها الحليب في القهوة وينتظر، وبعد أن تتنحنح وتزدرد ريقها لمرات عديدة تقول له– وبعض السكر يتساقط على الباركيه– إنها بالفعل قد حلمت بموتها. فقد حضرت إليها أمها وأخبرتها بأنها ستموت بعد ستة أسابيع، في يوم خميس. «ماذا، بهذه السرعة؟» أجبتها. «ولكن على أن أعتني بزوجي. ألا يمكن التأجيل؟» إلا أنها فقط هزت رأسها سلباً، وهنا فكرت: حسناً، ما من مشكلة. يبقى بوسعي أن أساعدك كروح طيبة».

يدفع بشيء من الهواء عن طريق الأنف إلى الخارج. قد قالت «زوجي» للمرة الأولى، ما يضفي على طابعها الأنثوي جدية تسرق لبه، وكأن ما قد أصبحا عليه من رشد منذ زمن بحكم السنين قد بلغ بهذا اللقب صميم قلبيهما، ولكنه حينما يسألها عما إذا كان لا بد من أن يتزوجا، ما تلبث أن تضحك مجدداً، وتمسح عينيها الدامعتين بظهر يدها. «كلا، كلا، يا صديقي، دعنا من هذا.. إنني أعرفك. ما أن توقع على شيء حتى تراودك الرغبة في أن تفسخه من جديد». تحتسي هي رشفة، وهو يهز رأسه سلباً، بيد أنه ارتاح لهذا الرد في

ما بينه وبين نفسه. صحيح أنه يعتقد بشدة أنه سيمضي مع «ألينا» كل ما تبقى من عمره، إلا أن ذلك لا يساوي في عقد موثق إلا نصف قيمته عنده. فحب موثق بختم، مثل قصيدة من غير وزن.

يشرع في العمل من جديد، وذات يوم يسمع إلى جانب أصوات حفيف وخشخشة العبوات والأكياس، والتي هي من طبيعتها، شيئاً غريباً، بل هدوءاً يختلف وقعه في الردهة. في بعض الأحيان تحضر معها التلاميذ أو التلميذات وتعطيهم حصصا إضافية، في الغالب من دون أجر، ولكنها لا تخاطبهم في همس، وعندما يضع قلمه الرصاص جانباً ويمسح، ما قد كان جاهزاً في رأسه منذ زمن طويل، كي يصدر صوتاً حياً على الورق، يلف المفتاح داخل قفل الباب، وعلى الحصيرة يقف كلب.

حصلت إحدى زميلات «ألينا» على وظيفة في فنزويلا في إطار تبادل للمدرسين، لما يقرب من عام، حيث ستسافر برفقة والدها، الذي كاد يأخذه مرض فجأة.

«ويبستر»، خليط من اللابرادور والبوينتر، يبلغ من العمر أربعة أعوام، وهو كلب ذكر مهذب، رغم قامته الشامخة.. عيناه كهرمانيتان داكنتان، وفروه بني قصير يلمع مثل اللبن المطحون طحناً ناعماً، وعندما يدس رأسه للمرة الأولى في

خصاصة الباب وينظر إلى «فولف»، يتغير حال الحجرة المكتظة بالكتب، وأكوام الورق، والجيتار القديم إلى الأبد.

ثمة حكمة طفولية بطريقة ما.. سحر بين قوة وأسى ينبعث منه. وبينما كانت «إلينا» تعلق سترتها في الردهة كان الكلب مستلقياً على بطنه، وينزلق بطيئاً، بدفعاتٍ قصيرة، نحوه. تخربش أظافر خفه الرقيق بصوتٍ خافت، ويقرع ذيله الباركيه، فينبثق الغبار المثار من تحت الخزانة. تفوح منه رائحة الغابة.. رائحة التربة الرطبة والعشب، وعضلات جسمه ترتجف تحت الفرو، وعندما ينحني «فولف» إلى الأسفل، ويتركه يتشمشم أصابعه ويضع ظهر يده بين أذنيه بحذر، ويدفع بجبهته نحوه، ويغمض عينيه برهة، ثم يهمّ واقفاً، ويخرج منه من شدة الاضطراب شيء من البول، ويلف نابحاً حول نفسه. فأُخذ من وقع نباحه، الذي تردد داخل جسم الأكوستيك جيتار، وألينا ترتكن إلى الباب وتقول: «رائع! إذاً، فاذهبا معاً إلى الجزار».

أياً كان ما قد يتحقق بظهور عشيقةٍ سابقة على حافة الصورة، فإن الاكتئاب يغطي عليه. الرقم على الشاشة هو نفسه، بيد أن الصوت قد تغير.. شارلوتيه التي تبلغ الخمسين من عمرها، وتقع الآن من مسمعه موقعاً داكناً، ودافئا أيضاً، وعلى عكس سابق عهدها، أضفت أنثوية راسخة على

نفسيتها، وتطاولت إلى السماء بعض الشيء، وأبدت تصميماً صادماً على النجاح المهني، كل ذلك أضاف إلى نبرات صوتها شيئاً مدبب الأطراف، ومتحشرجاً قليلاً في بعض الأحيان، عززته التجربة. منذ قرابة عقد ونصف العقد وهو يتأهب دائماً بدافع داخلي لذلك الوقع الداخلي وغير المباشر حالما تتصل به، إلا أنها أدهشته في ذلك اليوم بهدوء النفس الذي تنم عنه لهجتها، من دون حيلة أو مكر. وعلى الرغم من أنه يلمس في طول مقطع قولها «هاه!» همسة عتاب، مضمونها الذي لم تتلفظ به هو «لماذا لم تتصل طوال هذه الفترة؟»، فإن طابع صوتها يبدو له الآن أكثر قطعية، كالنسيج الشفاف على جزء من الجسد فائق القابلية للانجراح.

كانا قد تعارفا في منتصف الثمانينيات عندما كان و«ألينا» منفصلين، لأسبابٍ لم تعد معروفة لهما أبداً، وذلك في بداية حبهما على الفور. شارلوتيه، أخت محرر إذاعي من مدينة «ميونيخ» كان قد أجرى معه «حديثاً ليلياً» حول بعض الكتب، ثم دعاه بعد ذلك إلى الطعام، وكانت جالسة على طاولة كبيرة في ركن الزبائن الدائمين بالمطعم، تتناقش مع كاتب آخر. وعلى الرغم من أن الوقت كان قد قارب منتصف الليل، وقد علم أن معدته ستنتقم منه، إلا أنه تناول وجبة حافلة مع الحلوى والقهوة. وكان ذلك قد أصبح من

عاداته بعد انتهاء الفعاليات المهمة، وذلك لأنه في هذه الأثناء لم يضطر إلى التحدث تقريباً. كان فقط يومئ برأسه أو يهزّه وهو يمضغ الطعام، وينتظر بينه وبين نفسه غرفة الفندق بفارغ الصبر والتلفزيون بجوار السرير.

رغم القرط الذي على شكل قطرة، والبلوزة المبطنة في منطقة الكتفين والتي فرضتها الموضة وقت ذاك، ورغم الجونلة الجلدية الضيقةو والنصف بوت ذي الرأس الحاد، إلا أن أناقة شارلوتيه ذات علاقة محدودة بالإكسسوار. فالشعر الأسود، الذي قصّ بيد كوافير ماهر، فائق النعومة، والوجه النحيل مع العينين الكبيرتين ينم عن فطنة ورقة قلب. بينما تكشف اليدان العاطلتان من الحلي عن القوة. في حين أن الذقن المرفوع يبدو دائماً محلقا فوق الموقف إلى حد ما. ولكن أكثر ما يلفت النظر فيها هو ظهرها المستقيم، وخصرها شديد النحالة إلى حدّ بدا وكأن حزاماً قد شدّ عليه، ناهيك عن مؤخرتها البارزة بثقة، وفخذيها، وساقيها مفتولتي العضلات واللتين كانت تتلألأ بهما جواربها، وكذلك مشيتها المتبخترة وقولها له: بعزم وتوجيه: إذا شئت يمكنك ان تنام معي، ولكن سيتوجب عليك أن تريني همتك.

ذاك المساء لا يتحدث «فولف» معها تقريباً، ومع ذلك يحرص على ألا يبالغ في تجاهلها.. درست علم النفس وعلوم

التواصل، وأتمت رسالة الدكتوراه منذ فترة وجيزة، وترغب في العمل في السلك الأكاديمي، في منصب أستاذ في إحدى الجامعات في مجال علم الأنساب. لا تغير جملة ذائعة آنذاك مثل «إن ذلك بطبيعة الحال هو تحدٍّ لنا نحن النساء!» شيئاً من مظهرها المثير للاضطراب، عندما يعلو رنين ضحكتها. وعند الوداع أمام المطعم تكسو ملامح وجهها، برقة تمثيلية، وحنان مصطنع، وملمس يدها عند المصافحة يبدو أنعم مما يتوافق مع قوتها. ثم تنصرف وهي تدرك تمام الإدراك أنه يتبعها بنظره، فتجعل كعبها يخربش.

وحينما يكتب بطاقة للمحرر، بعد ذلك ببضعة أيام.. كلمة شكر موجزة على اللقاء الإذاعي الناجح، يضيف تحية لأخته، ويتلقى، حين يعود البريد خطاباً منها.. ظرفاً لونه أزرق فاتح لا توجد في داخله سوى بطاقتها الشخصية. إلا أنه لا يقوم بأية ردة فعل على ذلك، ولا حتى على مكالمتها الأولى التي يستمع إليها من دون أن يرفع السماعة. وفي الثانية يجيب إجابة مقتضبة إلى أكبر حدّ، إلا أنها ذات يومٍ تأتي إلى برلين في زيارة لصديقة بحسب ما تدعيه. يتواعد معها في مقهى كهنة في كرويتسبرغ، حيث تبدو وكأنها في المكان الخاطئ ببدلتها المقلمة ذات الأزرار النحاسية، ومن شدة التوتر سكبت كأسها. التعبير على وجه النادل، الذي

تفوح منه رائحة العرق الشديد، يفيد باستنكار صريح. يضع على الطاولة قطعة قماش من أجل البيرة المسكوبة، وشارلوتيه تضحك في خجلٍ وتقول: «إن هذا يحدث لي دائماً!»، وفي ما بعد ستعترف له بأنها كانت ثملة حينما حدث ذلك.

لا ينشأ بينهما حوار في تلك الأمسية.. الطقس بين شعر ذقنه النابت، وتضاريس جسدها حار ويومض به شعاع من الضوء الأزرق.. ينبغي اختلاق الانسجام. يتجنب إبداء الآراء التي لن ينتج منها سوى الآراء المعاكسة، بل والشامتة، وشارلوتيه تبدي تفاعلاً، ولكنها على عكس «ألينا» تفهم من دون مشاعر.. أسلوبٌ مصدره الكتب وتم اختباره في الندوات والمؤتمرات، فلا يحيد قيد شعرة عن الحقيقة. إلا أنهما يتحاشيان الإصرار على أي تضارب للآراء في ما بينهما من دون مهادنة أو مساومة، فالمفروض أن كلاً منهما يريد مضاجعة الآخر، ثم يذهل للشهوة التي يبعثها في نفسه ملمس خصرها فوق ردفيها، وهي تقبله تحت شجرة الكستناء أمام بيته. تتفاعل بنعومة مع كل حركة من حركات شفتيه، وللحظة يشعر بأنه فظ بعض الشيء، كالرجل المرتبك الذي تتركه امرأة تقوده ليقودها فيصدق أنه راقص ماهر.

يدفعها إلى بئر السلم.. «في الواقع تسير الأمور الآن بسرعة مبالغة بالنسبة لي»، هي تقول له، إلا أنهما قد أصبحا

واقفين داخل شقته التي ينفذ ضوء مصباح الفناء إليها، ثم يفتح أزرار بلوزتها، ويخرج ثدييها بحذرٍ من كوبي حمالة الصدر، وكأنهما من عجين طري. ولكونها غير نظيفة بعض الشيء في تلك الليلة، نظراً إلى أن لفرجها بشفرتيه الرماديتين والملتفتين واللتين أطبقتهما الملابس، رائحة طفيفة تحت الجونلة الغالية، فإن ذلك يثيره بشدة، خاصة وأنه يعتقد أن هذا يجعل من حقه أن يزيد من عنف حركته وسرعة قذفه. يبدو شاحباً بجانب اللون البرونزي الذي قد اكتسبته كامل بشرتها من جراء استعمال السولاريوم، ولكنهما يليقان ببعضهما تماماً، وعندما يصفعها على مؤخرتها تسمعه متلذذة بعض التأوهات الشاكية.

بيد أن أصوات تشجيعها له، تبدو زائفة، وكأنها مقتبسة من فيلم جنسي، ويراوده إحساس قوي بأنها لا تتمتع به بل تصبر عليه. أسنانه يطرق بعضها بعضاً.. ينبش خدوشاً على ظهرها، ويغرس إصبع الإبهام في فتحة شرجها، ولكنه بحركته السريعة كالقرد، ما يلبث إلا أن يزيد مع كل إدخال ابتعاداً عن قمة النشوة، إذ إنه أصبح يرى فيها هزيمة أمام نفسه في ظل طول أناتها الساخر. وبعد ذلك، ينتابه الشك، ويفكر في كبر سنها ولا يستطيع أن يصدق على وجه الإطلاق أنها ترفع له فرجها من دون أن تطمع في المقابل، إلا في قضيب

شعري أحمق. يتسرب الهواء عندما يسحبه، ريحاً مخجلة، إلا أن تمرسها بالحياة والذي يظهر جلياً في عدم شعورها بالحرج مثل العديد من النساء الأخريات، في تجاهلها له من دون أن تنطق وجناتها بأية تعابير، يجذبه نحوها من جديد، فيلمس وجنتها برقة.

«ماذا جرى؟».. تلهث سائلة. «ألا تستطيع أن تفضي؟»

يكور وسادة، ويمسح بها العرق من على صدره. «وأنت؟»

لا تجيبه مباشرة، ولكنها تعض على شفتها السفلى، ثم تحملق بعينيها في سقف الحجرة. إبطاها منتوفان، وهذا لم يكن من عادة النساء آنذاك، وعندما تنزع نظارته بحذرٍ عن وجهه يسترق النظر إلى الساعة.. تدفعه إلى الأسفل برفق، والآن، بينما هو يمسح وجهه في شعر عانتها ويقبلها ويلعقها، تكشف له عما هو أكثر من مجرد جسدها. فمع التأوهات كانت تتلذذ، وكأنها تنزل في حمام ساخن.. تميل رأسها إلى الوراء، ثم تثني ركبتيها، وتتبلل لدرجة أن ماءها يتسرب إلى الملاءة فتظهر عليها بقعة كبيرة. وفي ذات الوقت ينتفخ بظرها، ويتمدد خارجاً من مخبئه، حتى يكاد يتناوله مثل قضيب صغير، وتأخذه الدهشة لمدى عمق وصلابة ما يمكنه بعد تحسسه منها تحت الجلد. وشارلوتيه في أثناء ذلك

مستلقية بين يديه، وكأنها سابحة في عالم آخر.. كأنها تصغي بكل انتباهها إلى أصوات بعيدة في مكان ما.. تعض على إصبع إبهامها أو تملس على ظهره بإحدى قدميها، وبعد مرور ما يزيد على نصف ساعة، عندما بدأ لسانه يتعب، ويؤلمه عند حذره، لم يستطع سوى أن ينفخ فيه. في هذه الأثناء يغرس أظافره في حلمتي نهديها، الهالات السمراء، وتمسك بشعر رأسه بعنفٍ، وتصل إلى ذروة الشهوة.

ذروتها، شيء لم يسبق له أن شهد مثله من قبل.. تبدأ بنهنهة شبه طفولية، بينما تزيد من سرعة دفع حوضها إلى الأمام.. تسحبه، تسحب رأسه إليها بقوةٍ حتى تمتنع شفتاه عن الحركة ولا تكاد تبقي للسانه أية مساحة لمداعبتها.. تتمسح في ثناياه ثم تصرخ بعد ذلك صرخة، وتدفعه بقوة جسدها، وتوليه ظهرها، وتلوي جسدها.. يود أن يضمها إليه، ولكنها ترد ذراعيه، وتبدأ ترتعش. على ثدييها وفخذيها تظهر قشعريرة، كما أن تنفسها ينبعث منه صوت يشبه الارتجاف وكأنها تشعر بالبرد.. تشد بطنها مرة ومرتين، حتى تتجوف بحيث تكاد فتحة سرتها تختفي.. تتحسس يداها ما حولها.. تبحث عن سند، ثم تطبق على أصابعه.. ترمش بجفنيها، وأخيراً، تستدير ويبدو عليها الاسترخاء، بل وتبتسم ثم تمرر لسانها على زاوية من زوايا فمها، و«فولف» يزيح خصلة

شعر كانت متدلية على وجهها، ويرغب في النهوض، وهنا تراودها نوبة جديدة، حيث تبدأ بضربه بقوة وعنف.. تكشر عن أسنانها، ثم تلكمه، من دون أن تنظر ناحيته.. في قفصه الصدري، وخاصرته، وفخذيه، وفي اللحظة الأخيرة يتسنى له أن يقبض على رسغي يديها، ليمنعها من ضربه في منطقة أكثر حساسية. ثمة قوة تشنجية في ذراعيها، مثل الكهرباء المختزنة، وبينما هي تتأوه وكأنها تحترق من الداخل، ربما لا تدرك وجوده على الإطلاق، ثم تغمض عينيها، وتكون وحيدة، غاية ما قد يبلغه شخص عار من وحدة. دموع مسودة تسيل على الوسادة، ثم بعد ذلك تلتصق به، وسرعان ما يغلبها النوم وتشخر بصوت منخفض.

بعد مرور أيامٍ قليلة، يتقابلان في أحد المقاهي قرب محطة زودشتيرن، ويكون كل شيء كما كان في المرة السابقه: كل منهما يأخذ حذره من الآخر، وكأنهما يشعران بأن ما يمكن أن ينشأ بينهما من لذة، من السهل أيضاً أن يتحول إلى ألم.. يشربان الكونياك والقهوة. شارلوتيه، التي ترد في قاموسها كلمتا الإنجاز والتفوق بنفس بداهة تجنبه لها، تتحدث عن بحثها.. دراسة حول الحرية الجديدة للمرأة وما يصاحبها من اكتئاب. يرسم نباتات وأوجهاً مخيفة على فوطة سفرة ورقية، حيث إن عدم التقيد بهيكليات وأعراف محددة

بصورة واضحة يزيد الناس تيها وضياعاً بصفة مستمرة.. علاقة جدية، نعم أم لا، السكن معاً، نعم أم لا، الأطفال أم الوظيفة. إن حتمية اتخاذ القرار، التي يلاقونها في شتى دروب الحياة، ستؤدي في النهاية إلى الإجهاد وإعياء مصدره أعماق أعماقهم، وعلى وجه الخصوص لدى النساء، حيث تتحول نزعتهن الهستيرية إلى أخرى كئيبة، أعراضها، إدمان الحبوب المنومة والمهدئة، والكحوليات، والبرود الجنسي. الهيستيريا، التي تم تعريفها في نهاية القرن التاسع عشر على أنها مرض نسائي، سيحل محلها الاكتئاب في نهاية القرن العشرين، كما تقول.

يقنعه كلامها، بلا أي جدال. وفي هذا الوقت يبدو الأمر حديثا بالنسبة لمن لا يقرأ الكتب العلمية. إلا أن لهجة المدرس التي تتحدث بها تخنقه وتزعجه. إنها تريد أن تكون أمامه متألقة بكتفيها المحشوتين ولقب الدكتوراه الطازج.. تضع ساقاً على ساق وتبقي قصبتيها متوازيتين، وهو يظر إلى تسريحة شعرها الأنيقة، ويفكر في مذيعات برامج الحوار والنشرات الإخبارية في التلفزيون، اللاتي يبدو أنهن يصففن شعورهن بذات الطريقة، ويحرصن بصفة عامة أيضاً على الاحتفاظ بنفس الوجوه المتشبثة بالمبادئ والمجردة من المشاعر أمام الكاميرات.. زوايا الفم مشدودة في حشمة وعفاف،

وكأن حياة الإنسان خالية من كل ما هو غامض أو شيطاني أو قذر.. كأن كل شيء يمكن حله بالحكمة وبفوطة صحية نظيفة. ويقول في تحدّ: «إنك تجلسين على فتحة فرجك، في انتظار من يلبي رغبتك، وتبدين وكأنك تريدين شيئاً مختلفاً تماماً. فما أصاب النساء من النسوية إلا كل مكروه».

تصمت لوهلة.. الأمر يشكل في حد ذاته عقوبة تأديبية. تشعل لنفسها سيجارة، وتنفخ الدخان عن طريق الأنف بأناقة رفيعة. «كان ذلك غبياً».. تقول أخيراً. وما يلبث إلا أن يحس به على شفتيه، الطعم الحلو المرير للذنب، ويوجه نظرة إلى الأرض، حيث يتأرجح رأس حذائها.

غير أنه بعد ذلك يكور فوطة السفرة، ويدس عقب القلم الرصاص داخل حقيبته. «عليك أنت أن تكوني ذكية ونبيهة»، قالها وهمّ واقفاً. «ففي النهاية أنت من يرغب في الصعود إلى المراتب العالية. أما أنا، فبإمكاني أن أظل غبيا من صميم القلب ما دمت شاعرياً ورشيداً». جملة جميلة، حتى وإن لاحظ أنها قد أخذت من مخزونه الأدبي، جملة ختام مثالية، يكتمل بها شيء في ما يبدو أنه لم يعد يرغب في احتماله، ويضع ورقة نقدية على الطاولة ويغادر المقهى.

غير أن الشعور بأنه قد انتهى من أمرها، إلى غير رجعة، لا يخامره. فبعد أن هدأت ثورته، وخمد غضبه مما أظهرته

شارلوتيه من تحفز للعراك، والذي أنهك أعصابه نظراً إلى أنه كان بشكل سافر، بعد ذلك تبقى لديه حالة من انشغال البال، يصعب عليه أن يحول دون أن يخلط بينها وبين الوقوع في الحب، عندما يفكر في الصباح الذي استيقظا فيه على الوضعية نفسها التي خلدا فيها إلى النوم: ركبتاه في باطن ركبتيها، وبطنه ملتصقة بظهرها، ويده على نهدها الطري. ناهيك عن الطريقة البديهيه التي بللت بها أصابعها، ومدت بها يدها بين فخذيها لتدخل قضيبه، والحركات المتباطئة، وشبه الناعسة تقريباً، والذروة الساكنة وحيث اشتدت عضلات مهبلها مرات ومرات، وكل ذلك منحه إحساساً بشيء من الخوف، كأنه ينام مع راهبة.

كما أنها لم تستسلم بعد ظهر ذلك اليوم. فقد كان مستلقياً على الأريكة في شقته، يسمعها وهي تصعد على السلم.. لا بد من أنها هي، فهو يعرف وقع أقدام سكان المنزل الخلفي الآخرين، الذين لا يرتدي أحدهم كعباً عالياً مدبباً. لا إرادياً يكتم أنفاسه، عندما يتأكد أنها خلف الباب.. يسمع نحنحتها، ويستنشق رائحة عطرها، وعلى الرغم من أنه ينتظر جرس الباب فإن رنينه يذعره حينما يدوي في الحجرات الخاوية.

الباب الرقيق، الذي لا يتعدى كونه لوحاً مدهوناً تملأه

الشقوق والانبعاجات التي نشأت من جراء حوادث السرقة التي تعرضت لها الشقة قبل عهده، فيه فتحة يمكن من خلالها النظر إلى داخل الشقة. ولكن شارلوتيه لا يخطر على بالها ذلك. فقد أخذت تقلب حقيبة يدها بحثاً، عن مفاتيح وأقلام كانت تتخبط مع بعضها بعضاً، وفي النهاية يسمع صوتاً على السلم المتجه إلى أعلى، فمن الظاهر أنها قد جلست تنتظره عن حسن نية منها، اعتقاداً بأنه ليس موجوداً في البيت. هذا يفاجئه، حيث إنه لا يتناسب وكبرياءها، ولكنه يجبر نفسه على البقاء مستلقياً.. دخان السجائر يتغلغل عبر الشقوق، وبين الفينة والأخرى تسمع خشخشة ورق. يبدو أنها تقرأ، وهو يرى نفسه قوياً بهذا الجمود، بقرار الاستغناء عنها.. هكذا لا ينتابه شعور بالجبن. ومع كل صفحة تطوى بالخارج، يزداد السكون في داخل شقته عمقاً، حتى يغلبه النوم في النهاية ولا يستيقظ إلا بعدما يكون الظلام قد كاد يكسو الفناء.

يرفع رأسه متشمماً بئر السلم.. لا تأتي منه إلا رائحة القبو المالحة، كعادته. الريح تخشخش في أوراق اللبلاب المتعلقة بالجدار الخارجي.. بحذر ينزع سلسة المزلاج، ويفتح شقاً صغيراً في الباب.. السلالم خالية. هناك ثلاثة أعقاب سجائر أمام عتبته، واحد منها لا تزال عليه آثار أحمر شفاه.

منذ ذاك التاريخ، منذ خمسة عشر عاماً، لم يتقابلا. في بعض الأحيان، إذا كتبت إحدى الصحف القومية عن كتاب جديد له، كانت تتصل به، في أغلبية المرات من هامبورغ حيث تعيش منذ فترة طويلة. بعد تبادل العبارات الأولية المتعارف عليها، سرعان ما برزت في لهجة حديثهما تلك النبرة الاستفزازية بعض الشيء، والتي احتمى بها كل منهما خوفاً من أن يجد نفسه متروكاً لرحمة الآخر. كانت تلفت نظره إلى أخطاء مطبعية أو هفوات في الأسلوب، بينما تجنب أن يخبرها بأنه قد رآها على شاشة التلفزيون مرة أو مرتين. فبصفتها خبيرة متخصصة في الجوانب النفسية لوسائل الإعلام الحديثة، أجريت معها الحوارات بين فترة وأخرى. في إحدى المرات– كان وقتذاك يمضي بضعة أسابيع في كيوتو كـ «Writer in Residence»، أي كاتب مقيم– قطع ممارسته للعادة السرية وحيداً على الأريكة واتصل بها.. كانت تجلس بمفردها في مكتبها، حيث تحتم عليها أن تواصل العمل في يوم الأحد، بسبب موعد ما، وقالت له ما أراد أن يسمع.. كلمات لم تعد قذرة منذ زمن طويل، ولكن مفعولها كان لا يزال قائماً. ولم يثرها على ما يبدو إطلاقاً أنها جعلته، وهو على بعد بحارٍ منها على الوجه الآخر من الكرة الأرضية ويتطلع إلى برج الأجراس الخاص بالكونسرفتوار في الشفق

الأحمر، بمجرد نغمة واحدة من نغمات صوتها يقذف. «نظف نفسك»، تقول بلهجة حادة ثم تضع السماعة.

اليوم، أصبحت أستاذة جامعية، لا تعمل فقط في الجامعة وإنما أيضاً مستشارة للمحطات التلفزيونية ومختلف الشركات. وقد تلقت منذ شهر الاستدعاء الذي طال انتظاره إلى برلين.. تهنئته تتجاهلها، وكان يسمع طقطقة أزرار الكمبيوتر أثناء حديثها. عمل كثير.. عمل كثير جداً، كما أنها في هامبورغ، تسافر بين هنا وهناك كمن به مس، ولكنها عمّا قريب ستحصل على شقة في حي «ميتيه»، وسيسعدها إذا تقابلا، ربما في إحدى نهايات الأسبوع.

رياح، رياح صيفية، تتلألأ بنفحاتها المروج الخضراء، وأخيلة الأشجار تبدو مثل المياه الجارية.. قطع من الزجاج المكسور تبرق على الطريق، و«ويبستر» يظهر فجأة من بين أوراق شجيرة ثم يختفي وسط أخرى.. ينبش الأرض التي قد نبشتها الخنازير من قبل.. يدس رأسه طويلاً في شجرة جوفاء، وتصيبه رجفة حينما يطرقع شراع وسط البحيرة.. ينبح على الأوز حتى ينفخ منزعجاً، ويهدأ عندما يمران بالنفق الذي يردد صداهما، حيث تحدث أرجله دبدبة على الأرضية فتبدو وكأنها ضربات في قلب نهر الشبري الخالي.

«فولف» يعشق التنزه معه، والتجول بين الغابات، وفي

الوقت ذاته يشعر بهيبة شبه تبجيلية نحو ذلك الحيوان.. ليس بسبب قوته فحسب، وإنما لأن ويستر يتميز عنه بأنه راض كل الرضا بما قسم وقدر له الخالق، لأنه لا يريد أن يكون شيئاً آخر غير كلب، وهذا ينمي في داخله الشك بأنه قد يكون شيئاً مختلفاً تماماً.. رمزاً هيروغليفيا لا يمكن تفسيره. لسبب غامض ما، يؤول إليه حق أكبر في الزمن الحاضر مما يؤول إلى نفسه، ناهيك عن التردد وفقدان الثقة بالنفس ومشاعر النقص التي كثيراً ما يحس نفسه متدثرا بها كالأغطية المندية التي تصبح مثيرة للشفقة. بالرأس المرفوع قليلاً، والصدر المنحني إلى الأمام، يظل جالساً أمام باب الشرفة لساعات يتأمل الطيور على شجرة الزيزفون وأذناه وفتحات أنفه ترتجف. وعندما ينادي عليه أو يصفق، يماطل دوماً بعض الشيء في الاستجابة له، وكأنما توجب عليه أن يناقش أثراً ما في نفسه أولا. لهاثه الخافت يسمع كأنه تنهد. صحيح أنه يدفئ له قدميه عندما يجلس على مكتبه، أو يضع رأسه على ركبتيه خلال مشاهدته التلفزيون، إلا أنهما حالما يغادران المنزل، فإن الكلب دائماً من يحدد اتجاه السير، ولكن «فولف» يختار الاتجاه المعاكس لمجرد الحفاظ على نفوذه. ثم يرفع بصره إليه، ويمر من أمامه متمهلا ومتراخيا، ولا يبقى أمام صاحبه سوى أن يأبى التصديق بأنه قد شاهده يهز رأسه،

وكأن «ويستر» يرثي لحاله.

لكن «ألينا» في أغلبية الوقت هي من يتولى أمره، فهو يطيعها وكأنهما متلازمان منذ زمن قديم.. تتحدث إليه بصوتٍ منخفضٍ، وفي كثير من الأحيان تفرقع فقط بأصابعها لتنادي عليه. كما أنها تأخذه معها إلى المدرسة، والمعهد اللغوي الخاص في ميدان «هيرمان بلاتس»، فينام في الفصل بجوار المدفأة، أو تحت المكتب في غرفة المدرسين، إذا كان لديها تلاميذ مسلمون. أحياناً، يحمل حقيبتها أو مجلة في فمه، وعندما يقف «فولف» على الشرفة، ويراها في الشارع عائدة إلى البيت، يعتقد على الرغم من أن المسافة بينهما كثيراً ما تكون بعيدة، بأن بينهما رابطة، وتجاوباً خفياً يحس نفسه مستبعداً منه.

الحقد على كلب.. يتجاهل الشفرة الحادة لهذا الشعور، فقط لأنه يملك نوعاً من الشاعرية. وكون ألينا، نفساً في الأصل هادئة وحالمة، قد تعوّدت بمرور السنوات على سرعة طبعه، وآفة نفاد صبره، وسماع «على الفور!» طيلة الوقت، وحتى على سرعة معدل كلامه، وكونها في كثير من الأحيان تسمع طنين هواجسه ورغباته قبل أن يتفوه بها، فإن ذلك يولد لديه إحساساً كريهاً بالتأنيب في أحيان كثيرة بما فيه الكفاية. ولكن أن يرى كيف تفيق ببطء إلى نفسها، وتسترد

توازنها من جديد.. كيف تثب إلى جانب ذلك الحيوان وتبدو أنبل وأشد قوة أيضاً في اهتمامها به، فإن ذلك يثير لديه الشكوك. مشيتها المتراخية، ومتئدة الخطى تقريباً، إذا بقي «ويستر» حيث هو، والجدية الهادئة المتيقظة التي تتبعه بها عندما يهرع إلى المتنزه، والتركيز الصامت الذي تجلس فيه على الدكة وتقرأ، بينما هو ينقب في الشجيرات– في وجود الكلب يبدو واضحاً على «ألينا» أنها تنعم بالرعاية والأمان أكثر من أي وقت آخر.

رغم أن عذره أمام نفسه، أنه لم يسبق له أن غار عليها من قبل، ولا حتى من ذوي الطلعة الجميلة من تلاميذها الذين تعطيهم دروساً خصوصية، ولكن ذلك لم يتم في واقع الأمر قبل وضعه تحت الاختبار فعلياً. بصورة غير مباشرة يبدو الآن وكأنه قد حان أوان ذلك.. يدرك ذلك حينما لم يعد يحتمل الصمت المتجانس بينها وبين الكلب ذات يوم ويصبح سافلاً للحظة. عندما تسأل «ألينا» بلهجة عرضية مفتعلة عن موضوع رغبتهما في الإنجاب، حالياً، بما أن الشقة قد أصبحت مجهزة، تبتسم في حرج وتهز رأسها. وربما يعلو وجهها الاحمرار أيضاً، حيث إن ذلك لم يكن واضحاً في ضوء المساء. كانا على وشك الانفصال لهذا السبب، وكان ذلك لا يزال ممكناً.. الآن لقد فات الأوان. وعندما

يسألها مندهشاً عما تقصده بذلك، وهي التي مازالت تحت الأربعين، لا يبدو عليها الإنصات على الإطلاق. تغرف للكلب طعامه في وعاء وتقول: «ثم إن الإنسان يحس بعدد الأفراد الذي ينبغي أن تبلغه أسرته، أليس كذلك؟ هذا شيء محسوس، ونحن ينبغي علينا أن نظل اثنين».

وبعد ذلك بقليلٍ، يصل خطاب من مؤسسة معروفة إلى صندوق البريد: إن المنحة الدراسية التي تقدمت إليها منذ ما يقرب العام قد تم قبولها، وبإمكانها أخيراً أن تكتب أطروحتها: أثر مايستر إيكهارت على أدب الرومانسية الألمانية.

ربطة عنق فولاذية.. بيوت على طرف الغابة بألوان صارخة.. نقانق لونها أبيض ذهبي على شكل لفافات حلزونية للشوي. كلما طالت مدة سكنهما بالحي، يتأكد لها ما لديه من التحفظ الخفي على الناس الذين يعلو وجوههم التجهم بصفة دائمة، والذين يطلق عليهم بسخرية ظاهرية فقط اسم السكان الأصليين. ثمة شيء يثير الانقباض، ينبعث منهم، وينم عن خطورة مستترة ولكن «فولف» ومنذ وقت طويل لم يعد يرغب في أن يذهب مذهب الصورة النمطية التي ترجع، ذلك الأمر إلى إحساس بالاضطهاد أو بفقدان الثقة بالنفس أمام الغربيين أو إلى استسلام معاند لسرعة

الزمن الجبارة التي أنتجت أسلوب حياة مختلفاً لأولئك الذين حققوا الربح بسبب مرحلة التحول، ما يعطي على أي حال انطباعاً وكأنهم لا يريدون الاحتكاك بنظام الرأسمالية بشكله الألماني الغربي من الأساس. يقومون بتعلية أسوار حدائقهم، ويرفعون من سرعة الهارلي المفعم بالكروم حتى يرتج زجاج النوافذ بفعل صوته المدوي، ثم ينطلقون مباشرة كقصف الرعد بلا توقف حتى لوس أنجلوس، بعضلات مزيتة.. يهدون زوجاتهم وبناتهم عمليات التجميل بمناسبة عيد الميلاد، ويسدون الأزقة بسيارات الجيب سوداء النوافذ، ويثبتون أعداداً لا تحصى من كاميرات المراقبة خارج بيوتهم الصفراء الفاقعة ويغطون الأسقف بقراميد بنفسجية.

الشرق الداخلي يظل رماديا.. هناك أرضي بور تفوح منها رائحة حمض ما.. حجرات انتظار الأطباء، وخاصة المتخصصين منهم، مكتظة بالمرضى، لدرجة أن بعض الناس ينتظرون وقوفاً بالدهاليز، حتى وإن لم يحتك «فولف» و«ألينا» في بادئ الأمر بهؤلاء الناس تقريباً: إن تجاربهما مع المؤجرين الأوائل الذين استدعوا المحامين وها هما لا يزالان مدينين لهم بأموال باهظة، حتى ينهيا العقد. ومضايقات المتسكعين من الشباب له، حينما يمارس رياضة الجري في المتنزه، وذلك لمجرد أنه يتريض، ولكنه يأبى أن يعترف

بذلك، والنظرات الحانقة التي تتلقاها «ألينا» في كثير من الأحيان في الترام، حينما تستعد لحصصها: «الألمانية كلغة أجنبية» أو «الألمانية للأجانب» كل ذلك يدفع بفولف إلى الاحتراس مراراً وتكراراً من أن يغذي في نفسه كراهية مريرة وشبه مستلذة، نحو الشرقيين. ولأن الأمر بهذا القدر من اليسر، فهو يدرك أنه سيكون على خطأ في هذه الحال. ومن ناحية أخرى، فإن أربعين عاماً من ديكتاتورية البروليتاريا لا تشفع لعدم إلقاء التحية.

ربطة عنق من فولاذ.. النادل بالـ «فيبر شيفشن» يرتديها، بعقدة صغيرة. على الصواني الثلاث أو الأربع الملمعة، والتي ثبتت على القماش بمسامير برشام يبرق في ضوء الشمع حينما يدخل صالة المطعم ويأخذ الكرسي من يد «فولف». لم يرتج فحسب، بل إنه معوج بصورة خطرة، والرجل يهز رأسه.. الوجه قوي العظام، والفم ضيق، والشعر ممشط إلى الخلف. «ما عليك إلا أن تعطيني خبراً وستحصل على غيره.. ليس الكل هنا يفعل ما يريد».

«فولف» يُكرِه نفسه على أن يبقى لطيفاً وهادئاً. من الواضح أن طريقة الرجل التي تنم عن تعجرف قد هدأت جمرته اليوم هي انعكاس من الماضي، عندما كان لا يزال هو السيد الآمر الناهي على الطاولات المميزة. أما الآن

فالمطعم خال، ويطلبان السمك، والكركي المتبل صيد البحيرة، و«ألينا» تطلب معه البطاطس المحمرة. النبيذ إنتاج ساكسوني، وبعد الأكل يتناولان حلوى من اللبن المعقود مع التوت الطازج القادم فعلياً من الغابة، ولكنهما يجدان خنفساء مدرعة في داخله بغطاء قشري أزرق، إلا أنها قد فقدت رجلين أثناء عملية التقليب. «فولف» يمسحها بإحدى فوط السفرة ويتركها بائنة على حافة الطبق. إلا أن النادل يتجاهل ذلك، ويلوي شفتيه بازدراء، وكأنهما تافهان تماماً كما توقع، ويسألهما عما إذا كانا يريدان القهوة، وحين يجيبان بالنفي يحضر الحساب من دون أن يطلباه.. المطعم على وشك الإغلاق، قبل التاسعة بقليل. وبقاعدة من قواعد كؤوس البيرة المصنوعة من اللباد يكشط النادل الفتات من على الطاولة المجاورة، محدثاً صوتاً، وكأنه يلوح بعصا في الهواء، و«فولف» ينقر بإصبعه على الورقة.. «مكتوب هنا طلب إضافي واحد بطاطس محمرة»، قال هو.

يضيق النادل عينيه. «وبعد؟ إنكما أكلتما بعضاً منها، أليس كذلك؟»

«فولف» يملأ صدره بالهواء، و«ألينا» تمسك بيده وتهز رأسها، صوتها يبقى هادئاً. «ولكنني طلبتها بدلا من البطاطس المملحة».

«أعلم ذلك. فلست بالأطرش».

تفتح فمها وتنظر إليه كالمأخوذة، لا يرتج عليها القول فحسب كحالها في معظم الأحيان إذا ضايقها أحد بوقاحته، بل تبدو حزينه مما يثير استفزاز النادل بوضوح. عظم فكه يرتجف. «الطبق مسجل على لائحة الطعام مع البطاطس المملحة.. بالبنط العريض. إذا أردت طبقاً جانبياً آخر، فعليك أن تدفع ثمنه إضافياً، وهذا نهائي».

«فولف» يضع المبلغ على الطاولة، من دون بقشيش.. لا يريد الآن أن يتدنى إلى مستواه بأي حال من الأحوال. «إضافياً، تلك هي الكلمة. تنطق بحروف مائلة. ولماذا إذاً لم تقدم لنا البطاطس المملحة؟»

«لأنكما أردتما المحمرة.. ما كل هذا الآن؟ ثم كيف لي أن أجد لها هي الأخرى مكاناً على الطبق».

«كلا، إنك على حق»، قال فولف وهمّ واقفاً. للحظة خطر له أن يأخذ البطاطس مغلفة، للكلب، ثم أخذ يلاحق الرجل بنظراته، إلا أنه كان يتحاشى عينيه.. يطفئ الشموع، وبينما كانا يربطان أزرار ستراتهما، تنظر «ألينا» إلى الغرفة بنجفها البلوري، والكراسي المائلة، والمدفأة المتسخة، وكأنها مكان لن تتخطاه أبداً بعد هذا اليوم. كادا يصلان إلى الباب، فعادت ألينا مرة أخرى إلى الطاولة ووضعت بعضاً

من البقشيش على فاتورة الحساب.

إن الكون في هذا الجزء من برلين، تبدو تقاسيمه أصغر مما هي عليه في الأحياء الأخرى، التي يعرفانها. قد لا يلفت ذلك النظر، ويصبح الأمر أكثر وضوحاً إذا ما قُرن بقلة وجود طبقة مفكرة، ليس فقط بالمعنى الفكري بل وأيضاً الروحي. الطبقة المفكرة قد جفت دماؤها على مدار عشرات السنين في الجزء الشرقي من المدينة. مخرج الموضة البائس، ذو السترة الجلدية، يصنع أفلاماً مرحة حول الجمهورية الألمانية الديمقراطية، وضباط المراقبة والسجن الذين كانوا على قدر من الغباء، ولكنهم في حنايا صدورهم لطفاء.. الشاعر الذي يلبس في إحدى أذنيه قرطاً، والذي يكتب أبياتاً معاصرة حسب الطلب، يقرأها في ضوء الكاميرات من على شاشة الحاسوب المحمول، وبائع السجائر القصصي ينشر مؤلفاته- «الآن أنا من يتكلم!»- عن ذكريات الدولة المنهارة، التي لم يكن كل شيء فيها سيئاً، والرسامة المائية تطلق على نفسها لقب فنانة بدرجة جامعية وتبيع «صورا متذبذبة» بين السمك والعسل بالسوق الأسبوعي- هذه هي البوهيمية. والسياسيون المحليون الذين لا يظهرون عموماً سوى وقت المعركة الانتخابية، حيث يقفون لمدة ساعة واحدة خلف منصة الخطابة الكرتونية الممتلئة بأكوام من المنشورات يتأسفون كل

الأسف على أن الأجانب، وعلى رأسهم الملونون لا يأتون إلى كوبينيك الجميلة، وأن الحزب الوطني الديمقراطي قد اتخذ له مركزاً على مقربة كبيرة، ولكن ما الحيلة، فإننا دولة حرة.

في جميع مجالات الحياة، يبدو دائماً وكأن كل شيء يدور حول الماديات. فحتى الكنيسة يتم التخطيط بشأن ما قد وصلها من تبرعات و استخداماتها قبل أن يبدأ القداس. البيت الذي يقع على الناصية، عبارة عن فيلا آيلة للسقوط، حيث تتدلى شجيرات البتولا النابتة من على سطحها.. قد تتسع على الأقل لثلاث عائلات.. الأعمدة بالرواق المعمد عند المدخل مائلة، وعلى الرغم من أن هناك ستائر مسدلة خلف النوافذ العالية في الطابق الأرضي إلا أنها في أغلب الظن مجرد خدعة.. الغرف خاوية. فقط في طابق القبو يضاء النور بين فترة وأخرى.. مصباح أرضي ذو مظلة مصفرة، وعندئذ يمكن رؤية أريكة قديمة وجبال من الكتب، والروايات الصغيرة، والصحف على الأرضية. القطط الصغيرة تلهو من حولها، وبين الفينة والفينة تتوهج شعلة سيجارة في الركن الخلفي من الغرفة، الذي لا يزال مظلماً.

ساكن البيت، رجل سمين وكثيف الشعر، يبلغ من العمر نحو ستين عاماً.. نادراً ما تراه من دون حقيبة القماش المعتادة هنا، والتي تتخبط في أغلب الأحيان في داخلها الزجاجات

الفارغة. وعلى الرغم من أنه لا يلقي السلام أو يرده أبداً، بل يأخذ الجانب الآخر من الشارع إذا رآهما قادمين نحوه، إلا أن «فولف» يكن له مودة منذ النظرة الأولى. يبدو أنه لا يعمل، ولا يشاهد التلفزيون، ولا يستقبل الزوار. ولأنه في الغالب يرتدي قمصان الجيش الباهتة فإن الناس تطلق عليه اسم الرجل الأخضر.. فيه شيء من المخلوقات الفضائية في مغارته الآيلة للسقوط.. هذا المتقشف الأبكم يقطن في حي ممتلئ بمجنوني الفرشاة والمعجون من مدخري السكن الذين يمنعون الزمن كل فرصة وفرصة لترك بصماته على الأشياء.

أغلب الظن أنه ليس مالك البيت، فتصرفاته ينقصها ضيق العقل المتلبد بركام التردد والقلق.. حريته تبدو وكأنها من نوع لا يحتاج إلى مكان، ونظرته التي تحمل في طياتها دوماً شيئاً من المتعة، تذكر بأن النكتة تأتي من وراء حكمة. ولكن ربما كانوا مخطئين، ربما هو مجرد ساذج بكل بساطة، أو ساكن شحيح تصبر عليه الإدارة وتضنيه العفونة؟ أو واحد لم يرغب أبداً في التحول، ولا يكن للغربيين ونمط حياتهم سوى الاحتقار؟ على كل حال إنها ليلة زيارة المطعم، التي تود فيها «ألينا» بأعصابها المحطمة أن تتعرف على حقيقة الأمر، حيث إنها كالمعتاد قد ألقت السلام على الرجل الذي يصلح شيئاً بدراجته، وكالمعتاد لم تنل منه أي رد. ولم يرفع

حتى بصره إليها من تحت شجرة الكرز، وإذا بهما قد وصلا إلى السلم القصير المؤدي إلى بابهما حتى تستدير «ألينا» مرة أخرى وتعبر الشارع، تخطو إلى خارج السور. «معذرة من فضلك!»، تقول وتبتسم بما يكفي لكي لا تبدو متملقة. «أتسمح لي بأن أطرح عليك سؤالا؟ لماذا لا تلقي عليّ التحية أبداً؟»

ينتصب الرجل الأخضر ببطء تاركاً عمله. «أنا؟ لماذا؟» يثير دهشتها بصوته، في الوقت الذي كانت أجفانه ترفرف، وكأنما دخل شيء داخلها.. يخرج منديلاً من جيب بنطاله ليدسه في الآخر. حتى إنك تكاد ترثي لحاله ولابتسامته المائلة، وهو يهرش قفاه. بيد أن «ألينا» تظل واقفة.. تنظر إليه في هدوء، بعدما بدا للحظة وكأنه يبحث عن إجابة، بينما تتحول نظرته إلى حد ما إلى حملقة.. تمتد ذراعه فجأة ويشير بالمفك نحو «فولف» الذي يقف عند الباب المفتوح.. سن المفك يرتجف. «أهذا الذي هناك... زوجك؟.». يأخذ نفساً عميقا.. يتقوس صدره إلى الأمام. «هو أيضاً لا يلقي عليّ التحية أبدا!» ويأخذ دراجته ويختفي إلى داخل البيت.

-3-

لا يزدهر إلا الزائل

«عندما أقتل».. يقول الجندي الأمريكي الشاب في التلفزيون، ويرفع سلاحه بيديه الاثنتين أمام الكاميرا، «عندما أضغط على الزناد وأصيب وأرى هؤلاء الخنازير وهم يسقطون على الأرض، أشعر بأنني ذو سلطان كالإله». من خلفه تهيم غيوم الغبار في سماء الصحراء، وحطام الطائرات ينفث الدخان، ومدافع الدبابات التي قد أصبحت أثراً بعد عين تعلو إلى السماء، التي تبدو زرقتها وكأنها قد بهتت دهشة لمدى الغطرسة التي يبلغها قلب مقفر. ولأن الله لا يشعر بالسلطان، سيدي الرئيس، فالسلطة والعجز ليس من شأنهما أن يعنيا المطلق النهائي الوحيد شيئاً. ولكنك لن تدرك ذلك إلا في وقت لاحق، لعله في اللحظة الأخيرة، عندما تتعرض مرة أخرى لنظرة القتلى. وحتى ذلك الحين فاخرس.. ليس بإمكانك في أي حال من الأحوال أن تطلب منهم العفو، لم يعد هناك جدوى ولو لكلمة واحدة معهم، ولكنك على الأقل تستطيع أن تشاركهم الصمت.. أطفئ الكاميرا.

تزداد الظلال كثافة على النقش النافر للذكرى.. الذروات

العليا لم يعد الضوء مسلطاً عليها. متى كانت المرة الأولى التي قام فيها بخداع «ألينا» أوبخيانتها؟ كلمات بعيدة عن أن تكون صحيحة، لأنه ما من واحدة من تلك الخيانات- إن شئت أن تسميها كذلك- قد غيرت من مشاعره نحو «ألينا» شيئاً. حتى وإن كان يعتقد بأنها تقوم بالتفريق، إذا سأل قلبه أو أياً كان عن اسم عضو الصدق، فإنه كان مخلصاً لها منذ اللحظة الأولى، ولكنه إذا استنطق جسده فسيختلف الأمر.

ما لا جدال فيه هو: أنه عندما كانا يسكنان في شقتين منفصلتين وكان لكل منهما نطاق أوسع من الحرية الذاتية كان ميله نحوها محصوراً أكثر، وكذلك الأمر على الصعيد الجنسي. أن تلفت نظره إحداهن أو أن يتصور الأكثر امتلاء من النساء أو الأكثر رشاقة، أثناء ممارسة العاده السرية أو أن يتردد على بيوت الدعارة من حين للآخر، فإن ذلك لا يعني عنده حقا الخيانة: فعلة سرية من وحي البدر أو بدافع من الهرمونات، يعود بعدها إليها- رغم إنهاك كل قواه- أكثر قوة مما كان، ويجدها أكثر جاذبية في عينيه، عما كانت قبل ذلك. إن هذا هو أيضاً عزاؤه، إذا ما راودته وساوس القلق مرة. حيث إنها وحتى الآن كانت دائماً تبتهج بطاقته المتجددة وفن حركته بالفراش، من غير تحفظ. فالتانغو لا يكتمل إلا بخطوة خاطئة.

هو متأخر بعض الشيء.. أعمال صيانة في الخط الحديدي للترام، لذلك فإنه يعلم أن شارلوتيه ستتأخر عنه. لن تضيع على نفسها استعراض الوصول، ولا مشكلة في ذلك. المدير ذو بذلة بصفين من الأزرار، يفتح لها الباب الزجاجي الداخلي عندما تدخل مقهى «آينشتاين». تجود عليه بابتسامة، وتومئ بتحية للسيدات خلف طاولة المشروبات، وكذلك لرجل يقرأ الجريدة في الركن. ومع أنه لم يمض وقت طويل على وصولها إلى المدينة، إلّا أنها على ما يبدو قد أصبحت زبونة دائمة.. النادل ذو تسريحة ذيل الحصان يضرب أحد عقبيه في الآخر ويقول بلهجة فنية وصوت متراخ: «أقبل الأيادي، يا أستاذة!»

تبسم إليه هو الآخر، وتتقدم من الطاولة الرخامية التي يجلس عليها «فولف». شعرها حديث التلوين حيث يبدو أكثر كثافة عما هو في الأصل كما أنها ترتدي «بلوفر» بياقة وردية اللون وبذلة من بنطلونٍ مع سترة تبرز تفاصيل الجسد، ولا تلقي عليه السلام في بادئ الأمر. بذقن مرفوعة تتفقد بعينيها المكان ومراياه، ثم تشير بحافظة مستنداتها السميكة التي ذابت حوافها من كثرة الاستهلاك إلى الركن. «لنذهب إلى هناك، على الأريكة.. هنا نجلس في تيار الهواء». الطاولة أكبر ومتوارية إلى حد ما وراء البيانو الكبير، وشارلوتيه

تضع لافتة «محجوز» والمنفضة على أصابع البيانو. ما زالت تستخدم عطرها الكلاسيكي نفسه كما كانت تفعل قبل خمسة عشر عاماً.

«أنت لديك كلب؟»، قالت ذلك ومدت ظاهر كفها إلى «ويستر» الذي يهز ذيله ويتشمم كمها. « وواحد أيضاً بهذا الجمال. هل يحصل عندك على شيء من الطعام؟» اصطحبه «فولف» معه، لتكون الرحلة إلى وسط المدينة بمنأى عن كل ما يثير الشبهات. فمهما كان ما سيحدث في تلك الليلة، في النهاية لن يكون سوى نزهة مع ويستر، والحزام يحمله ملفوفاً في الحقيبة. تمسك شارلوتيه بأصابع يده وتتطلع إليه قليلاً.. لمحة خاطفة من شعر الرأس حتى القدمين. الترفع الهجومي لقامتها المنتصبة قد ازداد حدة، ونظرتها الصافية، المبتهجة من شدة رغبتها في الهجوم، هي ما يذكره بأنه كان دائماً يعتقد أن عينيها زرقاوان، ولكنهما عسليتان.

حينما يتعانقان، يعتقد أنه يرى في انطوائها بين ذراعيه بصيص وعد.. قوامها، خفيف ومتماسك معاً.. لم يتغير، ولا بمثقال ذرة. الخصر نحيل، والبطن مستوية، ومؤخرتها بارزة بما يكفي، لأن تثير الانتباه ولا يمكن أن توصف بالبدينة. وبينما هما يتباعدان، تمسح بطرف إبهامها على عضلة ذراعه القابضة كالساهية اللاهية تحت الصوف الثقيل. ولعلها قد

أحست بأكثر من ذلك عند خاصرتيها. في تعبير وجهها شيء متسامح بشكل ما.. ابتسامة تحمل بين جوانحها معنى «فيما بعد!» ولكن قبل ذلك ها هي تشعر بالجوع، و ترغب أولاً في التحدث وطبعاً في كأس من النبيذ.

ولكنهما عندما يجلسان على الأريكة المنجدة في الزاوية تتلاشى عزة نفسها، وسط خوف صبياني. وحتى صوتها يصبح أكثر انخفاضاً، بل همساً مبحوحاً. «يا لله كم تعجلت!»، تقول ثم تضع ظهر أصابع كفيها على وجنتيها، وكأنها تحاول إخفاء توهجهما عنه. ولكنها غالباً تود أن تهون من نظرته الأولى، وألّا تبوح له بالسنوات المنقضية في اللحظة التي يشعل فيها النادل الشمعة.

ذلك لأنها أصبح فيها شيء من الشيخوخة، بغض النظر عن رشاقة حركتها ومشيتها وعن أناقة ملابسها، على الرغم من الماكياج المتقن. الرقبة المعروقة، والبشرة الذابلة تحت العينين، والشعر الخفيف– بينما يدفع فولف كلبه المطيع إلى تحت الأريكة– تكشف له من زوايا الجفنين عن أنها تبدو بلا ريب أكثر منه تقدماً في السن. يظنه الناس في أغلب الأحيان أصغر سناً، فهو لا يعاني من زيادة في الوزن، وبشرته ملساء، والشعيرات الفضية التي تنبت لديه في بعض الأماكن تسقط دائماً، لطفاً من الله به مفسحة المكان لأخرى داكنة، لكن

شارلوتيه التي يبدو أثر أحمر شفتيها على كأس النبيذ، أكثر توثباً من شفتيها ذاتهما، قد تكون على مشارف الستين.. بأناقة طبعاً، ما يذعره برهة في أول الأمر. بيد أن بريق التجربة التي يعتقد أنه يبدو عليها يثيره بعد ذلك أكثر مما كان سيفعله أي شاب.. يختلس النظر إلى الساعة.

غالباً غير مدركة لما يراوده من أفكارٍ تحكي له عن عملها والكم الهائل من الأعمال التي تثقل عاتقها يومياً.. كافة الهيئات الألمانية والنمساوية والسويسرية التي ترأسها، كافة المشاريع العلمية التي تشرف عليها، التقارير التي تكتبها، والمحادثات التي تقوم بها.. وكل ذلك بالإضافة إلى الارتباطات الجامعية المنتظمة، والمحاضرات، والحلقات الدراسية، ورسائل الدكتوراة: عما قريب ستصبح في أمس الحاجة إلى الاستجمام والراحة. فقد نقلت إلى المستشفى ثلاث مرات خلال الفترة الأخيرة.. نوراستينيا، انهيار دموي، وانسداد في الأمعاء. «في إحدى المرات كانوا قد أدخلوني بسريري إلى مخزن الملابس، وعندما استيقظت في الغرفة المرصعة بالبلاط، دخلت عليّ إحدى الممرضات وقالت في ذهول: «يا إلهي، لقد ظننتك ميتة!» .أورز، رفيقها منذ اثنتي عشرة سنة الآن، بازلي يدرس الفيزياء في الجامعة ولم، لم يعد يزورها تقريباً لأنها لا تتحرك أبداً من أمام

الكمبيوتر. ومارك، عشيقها الآخر، موظف في وزارة النقل، لديه زوجة، وطفلان، ويشكو دوماً من أنها ليس لديها الوقت للجنس إلا في أيام الأحد، ساعة واحدة في المساء.

«ما معنى انسداد الأمعاء؟».. يسأل «فولف»، الذي أضنته معدته في الفترة الأخيرة، بصفة متزايدة، والذي يغضب من شدة تنبهه فور بدء الحديث عن الأمراض. فهو إذا قال أحدهم فرحة يسمع قرحة، وإذا كتب أحدهم كرم يقرأ ورم. يبدو ذلك له وكأنه ثؤلول شيخوخة نفسي. «ما الذي يحدث عند ذاك؟»

يحضر النادل لشارلوتيه طبقاً من السلطة، وهي تسحب بأسنانها، حديثة التركيب- عمل لا يكاد يلحظه مخلوق- قطعة دجاج من السيخ. «آه!»، ترد وهي تمضغ. «إنك تصير منتفخاً كالطبلة.. لا تستطيع أن تتبرز وعلى الرغم من ذلك تفوح منك رائحة كرائحة المرحاض».

هو لا يأكل شيئاً.. فقط يشرب الماء والقهوة، وبينما تطلب لنفسها كأسا أخرى من النبيذ، وتستمر في الحديث عن حياتها خلال الفترة الأخيرة، لا يصغي إلى ما تحكيه بقدر ما يصل مسمعه صوتها.. الألوان في نغمته، وصدى السنين. ومع أنه يعلم حقيقة ما في الأمر، فإنه يروق له الإقرار بأن مجرد سنهما المشترك وتجربتهما المتقاربة كفيلان

بأن يوجدا نوعاً من السعادة بينه وبين شارلوتيه. هو ليس له أصدقاء.. ليس بالفعل، على الرغم من أنه قد يسمي بعض الناس أو الزملاء على سمعها. فهو من كثرة انشغاله بنفسه وبعمله ينقصه الوقت للحفاظ على الصداقات، وهو ما لا يفهمه أحد، ولا حتى أكثر الناس صبراً. عاجلاً أم آجلاً، تصله خطابات مفعمة في نبراتٍ لا تخلو من معنى، أو مكالمة الهاتف اللاذعة. ورغم ذلك ما زال يشتاق إلى الانسجام، الذي لن يكون مجرد عذرٍ لمحفل شرب، والذي هما فيه الآن، بينما تدس له شارلوتيه، قطعة خبز بالزبدة في فمه بطريقة عابرة، فيقتربان بهوادة.

يحس بالسكينة والاستقرار على الأريكة المخملية، ويود لو أنه لا يقول شيئاً.. لو يظل فقط يداعب أصابعها، يدها التي كان يذكر أنها أكثر نعومة، والتي هي كبيرة بعض الشيء على قضيبه. بيد أنها ليست المرأة التي يمكن الصمت معها، فعلى طريقتها المادية كلياً، والتي تبدو عقلانيه لأنها مشمولة بالثقافة، يعد الصمت أمامها عجزاً، بل دليلاً على فقدان الحيوية، وبداية الملل. صحيح أن ثمة معاني جوهرية تتجلى من خلال الصمت، ولكنها ستستهين بذلك على اعتبار أنه شاعري على أحسن تقدير، أو صوفي غامض على أسوأ الفروض.. من يصمت، ليس لديه ما يقوله، وبالتالي فهو

ليس بذي أهمية.

لذلك نجده يطرح عليها الأسئلة بين الحين والآخر ويحاول أن يبقى منتبهاً، حتى ولو أن كل ما تحكيه تظهر عليه أهمية متعبة: شهادة الأستاذية حصلت عليها في وقتٍ قياسي، فما كانت هناك سوى امرأة واحدة قبلها أسرع منها، وعلى حلقاتها الدراسية يتوافد أغلب الطلاب، وكذلك المحاضرات التي تلقيها في الشركات دائماً مكتظة بالحاضرين. بالتأكيد يفوق إجمالي الدعم المالي الذي حصلت عليه بشق النفس كل ما جاء قبلها.. صديقها بلا جدال هو أهم جهابذة العلماء في بازل على الإطلاق فيما يتعلق بفيزياء الجسيمات، وبطبيعة الحال يحاول المدير الشهير لإحدى المحطات التلفزيونية، والذي تعد له تقرير خبير، إغراءها بكافة الطرق.«ومن جهة العرض فأنت دائماً جاهزة»، قد قال لها في أول لقاء توجيهي.

إمكانية كشفه لمثل هذه التفاخرات، تعكر صفو متعته لمشاهدة صورتها على المرآة المقابلة، لرؤية كبر السن الذي يختبئ بداخل ملابس غير رخيصة، تليق بها، حتى ولو أن «فولف» أغلب الظن ما زال يفتقد ذلك الصدق الداخلي. ولكن أن تستعرض شارلوتيه نفسها بهذا القدر من الطفولية، فإن ذلك قد يكون بمثابة ردة فعل مبالغ فيها، علما أنهما في

نهاية الأمر، ليس لديهما الكثير لإطلاع بعضهما بعضاً عليه فما بينهما لا يتعدى حدود اللغة العارية للأجسام.. جمل طويلة، وجيدة التركيب، تكاد تنطق بالأنفاس فقط. بيد أنها لا ترغب في الاعتراف بذلك بينها وبين نفسها.. ليس بعد. حتى سيدة العلم لديها تخطيط للحب.. حقا إنه متوارٍ خلف ستار، إلا أن ذلك لا يجعله أقل ولعاً، وذلك عائد إلى درجات ألوان الباستيل الواردة في المجلات النسائية، ورائحة النغم الحالم التي تفوح من ملحقات العطور.

تطعم «ويبستر» قطعة صغيرة من اللحم، وتتركه يلعق أصابعها كثيراً، ونظراتها في المرآة العارضة في ظاهرها، والتي يزيد طولها على الحد برمشة عين، تخبر «فولف» بما سيكتمل به ما تبقى من الأمسية. إلا أنهما ما زالا أولاً في حاجة إلى كأس ثالثة من النبيذ وفي ما بعد إلى كوب من الجن. في ما بين هذا وذاك تسأله عن عمله.. عن كتبه، وتعترف بأنها أكثر من مرة قد أحست بالفخر الشديد عندما قرأت عنه شيئاً في الصحف أو سمعت عنه بالإذاعة. ليست هذه مجرد حيلة كي ترى ما إذا كان في ردة فعله غرور.. كادت تجرح نفسها بسيخ الدجاج. فكما أنها لا تزال ترغب في أن يفتخر بها والداها المسنان وأخواتها، فإنها بحاجة أيضاً إلى أن تفتخر بمن تتعامل معهم، إن هذا هو سبب شجنها. إلا

أنه ولأن كل رؤية ينطوي عليها نص يكتبه وكل نص يتركه بعد الطباعة يذهب أدراج الرياح، فإنه يجد نفسه واقفاً أمام اللاشيء.. أمام بداية جديدة عند نقطة الصفر، إذ إنه ليس من الممكن أن يكون هناك افتخار بشيء قد تم إتمامه. فعلى تكاسله سوف يعني ذلك أيضاً توقفه. إلا أنها تدعي أنه حتماً ناجح، وعندما يشير بالنفي، ويذكر طبعاته التي لا تذكر فلا يبدو عليها الاستماع، تبتسم لأحد معارفها والذي يدخل المطعم في الوقت نفسه.. جامع تحف تزعم أنه قد رمقها بعين الإعجاب والرغبة فيما سبق. بصفة عامة تتهلل أساريرها كثيراً في تلك الليلة.. تعري أسنانها، حتى عندما يقوم النادل بمجرد إحضار شفاطة، أو عندما يمر بائع الورود على طاولتهما.. توزع ابتسامتها كالقراطيس الصغيرة المليئة بالورود، إلا أن ذلك يجعل عينيها تبدوان ناعستين ويجعلها تبدو تائهة أكثر فأكثر، خاصة وأنها لم تكتفي بالجن.

وعندما تضع إحدى اليدين على فخذه ويمس إصبعها الأصغر سهواً، كما تتظاهر في المنطقة التي يحجبها قرص المائدة بظلاله، يحس «فولف» فجأة بصدره يضيق عليه من جراء توقعات يتهمها بها، وتطوي بين جوانحها أكثر من مجرد السرير وخيالاته.. لعله مخطئ في ذلك، ولكن لهجة التحسس في أسئلتها عن خططه.. عن الكتابة والحياة اليومية

ووضعية السكن مع «ألينا»، التي تزعم أنها معجبة بها، لأنها لا تزال قادرة على العيش معه بعد مرور كل هذه المدة– تود حتى أن تعرف كم مرة يناما
 مع بعضهما– تبعث في نفسه أثراً لمحاولة جس النبض، دقاً خافتاً لفحص إمكاناتها في ما بعد هذه الليلة، التي يعد استسلامها له فيها بمثابة الهدية أو الاستثمار. وعندما يلهيها عن نفسها، ويدفعها إلى الحديث عن حياتها.. عن علاقاتها من جديد، ما تلبث أن تقول أيضاً: «بطبيعة الحال فإنني أستمتع بأن يكون لي عشيقان، بل وفوق ذلك أيضاً على هذا القدر من الجاذبية، ولكن ذلك ليس بضمان».

مكعبات الثلج في مشروبها، تتخبط في أسنانها.. الآن تتوهج وجنتاها بالفعل، وكلما ازدادت معاناة ماكياجها، يجدها «فولف» أكثر إثارة. بمرور الوقت يقل إنصاته إليها. وبصفته حالماً مزمناً فقد أصبح متقناً للتصنع بالانتباه ولإعطاء إجابات إلى حد ما صحيحة عن أسئلة لم يفهمها من الأساس أو خمن مضمونها فقط من نبرة الصوت، لكن مثلما الأغنية وهو على مشارف الخمسين فما زالت أهم عنده من كل كتاب جيد في ظاهره، بل وإنها لمن ضروريات الحياة، ومثلما تحميه أغنية لـ «بيث جيبونز» أو لفريق الـ «بيبي شامبلز» من غموضه الذاتي لأسابيع طويلة، من دون أن يفهم منها كلمة،

فإن ذلك وحده مع صوت المرأة التي يشتهيها وما يسترقه منها سمعه من وراء حدود الحديث، يزيده قوة ويتطلع إلى إجابة صامتة، أو في أحسن الأحوال هامسة، أو بأوامر بذيئة.

في وقت ما، تذهب إلى دورة المياه وتعود مزينة بماكياجها وقد تم إصلاحه، فيريد أن يمد يده إلى معطفه، وإذا بها تذهب نحو طاولة ذلك المعرفة.. رجل سمين أصلع الرأس، لتناقش معه شيئاً. مستندة بساعديها على ظهر كرسي.. تبرز مؤخرتها، التي يلمع عليها قماش البنطلون بعض الشيء، ظاهرة متجلية لجميع الزبائن في المطعم، وتترك «فولف» جالسا بمفرده في الركن ما يقرب من ربع الساعة. في شيء من الاستياء يلوح «فولف» بيده للنادل، ويدفع الحساب، ويطلب منه وعاء الماء المطلي بالكروم والخاص بالكلب من تحت البيانو. إنها تثقل عليه بمثل هذه الفظاظة، وهو يجد ذلك رخيصاً، وحينما ترتمي شارلوتيه مرة أخرى على الأريكة تغيب هالة جاذبيتها للحظة. التفكير يبدو عليها، والمرارة بادية على وجهها وهي تكتب شيئاً على هاتفها البلاك بيري تجعله قرابة المذكرة، أعزب ضيق الشفتين يعلو سيماه الغرور. إلا أنها بعد ذلك تفرد ظهرها، وتحبك البلوفر من عند صدرها، وتقول وعيناها تشعان بالبهجة: «بالامس اشتريت لنفسي رغيف خبز كان اسمه قشر العزاب!»

سيارتها واقفة بميدان «نوليندورف بلاتس»، وفي طريقهما إلى هناك، يمران بالعديد من النساء اللاتي يرتدين الجونيلات القصيرة أو الهوت شورت، وينتظرن على طرف الرصيف على مسافات متماثلة بصورة مذهلة. البوت الطويل الملمع يبرق في ضوء السيارات، بلاطات الممشى تتلألأ كالمرمر، دخان السجائر يتموج في الهواء الدافئ فيزرق لونه، و«فولف» يلف ذراعه حول كتفي شارلوتيه. وعلى الرغم من أنها أقصر منه بعض الشيء إلا أنها طويلة بالنسبة إليه وواسعة الخطى عنه بكعبها العالي، كما أنها أكثر تأرجحاً، بحيث تأبى مشيتهما- وكأنهما يسيران على أرض وعرة- أن تتحد. بل وتبدو نوعاً ما مثيرة للسخرية على ظلال الحوريات ذوات الأسعار الرخيصة، واللاتي يتبعنهما بأنظارهن في حركة متثاقلة، وفولف يتركها من جديد. ولكنه يمسك بيدها، وعندما يضطران إلى الانتظار عند إشارة حمراء، تلتف هي إليه.. الكلب يختفي وسط الشجيرات.

من الواضح أن الهواء قد أنعشها، فنظرتها صافية وتشع ذكاء، كما كانت من قبل، وعندما يجذبها إليه، ترفع ذقنها بطريقة استفزازية وتضيق عينيها كالمرأة التي تعرف جيداً أن قبلاتها مشهيات لا توزع هنا وهناك، ولكن لأن رائحة الجن تفوح منها فهو لا يريد أن يأخذ ذلك مأخذ الجد. الترام

المشع بالنور يصلصل على الممر المعدني في ضوء القمر.. يعضها بحذر في عنقها، ويشد ذراعها حوله.. ذلك الخصر الذي تفوق نحالته كل وصف، محور انطوائها في أحضانه. صحيح أنها تتركه ينتظر للحظة، بينما تبتسم في سخرية، إلا أنها عندما لا تستطيع أن تنحني إلى الخلف أكثر من ذلك ويلصق هو صدره على صدرها تكون هي من يتلهث وراء فمه، بطيئاً، بشوق طاغ.. مسدلاً الجفنين، يتأوه على غير رغبته ويدس يده في شعرها في ذلك الالتحام الدافق، الذي يبدو وكأنه يخفف عنه شيئاً من جاذبية ثقله ويمنحه شعوراً بالسعادة كذلك النفس العميق بعد الموت في الحلم: وكأنه يشبع رغبته بذاته. في هدوء تستكشف شارلوتيه فمه بلسانها، وبرقة فائقة تضع إحدى يديها على قضيبه، ثم يحشر الكلب نفسه بينهما، وهي تنظر في الساعة.

لا يستطيعان الذهاب لبيتها، حيث يتم تجديده. تقيم حالياً في بيت عميد الكلية، في شقة الضيوف، والجدار غير سميك. سيترك ذلك انطباعاً سيئاً، إذا قامت الأستاذة الجديدة بـ... ومن ثم يعبران الميدان بشكل مائل إلى الـ «زاكسنهوف»، فندق قديم بجوار «الميتروبول»، حيث يجلس مناوب الليل وحيداً في غرفة الإفطار المليئة بأشجار المطاط، محملقاً في التلفزيون.. يتفحصهما قليلاً عندما يذهب وراء مكتب

الاستقبال، رجل عظيم البنية بوجه ممتقع اللون كصاحب المطعم الذي يحرق السجائر الواحدة تلو الأخرى. ليس ذلك بجديد عليه، ولأن «فولف» يمشق قامته على نحو مبالغ فيه بعض الشيء ويستبقي في لهجته ذرة هدوء زائدة، ترتسم على وجه الرجل ابتسامة غير ملحوظة تقريباً.. غرفة لهذه الليلة. وعلى الرغم من أن كافة المفاتيح لا تزال معلقة على رفوفها إلا أنه يميل نحو كشفه، ويقلب الصفحات، ويمحو، ويتبدى وكأن المسألة غاية في التعقيد.. لا تحل تقريباً. ولأنه يشعر بأنهما مستعجلان يترك لنفسه الوقت. «ويستر» يتمدد على عتبة الباب، وشارلوتيه تتفحص غصناً طويلاً لنخلة في أصيص بين أصابعها، وأخيراً.. يومئ الرجل برأسه، ويضع أمامهم ثلاثة مفاتيح، ويقول: «حسناً، لدينا هنا غرفة بسريرين ومن دون بانيو، وبدش على الممر. ثم توجد أخرى بسرير فرنسي وجاكوزي، ولكن وصلة الإنترنت لا تعمل في الوقت الحالي، وغرفة أخرى بسرير مائي، إلا أن عرضه متر وأربعين سنتيمتراً فقط. إذا أردتما يمكنكما إلقاء نظرة عليه. إنه مريح بدرجة غير اعتيادية أثناء النوم، ولكن يجب تسخينه لمدة ساعة مقدماً. آه،..». يضع مفتاحاً رابعاً على المكتب أمامهما، «وهناك أيضاً غرفة في الطابق الأول بسرير عادي لشخصين وحمام، إذا كان لا يزعجكما إنها مطلة

على الفناء الداخلي».

يشير إلى الباب الزجاجي في الخلف، والصناديق الممتلئة بالقمامة. «كلا»، يقول «فولف» الذي يجذب إليه لوحة استمارات التسجيل. «سنأخذ هذه»، فقضيبه المنتصب والحبيس بصورة ما، يؤلمه، وهو فضلاً عن ذلك لا يعلم ما إذا كان من المفترض أن يضحك أم أن يثور غضباً، لأن حديث الرجل يمر إلى جنبه قيد شعرة منذ البداية، وحتى الآن يقول بنظرة إلى شارلوتيه: «ولكن لا يوجد فيها تلفزيون».

إلا أنها تنفض لـ«فولف» شعرة كانت على ياقة جاكيته، وترسل بصرها بالخارج إلى ميدان «نوليندورف بلاتس»، وتجيب في ثقة عارضة: «ونحن أيضاً لن نكون في حاجة إليه».

ينشرح صدره لهذه الإجابة، ويشعر بالعبء وقد خف عن كاهله وبأنه أقل عراء في هيجانه. هذه المرأة الرائعة ستمتعه بعد قليل، بينما يتمصمص المتعب هذا أعقاب سجائره. ورغم كل ذلك، يتصبب منه العرق، ولا يكاد يصدق أنه وسط هذا المشهد اليومي، الذي رآه تماماً على هذا النحو أو بما يقربه في آلاف الأفلام- العشيقان في السر، المستعدان للخيانة، يسجلان في الفندق- تصيبه رعشة، غير محسوسة تقريباً في بادئ الأمر، ولعلها أوهام. إلا أنه عندما ينظر كل من

شارلوتيه والموظف معه إلى الورقة التي لا ينقصها إلا توقيعه تصير الرعشة واضحة، ويشعر بلونه يصفر من شدة الحرج.. إنه خوف سريع وفجائي.. رعشة خافتة في اليد، قبل أن تستقر البلية الضئيلة في سن القلم على الورقة، وأخرى عندما تلمسها، بحيث يصير أول حرف مهزوزاً مطموساً، وهي في تصوره لا تعني هذه اللحظة فحسب. مثل بارقة النور هذه التي تظهر على بعض أجهزة الـ USB للحظة بسيطة، والتي يحفظ بعدها كتاب سميك يضم بضع مئات من الصفحات، تبدو وكأنها تضغط الماضي بأكمله، وحتى لو أن شارلوتيه ستقول لاحقاً إنها لم تلحظ ذلك على وجه الإطلاق، إلا أن الأمر عكس ذلك تماماً فقد بدا لها راسخ القدم بما يفوق كل وصف. من ناحية، فإن تلك الرعشة لتهز المظهر الذي قد أراد أن يوحي به من رجولة ذات سؤدد، في ما بعد تنكسر له نفسه حينما يتردد صدى صرخاتها في الفناء. ومن ناحية أخرى فإنها تبين له أن الأمر هنا لهو أكثر من مجرد خيانة لأسباب جنسية، كما كان يحدث بين وقت وآخر. كأن دفعة إمضائه أيضاً مهزوزة لأن ثمة شعرة من شعر رأس «ألينا» قد كانت على الورقة.

وبعد منتصف الليل بوقتٍ طويل، يعود إلى الشقة، ولكنها لم تخلد إلى النوم بعد. بكأس النبيذ في يدها تجلس مرتدية

الجينز والتي شيرت على السرير.. الكتب والمخطوطات الممزقة أو المكرمشة والمستندات المصورة متناثرة على الأرض في كل مكان. تحملق ببصرها إلى الأمام بلا حراك.. عيناها محمرتان، و«ويبستر» يستلقي على الفراش إلى جانبها من دون أن تنحيه عن الغطاء كعادتها. تدعك له رقبته، وتمسح وجهها في فرائه، وتنتف من بين شعر ساقه قراضاً، وعندما ترفع نظرها إليه تكون مغرورقتين بالدموع ثانية. لأنه لم يغتسل، وغالباً ما تفوح منه رائحة ما قد حدث بغرفة الفندق يظل «فولف» واقفاً في الباب، مقطّب الحاجبين. «كل هذا البراز العلمي»، تقول بالنظر إلى الكتب. « لا يحتوى سوى على خرافات ميتة. وما أكتبه ليس بالأفضل. أعتقد أنني لست ذات موهبة على الإطلاق، بأي شيء أبداً.. إن موهبتي الوحيدة تتمثل في حبي لك».

في بيت قرميدي تم تشييده بعد انتقالهما إلى الحي بفترة وجيزة على الجانب الآخر من الشارع، تعيش إحدى الأسر القليلة بالجوار والتي ليست لديها أطفال: رجل أصلع الرأس وطويل القامة وذو شاربين شركسيين وزوجته القصيرة التي جدلت شعرها الأشقر في ضفيرة سميكة تصل إلى خاصرتها تقريباً. تقع الشقة على مستوى ارتفاعهما نفسه، والزوجان اللذان قد يكونان في أوائل الأربعينات لا يكتفيان بالإيماء

لهما برأسيهما كلما أطلا من الشرفة الشمالية فحسب. فالزوجة بمجرد أن تلمح وراء اللوح الزجاجي ظلاً تلوح بيدها رافعة إحدى ذراعيها لأعلى ما تستطيع ومطوحة إياها يمينا ويساراً، حيث تبرق نظارتها أثناء ذلك في ضوء الشمس، وعندما يعلق «فولف» على ذلك ذات مرة قائلا: لا بد من أنهما غربيان، تضحك ألينا وتقول: «بينجو! من حي بريتس. فقد بادرت الزوجة بالكلام معي في السوبر ماركت».

نوافذ البيت ذي الزوايا والصدوع الكثيرة والمكسو بـ «حاجز كالحائط» داكن الاخضرار من النبات المتسلق تقع بحيث لا يمكن بالكاد أن يفوتهما شيء من الحياة اليومية لهؤلاء الناس، إذا لم يريدا الاستغناء عن الشرفة. إنها حياة عادية.. لعلها تلك التي يعيشها المدرسون أو موظفو التأمين الصحي بالإفطار على قراءة الصحف مقاسمة في ما بينهما في السابعة صباحاً والعشاء في السابعة والنصف مساء، ثم يومض ضوء التلفزيون في غرفة الجلوس أو يتم تشغيل الكمبيوتر، وفي عطلات نهاية الأسبوع أو في الإجازات يتم إعداد مائدة الغداء في تمام الواحدة ظهراً، وإشعال شمعة لشرب القهوة، وفي وقت لاحق يفض سداد قارورة نبيذ، ولا يحين في

العاشرة والنصف موعد النوم، بل في الحادية عشرة.

لا يريدان أن يشاهدا ذلك.. بالطبع لا، ولكن باستثناء الشيش الجرار في غرفة النوم لا توجد أية ستائر هناك على الجانب الآخر، ومن ثم لم يغب عنهما أي شيء، والذي يراه فولف طقساً من الكآبة، ما هو إلاّ انطباع تعززه ملاحظة أنهما على ما يبدو يعيشان نوعاً ما صامتين جنبا إلى جنب، فلا يضحكان أو يبتسمان أبداً، كما لا يتعانقان أو حتى يتلامسان إطلاقا. ناهيك عن أن يقبلا بعضهما بعضاً، وفي أغلب الأحيان يرتديان ملابس مبهمة، وغير محددة الشكل أو اللون. رماديان كما يسميهما هو في ما بينه وبين نفسه، حتى لو أنه يتصور أن في ذلك ظلماً لهما وأنهما في واقع الأمر أناس مسالمون ومثابرون على العمل ومشغولو البال بتسديد أقساط شقتهم التمليك، بل ويقرأون بين فترة وأخرى كتاباً، إلا أنه لا يستطيع كظم قسطٍ من الازدراء، خاصة وأنهما يعرضان له ما قد تصير عليه الحال بينه وبين «ألينا»: ألا يدركا وجود بعضهما بعضاً في ذات يوم بسبب الحضور المحض، وألا يختلقا في وتيرة التكرار من الذكريات إلا القليل، وألا يعودا يعرفان شيئاً عما لا يبعد وجوده في ما بين الناس من سحر، لأنهما قد محوا كل ما لا يقوم ولا يقدر من الحياة جاعلين من ذلك نمطاً للعيش.

وفي الوقت ذاته يقف شعر رأسه لهذا التميز الذي لا يقول شيئاً عن هؤلاء الناس، في حين إنه يقول عنه هو أكثر ما يمكن. لماذا لا ينسى ذلك بكل بساطة؟ ولماذا يجعل من أي شيء وكل شيء خطوطا خلفية متوازية؟ أما زالت بصيرته في سنه ليست على القدر الكافي من الحدة؟ وما يلبث أن يعتزم دعوتهما إلى فنجان شاي ذات مرة، أو كأس من البيرة، حتى يجد في صندوق بريدهما مكتوباً يحمل توقيع «مع أطيب التحيات من هيلجا وجونتر».. النسخة المصغرة للملصق الأصفر الفاقع المعلق في اليوم التالي على النوافذ المقابلة، إذ إنه يجري التخطيط لإنشاء روضة أطفال بقطعة الأرض المجاورة، ما احتج عليه السيد والسيدة رمادي لدى إدارة الحي سواء في ما يخص قانون البناء أم الإزعاج الضوضائي المتوقع– وهذا على ما يبدو اعتقاد منهما بأن كل الجيران في صفهما. «فولف» لا يسعه إلا أن يتبسم بشماتة. «هذا يعني فعلا مغفلين»، يقول بارتياح، بينما تهز «ألينا» رأسها، وعندما يطل من الشرفة بعد ذلك بقليل ليفرش للكلب، يتجاهلها بكل بساطة.. تحية السيدة، ذلك المد الفجائي للذراع إلى أعلى والتلويح سريعاً مع توجيه راحة اليد إلى الأمام وكأنها تمسح على المرآة الخارجية لو وجدتها. يفرش لـ«ويستر» الذي سيظل بالمناسبة عندهما. إذ إن صاحبته

وقعت في غرام مدير مدرسة اللغات في فنزويلا، وصارت حاملاً وترغب في البقاء هناك، و«ألينا» في غاية السعادة. تشترى له طوقاً جديداً، أكثر بساطة، كليا من دون مسامير، وتسجله لدى مصلحة الضرائب.

مسايرة الدنيا أيضاً، واحدة من بين تلك الكلمات. وعلى فرض أن الرؤية الشاعرية للأشياء لا تخلو حتمياً من عدم فاعلية، فإن الحياة اليومية بحاجة إلى من يذللها، وليس بالنادر أن تجعله شاذاً في أعين الآخرين، وخاصة أمام امرأته. ما يعد مشكلات معقدة بالنسبة إليه–الشؤون المصرفية أو تعاملات المصالح الحكومية أو المفاوضات مع المؤجرين أو تبديل المشتريات الخاطئة– تسويه ألينا بطريقة عارضة تضائل من شأنه مراراً وتكراراً. ترفرف حاشية جونلتها خفيفاً، تتجه حازمة نحو التلفون، وعندما يسألها ذات مرة من أين لها ذلك التفاؤل الذي لا يعرف الكلل، والتشمير ببالٍ صافٍ عن ساعد الجد أينما كانت، بينما التفكير المجرد في اليوم التالي وتداعياته يجعل ريش فراشه صلباً كالخرسانة، تمسح له على جبينه وتقول: «إن الحياة ومباهجها هما اللتان ينبغي أن تهيآ الظروف، يا جميلي.. ليست الظروف هي التي تهيئ الحياة».

وعلى نحو غير ملحوظ تقريباً في بادئ الأمر، كتغير

طفيف في هيئة الجسم أو قليلٍ من الوزن الزائد، قد اختلج في نفسه نوعٌ من التبعية لفعاليتها. بالطبع هو يقدر كم أنها تدبر له أيامه، بما يوافق هواه، مدى الرعاية التي تباعد بها بينه وبين كل ما قد يؤثر سلباً على كتاباته وما تستلزمه من راحة للبال على الرغم من أشغالها الخاصة. ينعم بحرارة محبتها في سكون، بل وبالتحديد في طريقة من الظاهر أن الناس فيها لا يجيئون إلا أزواجاً، الزواج، وحيث تظهر من حول كل غريب، وخاصة الذكور منهم، هالة متوهجة من جراء الاشتباه به في التحرش جنسياً بالصغار حالما يطالع دوائر الأمهات الشابات، الثملات بقلق خال من العاطفة. كونه في مألوف الحياة هذه يعتبر رجلاً جاداً وموفور الرزق، فإنه يعزو ذلك إلى وجود «ألينا»، ويفرد ظهره من غير عمد عندما ترسل السيدة زايدنكرانتس، حلاقتهما المشتركة، كل بضعة أسابيع صوتها وراءه قائلة: «وسلم لي على زوجتك!» على الأخص في فترات العمل المكثف، والخوف من التقصير، يساوره من دونها شعور بأنه قد أصبح بلا سند على بلاط الشارع المتعرج وتتعثر قدمه بكل نظرة شريرة. عندما تذهب في تلك الأوقات إلى والديها لبضعة أيام أو لزيارة أحد صديقاتها في أوكرمارك، لا يغادر المنزل إلا إذا أكل المخزون كله.

غير أنها الآن، بينما هي تنمق الجدار والمرايا بقصاصات الورق التي تحمل الكثير من حواشي الصفحات والاقتباسات وتستجلب أكواماً غير معقولة من الكتب من المكتبة الحكومية، وبينما هي تركز في سكون على كتابة أطروحتها وهو منشغل بقراءة مسودات الطبع الأخيرة لا يستلقيان فقط جنباً إلى جنب كل ليلة، كعادتهما، بل ويظلان أيضاً طوال اليوم معاً، وهذا على ما يبدو فيه تجاوز للحد: فالذي يبدو ظاهريا قرباً حميماً يتحول إلى بعد خانق بالنسبة إليه. تبدو له الشقة وعلى الرغم من أنها من طابقين، أضيق قليلاً. يعمل ثانية وثالثة حتى الساعات المبكرة من الصباح أو يشاهد التلفزيون كيلا يضطر إلى الذهاب معها للفراش، ويقلل من تناول الفطور معها ليوفر على نفسه طلعة وجهها الناعس.

تفاصيل انفرادهما معاً، ورائحة مزيل طلاء الأظافر، ومنظر أكوام المجلات المبقعة بالماء بجانب الميزان بين «إيل»، و«فوج»، و«كوزموبوليتان»، وقوائم المشتريات المتناثرة في كل مكان، وصندوق البريد المكتظ بالكتالوجات، وأحذية «ألينا» التي لا تحصى في الممر، والكراكيب الصحية كاملة في علب كارتون لونها وردي أو أخضر زاه.. تزيد من اكتئابه. ما لا يلفظ به أصبح في تزايد مستمر، وفيما يلفظ به تبقى هناك دوماً بقايا سيئة. أما جمالها فلم يعد يؤثر في قلبه، إلا

إذا كان قد تغيب لفترة في رحلة عمل. حينئذ تكون شهوته قوية ولكنها تولي عنه بسرعة.. يتصنع الإعياء أو الإجهاد.. يشتري لنفسه أريكة سريرية ليتمكن من المبيت في غرفة المكتب. وذات ليلة يلفت نظره أن وجودها يشعره بالحرج.. إنه يخجل من امرأته.. يربط حول خاصرته فوطة، قبل أن يخرج من الحمام ويأخذ سروالاً داخلياً من خزانة الملابس المشتركة.

لم تمض بضعة أشهر من السكن معاً حتى بدأ يظهر على وجهيهما أحياناً، تعبير وكأنهما قد مكثا اليوم كله في هواء راكد، فليس بالنادر أن ينتقم لذلك بحدة جديدة في البصر، بدرجة انكسار لا تعرف الرحمة. فقد كانت النظارة الخالية من الإطار، والتي يرتديها بين فترة وأخرى دائماً تخيفها. شعرها الذي يبقى في مشطه، وحمالة صدرها المعلقة على أكرة الباب، وعيدان تنظيف الأذن المشبعة بالمسكرة والتي قد وقعت بجانب صندوق القمامة، وماكياجها سواء كان زائداً أم ناقصاً، وتسريحتها المشعثة المتقنة أكثر من اللازم، وقوامها السيئ أو بالغ الاعتدال، ما من شيء إلا ويعلق عليه، وبحذلقة أكثر مما يقصد دائماً، ما يحدو بها إلى تفسيرات وتبريرات جديدة، ولا يشعر حتى بالذنب، طالما هي لا تبكي. ذلك لأنه يعتقد بأن تقززه من نفسه، يكفي له عذراً،

وهو ما يقوم به بالفعل، مراراً وتكراراً. وعلى هذا المنوال ينكص عن أن يغير شيئاً.

ينتف «فولف» الوبر من السجاد، أو يمسح التراب من على حواف الباب العليا، ويضع الأوراق النقدية في الطبق بين الفاكهة حتى تطيب رائحتها. أما «ألينا» فتستهزئ وتسخر من تصوره للنظافة والنظام، بقدرٍ لا يجعله يشعر بأنه يعاني من الوسوسة القهرية، فإن ذلك يرجع إلى ما فطرت عليه من دقة في الحس. بالكاد لا ترفع نظرها عن عملها، إلا أن صبرها ينفد حين يعلق ذات مرة على عدم وجود أسوكة أسنان، والترتيب الخاطئ لعبوات التوابل في الثلاجة.. تكاد تنتزع شعرها من الغضب وتصرخ: «بالله عليك، ماذا تريد مني؟ أليس من حقي أيضاً أن أعيش في هذا البيت؟» صوتها من شدة القنوط يرن رنيناً نافذاً، وعيناها تتبللان بالدموع، أما يداها فترتعشان، وهنا يعتريه فزع شديد. ولكنه بدلاً من أن يذهب إليها، ويضمها بين أحضانه، ويعتذر لها، يغلق باب حجرته على نفسه ومعه زجاجة عرق ماركة «فلاخمان».

الشعور المقبض، بأنه قد ارتضى نظاماً وحشياً وخاصاً لعقود طويلة لا يتحمله المرء إلى أجل غير مسمى. فهو يتراكم في صورة استسلام مكظوم.. في صورة تعزية مرة، وبرود مكابر. ولعل ذلك أحد أسباب أن الذين فروا أيام الجدار،

معرضين أنفسهم لخطر الموت أو الذين تمكّنوا من الرحيل بعد إخضاعهم لإجراءات طويلة ومهينة أو حتى إدخالهم الحبس، لم يعودوا يستأنسون إلى هؤلاء الذين بقوا حتى النهاية.إلاّ أنه في ما يتعلق بتحفظات «فولف» حيال الناس في الشرق، فحتى الآن تقريباً ما من لقاء شخصي بأحد ممن يعيشون هنا إلا وأحبطه، والمرة بعد المرة يدهشه لطف من سبق أن تجنّى عليهم. وهو في ذلك أسرع مما ينبغي في العديد من الأمور، أو على الأقل بالنسبة إلى بعض الناس هنا، حيث إن تجاوز ما فطروا عليه أو ما جرت به العادة من انعدام للثقة في كل شخص يحتاج على وجه التحديد إلى ذلك الوقت الذي لا يملكه الغربي، عندما يسأل متعجلاً عن الطريق، وبالتالي فهو يستدير مرة أخرى، ويعتبر أن هؤلاء الناس متبلدون. إلا أنه في الواقع قد بقي لديهم نوع غير رائج على الإطلاق من الإنسانية، واستعداد لاستحسان الغير، فردة فعلهم ليست غير ودية، بل على العكس ودية أكثر مما يجب، وعندئذ يأتي معها دفء يندى له الجبين.

فقط في المحال والمكاتب الحكومية تبدو وكأنه ما من قوة تستطيع أن تستأصلها.. روح الدولة السالفة هذه. فإلى جانب عدم الانتباه أو حتى التكاسل المسلم به، والذي لم يقترن باحتمال وارد لفقدان الوظيفة، كان من طبيعة

المستخدمين وقتذاك على ما يبدو أيضاً، أن يكونوا على قسط من العجرفة، لم يجرؤ أحد على انتقاضه، وذلك مهما امتد بهم العمر. فهناك على سبيل المثال، السيدة التي تعمل في مكتب الجوازات، والتي لم يفهمها، ليس سمعياً، والتي تجيب عن سؤاله قائلة: «ألست أتحدث بالألمانية؟» أو الممرضة التي تريد أن تأخذ منه عينة دم من دون تطهير منطقة الوخز، وعندما تقوم قيامته ترد عليه بعينين ضيقتين: «لماذا؟ إن الإبرة معقمة.. إنني أفعل ذلك منذ خمسة وعشرين عاماً، فما وجه الخطأ في ذلك؟ أيوجد شيء على جلدك؟»

موظفة مكتب البريد، التي أخذت تتشاور مع إحدى العميلات حول نماذج التريكو بكل إسهاب، تغلق الشباك في وجه آخر المنتظرين.. صانع الأحذية، الذي يرجع إليه حذاء قد تم تصليحه ولم يمض وقت طويل حتى تلف مرة أخرى، لا يسعه إلا أن يرفع منكبيه ويقول بكل جدية: «أجل، إذا مشيت به كل هذا المشي...»، وبائع النقانق، الذي يضع أمامه بعض النقانق بيديه الغارقتين بالزيت، يقول ردّاً على هزة رأسه في تذمر: «هذا ليس إلا زيت قلي، يا رجل. إني أحضر الكفتة هناك في الخلف، أم تحسب أنني كنت أصلح سيارتي؟» وعندما يسأله «فولف» عن سبب عدم غسيل يديه قبل أن يقدم له الطعام يصير بطبيعة الحال سعادة السيد

الغربي الذي يقيسه الزبائن الآخرون المصطفون طابوراً من زوايا أعينهم طولاً وعرضاً وهم يضعون حقائبهم القماش وراء ظهورهم.

«ومع ذلك، كان المستخدمون ملوكاً في الشرق».. تقول السيدة زايدنكرانتس- أمراة حلاقة ضعيفة البنية في أواخر الأربعين، من عمرها، أصبحت تعاني من حساسية ضد مواد صبغ الشعر والتمويج الدائم والتي اضطرت إلى إستخدامها خلال فترة ما بعد التحول، ولهذا لم تعد تقوم إلا بقص الشعر فقط علماً أنها تحمل مؤهل تعليم الحرفة ولكنه مدموغ بشعار الجمهورية الألمانية الديمقراطية: «هؤلاء بالذات الذين يتقاضون اليوم أقل الأجور، سائقو سيارات نقل الركاب والحلاقون.. كانوا أكثر من يكسب عندنا. فلا تحسبنّ أن أحد هؤلاء البكوات كان ليذهب في مركبته العتيقة حتى «شون أيشيه»، حيثما أسكن، فقد كان سيتحتم عليه أن يرجع فارغاً، إلا إذا كان مقابل نقود غربية... وأجندة مواعيدي كانت أكثر امتلاءً من أجندة هونيكر، وعندما كنت أعود من المحل كنت أجد الناس ينتظرون أمام باب البيت في طوابير.. لم يكن الوقت يتسع إلا لإطعام القطط، وبعد ذلك أتابع الأمر بالعمل الخاص على هذه الحال، فلم يبرد غطاء تجفيف الشعر أبداً.

أو خذ مثالاً عمتي جيردا.. عاملة تنظيف المراحيض في محطة فريدرخشتراسيه. كانت تذهب باختيارها لدعك البلاط ما بين أربع عشرة وست عشرة ساعة يومياً، طوال عشرات السنين، وتحضر معها كل ليلة كيس مشتريات مليئاً بالبقشيش إلى البيت.. نصفه بالعملة الأجنبية. وعندما عرضت عليها في ما بعد وظيفة عندي، في نظافة ومن غير رائحة كريهة، هزت رأسها فقط، فهي لم ترغب في غير ذلك.. اشترت منزلين لنفسها، وأبحرت بزورقها الشراعي الخاص على بحيرة الموجيل زيه، أجيرة تنظيف في المراحيض».

يوجد كم مذهل من صالونات الحلاقة واستوديوهات التجميل أو الأظافر في فريدرخسهاين، ونظراً لما بينها من تنافس، فقد بلغ سعر قصة الشعر ما يشعر الفرد بأنه قليل التواضع ما إذا انتظر علاوة على ذلك أيضاً قدرا من الجودة في المقابل. كل شيء بأقصى سرعة، وعلى الرغم من أن شكل الزبون عند مغادرته المحل قد يبدو مقبولاً، إلا أنه بعد أول غسلة على أبعد تقدير تنهار التسريحة من جديد مذكرة بمظهر أعضاء حركة «الشباب الألماني الحر» بشكل مثير للريبة. وموضوع فليطلبوا الضعفين أو ثلاثة أضعاف، من أجل قص شعرٍ أفضل، أجري في تمهل من غير عجلة، وبشكل متناسب على وجه التقريب مع تفاصيل الزبون، وليست فيه أخطاء أو

اختلاف في الأطوال. ما زال الانحطاط الذي ينطوي عليه ذلك التبرج الظاهري، يملأ المرآة بنظرات خبثٍ أو تهكم. فالسيدة زايدنكرانتس بالكاد توجد لديها خيارات أخرى إلى جانب خيار «مثل كل مرة» بخلاف خياري «قصيرا» أو «ليس بهذا القصر». في حين أن الأخير يتطلب منها تركيزاً أكثر مما لو كانت تتحدث. وهذا ما تقوم به بلا انقطاع منذ أن علمت أنه كاتب.

وعلى الرغم من ذلك يذهب إليها عن طيب خاطر، حيث إنه يعتقد أنه يتعرف في وجهها على شيء كان قد لفت نظره أكثر من مرة لدى النساء اللاتي قضين سنوات ما قبل فترة التحول في حال من التحفظ الباطني، والاعتراض الخفي على الدولة: بدقة شعور وعلى طريقة غير سياسية لا يستطيع إلا أن يراها وجودية تنبعث منها عزة نفس هؤلاء عندما يمزجون بين الواقع– إن شئت أن تسميه– والحقيقة في أيام الاشتراكية والرأسمالية. تبدو دائماً أكثر استحياء مما هي عليه فعلياً، ومع ذلك تمتلك روحاً عالية من الفكاهة. فبينما ينزلق شعره بين أصابعها في خفة وحيوية، يطرأ على بعض أقوالها من باب المزاح انقلاب حاد اللسان. ورغم ذلك نراها لا تبتسم إلا في ما ندر. بوجهه الرقيق ذي البشرة اللؤلؤية وبشفتيه الضيقتين وعينيه المحملقتين بعض الشيء يبدو أكثر حزناً أو كآبة عندما

تقول شيئاً مضحكاً.

زوجها.. مهندس قد تخصص معظم الوقت في بناء الأنفاق في الخارج، وهي تقوم برعاية حديقتها والشرفة الكبيرة المليئة بنبات الزينة كلما وجدت فسحة بين أعمالها. كما أن لديها بركة اصطناعيه أدت إلى نفوق كل أسماكها في الشتاء المنصرم. «ليس لأنها كانت متجمدة، فهي قد نجت من ذلك، ولكنني نسيت أن أجرف أوراق الخريف من القاع، فنشأت عنها غازات سامة تحت الجليد، واختنقت الحيوانات. الإنسان متوحش أكثر مما يدرك.. لقد اشتريت غيرها في الربيع.. نصف دستة من أسماك الكوي الملونة، سمينه كالشبوط، وبالطبع ليست كالحقيقية القادمة من اليابان، فمن يقدر على دفع ثمنها؟ لقد نقر طائر مالك الحزين أربعاً منها.. ليس ثمة ما يمكن فعله.. الكلب البلاستيك الذي وضعته إلى جانب الحوض كي ينفر الطيور كما يقولون وجدته في اليوم التالي ملقىً على الخس.. ابني قبع تحت التكعيبة، جاثياً على ركبتيه قرابة الأسبوع وبندقية الهواء في يده، من دون جدوى. وبعد ذلك بفترة وجيزة، التقط المتوحش سمكة الكوي الخامسة.. أكثرها جمالاً، نظراً لعينيها الورديتين والبقع الزرقاء الداكنة والصفراء على جسمها. غير أنها كانت شديدة التمنع أو ثقيلة الوزن عليه.

وعلى كل حال، لقد وقعت منه السمكة وهو يطير، وسقطت المسكينة عند الجيران على الجراج. وهناك أخذ يتخبط ويتقلب كالوحش الضاري، ونحن أخذنا نتقافز ثلاثتنا على ورق السقف المطلي بالقار، ولم يتسنَّ لنا أن نمسك به إلا بعد أن أحضر أحدهم بطانية..».

أثناء حديثها تضع يديها على صدغيه مراتٍ ومرات، لتعدل له رأسه، وليس بالنادر أن يعتقد «فولف» أنه يرى في وجهها المزين مثل الدمية إلى جانب اجتهادها في التزام الهدوء أيضاً، قسطاً من التساهل، كلما ساق الكلام إلى شأن الحياة في الجمهورية الألمانية الديمقراطية ويومياتها. في العادة- وربما على حق- يرى الطرف الآخر بعد سؤال أو اثنين في حماسته الإثنوغرافية هواناً لنفسه، ويرد عليه بإجابات متقطرة. إذ إنهم لا يحبون أن ينظر إليهم بوصفهم غرباء أو أكثر من ذلك علماً من أعلام الماضي. إن لم يعرف ألماني غربي ماذا يعنى «سجل كتائب العمل» أو «حفل تدشين الشباب» فإن الناس هنا يرون في ذلك إهانة لهم، بينما يربطون كلمة «فيرمونغ».. أي التثبيت، بكلمة «فيرما». ربما يتجلى في ذلك مرة أخرى ما يهوى الناس التجني على سكان الولايات القديمة به من عجرفة واستكبار، ولكن الشيء الذي يبدو لـ«فولف» أكثر إزعاجاً في الشرقيين المتقدمين في

السن، هو شعورهم السخيف بالنقص تجاه الغربيين. ولكن السيدة زايدنكرانتس تبدو مجردة منه تماماً، فهي تتجاذب معه أطراف الحديث عن زمن ما قبل سقوط الجدار، بلا تكلف أو تزمت. وطبعاً تلقي دوماً نظرة في المرآة أولاً، على المنتظرين بجانب الباب.

«في الواقع كانت حالتي لا بأس بها»، تقول. «فلقد كان عندنا كل شيء.. هنا حول البحيرة كانت منطقة توفير المواد التموينية رقم أ، بسبب السياحة. حتى الثمار الجنوبية كانت متوافرة. وإذا احتجنا شيئاً كنا ندبره بشكل أو بآخر. كان النظام أخذاً وعطاء، كنت أصفف للكل شعرهم، وبذلك وضع لي الخباز الخبز الأبيض جانباً أو فطيرة محشوة باللوز والجوز والزبيب، وفي نهايات الأسبوع الصيفية كانت لي دائماً عند زوجة الجزار لفافة لحم للشي، مجاناً.. لم احتج حتى إلى الاصطفاف، بل كنت أذهب مباشرة إلى الطاولة.. أمسك بيدي الحقيبة مفتوحة، وإلى اللقاء.. إلى الموجة الدائمة القادمة. وبالنسبة للأجهزة الكهربائية لم أعد أتذكر كم تلفزيوناً أو غسالة قد اشترينا في أليكس[7] لنحضرها في عربتنا الترابنت الكومبي. حينما أهدينا ابنة أخي، مكواة لتجعيد الشعر طارت أبراج عقلها ليومين. لم يكن ينقصنا إلّا السفر.

---

(7) المقصود ميدان «أليكساندر بلاتس» ببرلين.

بحر البلطيق، بحيرة بالاتون، والبحر الأسود، قد رغبت عنها النفس بسرعة.. كنت أحلم دائماً بلندن وباريس، ثم صارت الحدود فجأة مفتوحة، ووقفنا في مكاننا كالأصنام. أعتقد أننا كنا خائفين من كل هذه الحرية. توجّب عليّ حقاً أن أعطي نفسي وزوجي دفعة. كلا، هيا بنا، كنت أقول، طوال عشرات السنين ونحن نشكو من أننا لا نستطيع، والآن نحن لا نريد؟ إذاً فقد كان كل شيء خاطئا، وعليهم فوراً إحاطتنا بالجدار من جديد. وهكذا ركبنا الطائرة إلى روما».

ذات مرة أرته صوراً لزوجها وابنهما الذي ترجو أن يهديه كتاباً يحمل توقيعه، على أمل أن الكتاب قد يثير اهتمامه أكثر من ألعاب الكمبيوتر المتواصلة، وعندما يسألها «فولف» كيف للمرء أن يتصور الوجود الكلي للأشتازي، وما إذا كان للأشتازي وأنظمة تجسسهم وجود محسوس في الحياة اليومية، تهز رأسها، وتتحدث فجأة بصوت منخفض. على بشرتها الغائرة بعض الشيء حول عينيها، هناك عاصفة من أدق التجاعيد. «لم أقابل أحداً منهم، ولكنني كنت لا أحد ولم أرغب في أي شيء. أعني، إذا كنت حضرتك تنوي تحقيق النجاحات أو اضطررت إلى السفر للخارج، حتى ولو كنت اشتراكيا، مثل زوجي مع فريق عمله لبناء الأنفاق، فإنهم يجرون عنك التحريات. وما اشتهر به الناس عندنا

من استعداد للمساعدة وتآزر كان يقتضي الحذر في معظم الأحيان.

تبتسم وتنظر في المرآة.. هناك رجلان شائبان ينتظران على الكراسي. «لن يدهشني إذا كان هناك ملفٌ عني، فأنا أقوم بجمع نبات الصبّار، والأنواع المزهرة، وجعلت كافة أقاربي الغربيين الممكّنين يرسلون لي منها. حتى إن بعضها قد وصل، ثم إنه كان هناك مرة في السنة لقاء سري في غرفة الاستنبات الزجاجية، على ضوء الشموع، ولا تزال موجوداً. إذ إنني لدي سيلينيتسيريوس جرانديفلور.. زهرة ملك الليل، هل تعرف حضرتك؟. هادئه قد أثقل كاهلها تماماً، نبات شكله مثل الثعبان على حائط شبكي من الخشب، أكبر مني حجماً، ودائماً في تموز، وفي بعض الأوقات أيضاً ليس قبل آب، عندما يكون الجو حاراً فعلياً، تتفتح، فقط لبضعة ساعات قليلة. في البداية كان ذلك يفوتني كثيراً، ولكن الإنسان مع مرور الوقت يأتيه إحساس بذلك. فترى قبلاً عند المساء أنه سيحين الأوان قبل منتصف الليل بقليل، فأجمع الأصدقاء والأقارب من المنطقة عن طريق الهاتف. مرة بلغ عددنا خمسة عشر شخصاً، وكنا نجلس في سكون وكؤوس النبيذ في أيدينا وننتظر. في حالة أشبه بالصلاة وحينما تتفتح بعد ذلك نواويرها وتنفث تلك الرائحة المذهلة التي تشبه رائحة

الفانيليا أو كريمة اللوز قد يذرف الواحد منا دموعاً. بالنسبة لي تتبلل عيناي بالدموع، منذ ثلاثين عاما. وهذا الأسى- هذا يقع الآن على مسمعك موقعاً غريباً، أعرف ذلك- إنها السعادة بعينها. إن حضرتك تنسى كل شيء من حولك، كل دولة، رغم ما في الحديقة من ظلال».

الكتب منتصبة في سكون في خزائن عالية.. الكتب قديمة.. تدعي الأهمية وتتظاهر بالجدية بما يملأ صفحاتها من كلمات، ولكنها في النهاية تخفي الكثير، توابيت الهناء الصغيرة ما بين السطور. التراب على مذهب الأطراف يبوح بأكثر من ذلك.

أول تاج في الجزء الظاهر من الأسنان.. ضمور الغضروف القطني الذي تصحبه الآلام.. إصابة مفاجئة بضعف مزمن في السمع، من دون طنين، وفجأة يرسو على المرء مزاد حذاء بنحو 800 يورو ويبدأ في الاندفاع إلى شراء الطبعات الكاملة... غيره من الرجال في مثل هذه السن يحلمون بسيارة بورش أو ساعة سويسرية تتمتع بخاصية الضبط التلقائي. في هذه الأثناء تبلغه الأخبار عن أول معارفه الذين من جراء مرضهم أو حنقهم على الحياة يتصرفون في مكتباتهم التي قد اجتهدوا في جمعها طوال عشرات السنين، والتي ليست ثمينة من الجانب المادي فحسب، فالورثة لم يعودوا يقرأون. ورغم

ذلك ينساق وراء تلك الرغبة في التمام و المكانة التي تتجلى في رفوف فخمة. يحيط نفسه في الزمن الحاضر بجدار من كل هذا الطوب الورقي، ويتصفح الإعلانات والكاتالوجات، بينما تصهر الرياح الأشجار من حوله. إن الزوال جزء لا يتجزأ من الازدهار، إنها كلمات رنانة، ولكن يود المرء لو يحفظها في كتاب.

إن نوفاليس مازال مقبولاً، ولكن عشرين مجلداً سميكاً لهيرمان هيسه– متى يتاح له أن يقرأ العشرة، التي ما زال لا يعرفها؟ جون بول في قماش مشمع غليظ، مجموعة كبيرة، ويكون قد أصابك الملل حالما تصل إلى «زيبن كيز». مترا على الأقل فيلاند، وكذلك هاينرخ بول بالتمام والكمال، إنذارٌ كليٌ بضرورة احتضان قوله في القلب مرة أخرى. ولكن ماذا بالتحديد؟ ومتى؟ براوست ليلكي اللون المسكوك بالذهب، براوست في حافظة، وصفحات ورق الطباعة الرقيق تهمس عندما يقلبها، تناجيه بهمسها الناعم «فات الأوان..».

رغم ذلك يواصل الشراء، والعامل الذي يقوم بتركيب شفاط التهوية أعلى موقد الطبخ، يشير بالمثقاب الدقاق إلى صفوف وكعوب الكتب في غرفة الجلوس سائلاً: «أكل هذه حقيقية؟»– لا، ليس بالفعل. إنها في واقع الأمر تلك الشبيهة نفسها التي عهدها في خزائن محال المفروشات

الرخيصة، ذلك لأنه إذا أراد البحث عن شيء فإنه بطبيعة الحال سيمد يده إلى كتب الجيب الممزقة، والمليئة ببقع الشاي والنبيذ الأحمر في الصف الثاني. هنا يكاد يعرف عن ظهر قلب أين له أن يجد أياً من المقاطع، وجميع قصاصات الورق أو أوراق لف السجائر أو ورق لف البونبون الموضوعة بين الصفحات، والحواف المطوية المثنية، العلامات التي قد أعملت قبل عشرين أو ثلاثين عاماً بظفر الإبهام أو بالقلم الرصاص، ورقة خريفية لم يتبقَ منها إلا تعرقات غضة، رائحة النيكوتين أو موقد التدفئة أو العفونة في أي شقة.. أي فناء خلفي تجعل كل كتاب منها أعلى قيمة مما يمكن للطبعات الكاملة الجديدة أن تكون، المرصوصة جنبا إلى جنب بدقة وعناية مثل صفوف البيوت الملك.

هذا النص أو ذاك، قد ساعد المرء على الحياة وأكثر: لقد رباه على أن يعيش الحياة، ما قد زادها ثراء وأغناه حرية. المثل القدير الذي قالته الجدة «من يقرأ يعش مرتين» قمة ما يثبت صدقه إذا ما اطلع المرء على أحد تلك المواضع التي وضعت عليها علامات مرة أخرى. رفع العينين الذي قد حصل هنا، ملءُ الصدر بالهواء حتى يصل إلى أرق جوانب النفس، يبدو أنه يعيد نفسه مرة أخرى حتى وإن كان رأيه قد اختلف منذ زمن، أو أصبح يرى ما قيل تافهاً ومتأثراً بسذاجته الذاتية.

إنها جمل، مازال من حولها بصيص من دهشة أو انبهار، انعكاس سابق طهارتنا ومثل شبابنا، ورنينها الداخلي يزيد الغرفة اتساعا ويظهر لنا كم من وقت قد أمضينا ومن مسافة قد قطعنا كي تتضح لنا حقيقة في غاية البساطة، وهي أنه لا يزدهر إلا الزائل.

جحيم الكتمان، وجنة الكذب.. مضت أشهر وهو يتلاقى مع شارلوتيه. لأجلها قد اشترى لنفسه هاتفاً محمولاً، وثياباً داخلية جديدة، وكريماً أقوى لما بعد الحلاقة.. لأجلها يقصر شعر عانته، وعندما تسنح له الفرصة أن ينسل من فريدرخسهاين يطرق كل أسبوعين في حوالي الساعة الثامنة مساء باب شقتها المطلة على الفناء الداخلي في برنسلاوربرغ. تقع في الطابق الخامس، من دون مصعد، وتطل على كرة برج التلفزيون، المطعم الذي يلف بالزبائن. رغم وجود مكتب زجاجي، وفوتيهين جلديين على طراز الباوهاوس، وأريكة بيضاء كبيرة، ورفوف تصل إلى حد الركب فإن غرفة الجلوس تبدو خالية، وتغلب عليها الأرضية المصنوعة من خشب التنوب المدهون. ألواح الخشب البني لونها داكن كفرو «ويستر»، في كل مكان تشتعل شموع حادة الحواف، ومنسقة كمزامير الأرغن. وعلى الرفوف توجد ساعات جيب قديمة تقوم شارلوتيه بجمعها، وأزهار مجففة،

ومجلدات عالية القيمة من رسومات وصور. المطبخ العملي كل شيء موجود، فحتى مقبض فرشاة الحوض، من المعدن الثمين، وبصرف النظر عن خزانة من شرائح الخشب الرقائقي ليس هناك في غرفة النوم سوى السرير العريض ومصباح، وكرة بلاستيكية في حجم كرة القدم ملقاة على الأرض وتتدحرج جيئة وذهاباً إذا ركلها أحدهم. هناك قناع فيه ريش من «فينيسيا» معلق على مقبض الشباك، وجهاز لحماية الأسنان من التآكل محفوظ في علبة صغيرة زرقاء، تبدو شفافة عندما يسقط عليها الضوء، على رف خشبي بالحائط.

وكيلا تبدو زياراته من دون غرض ما، فقد اعتاد «فولف» على أن يحضر لها الورود. إنها تعشق الكبير الدرامي من الورود، الكالا والليلي، والزنبق، والورد البلدي، وبينما هي تنسق تلك التحف الفنية الرائعة في مزهرية، يجري فولف، وما زال يلهث من صعود السلم.. أولاً إلى الحمام ويغسل يديه جيداً، حتى وإن كان ذلك شأنه في بعض الأحيان فلا يجب عليها أن تفكر بأنه يلهث من تلهفه عليها. في كوب على الرف توجد ثلاث فراشٍ للأسنان: اثنتان جافتان، وواحدة مبللة، ومرات ومرات يلحظ شعيرات مختلفة الألوان في البالوعة أو في المشط تحت المرآة. على طرف البانيو، بجانب تمثال خشبي لإلهة نوبية، يوجد شامبو رجالي للشعر الملون،

وفي إحدى المرات لا يزال واقي سلفه عائماً في المرحاض ولا يريد أن يغيب عن البصر رغم محاولات الإستخدام المتكرر لصندوق الطرد.

كثيراً ما تستقبله شارلوتيه ببرنسها الأبيض الناعم الذي يبرز سمرتها غالية الثمن.. تكون من تحته عارية، وفي البداية تبدو وكأنها لم تعد من المكتب أو المطار إلا منذ لحظات، بلا وقت لأخذ حمام سريع. وعلى الرغم من أن ماكياجها حديث، إلا أن هذا لا يعني أن بإمكانه أن ينهال عليها.. إنها تحتاج إلى طقوس معينه. على طاولة القهوة دائماً هناك طبق فاكهة، ودورق مياه، وزجاجة نبيذ أو جراب، وفي البداية يتناولان مشروباً ويتحدثان عن الأيام والأسابيع المنقضية، وأثناء ذلك تضع شارلوتيه قدميها في حجره، وقلما تلاحظ أن حزامها يتراخى. تمسك الكأس بأطراف أصابع يديها الإثنتين، وصحيح أنها تنظر إليه أثناء حديثه إلا أن فكرها غالباً لا يزال في مكان آخر. في بعض الأحيان تبلع تثاؤباً وراء أسنانها وهي عاضدة عليها، أو تسأله عن شيء قد ذكره منذ لحظات، في بعض الأحيان تخاطبه باسم مارك أو أورز، ثم تسرها صفعته الحانية.

تعمل أكثر من اللازم، وتحت ضغط بالغ الشدة، يبدو عليها ذلك على الرغم من المكياج المنتقى.. تحتاج إلى قدح

آخر من العرق كي «تستريح أعصابها»، وتحكي في استرخاء وملل عن الحلقات الدراسية، والمؤتمرات، ورحلات العمل، وإطلاق النار في ما بين الزملاء في الجامعة الذين يسمونها بازدراء «كم خارجي»، وكذلك أمنيتها بأن تترك العلم ضيق الأفق خلف ظهرها وأن تنخرط في السلك الاقتصادي. في غضون ذلك تدخن قليلاً من الحشيش الذي قد أحضره لها شرطي صديق من دينهاج، وعندما يسأل في فضول، تتحدث أحياناً عن رجليها الآخرين اللذين دائماً ما يكون هناك واحد منهما لم تعد تطلبه لأنه قد أباح لنفسه بأن يفعل شيئاً. «تصور، أنا ألغي مواعيد مهمة من أجله وأسافر إلى سويسرا، وهو يعتقد بالجد..».

تتشابه تلك الحكايات دوماً بعض الشيء، وليس الغرض منها الإخبار بقدر ما يكون تلطيف مناخ الحديث، وتنسيق الذبذبات بتأثير من صوتيهما اللذين يزدادان انخفاضاً من شدة الاسترخاء، بشيء من الفظاظة أيضاً، كأنهما يسننان قليلاً في مكان ما في الخفاء– كعجلتين مسننتين رقيقتين تتعشقان في بعضهما بعضاً وتديران ماكينة إحدى الساعات، صحيح أنها لا تعطي الزمن، ولكنها تنسق كل التحركات في المكان بحيث يصبح لها مغزى أبديّ: مثلاً عندما ترد له خصلة شعر مسدلة على وجهه إلى خلف أذنه وتمسح قفاه بيدها عابرة،

أو عندما يضع إحدى اليدين على فخذيها عرضاً عن قصد، حيث يبهره ملمس بشرتها، حتى ولو أنه يشعر بأنها النعومة الأخيرة، رغم الليالي التى تقضيها في الجيم.. بالذات لأنه يشعر بذلك.

وبينما كانت تداعب أصابع إحدى يديه وتشرح له الفرق بين شبكتي الإنترنت والأنترانت أو تخبره عن السكتات الاتصالية لأنظمة الشركات التي تعتمد على شبكات اتصال إلكترونية متكاملة، نحّى باليد الأخرى، قماش البرنس جانباً وعبث محترساً بشعرها وبشفرات عانتها الطويلة بغرابة، والتي ذكّرت بعض الشيء بلغد الدواجن. فما إن غيرت تنفسها أو حتى توقفت عن الحديث وأغمضت عينيها، حتى سحب يده مجدداً وبعدها سألها هذا وذاك عن عملها.. عن مصطلحات «glass ceiling»[8] مثلاً أو «سيدة الموارد»، فأجابت عن أسئلته بعد أن كانت تزدرد ريقها. ولكنها في غضون ذلك تكون قد أمالت نصفها الأعلى نحوه وابتدأت في فتح سوستته، وصوت السنون الرقيق يسمع، وكأن الساعة تمتلئ الآن في مكان ما من فوقهما لتسير في ساعة الزمن القادمة.

«ألينا» لا يبدو عليها أنها تشعر بشيء من ذلك. بل إنها

(8) عن الإنكليزية، وتعني مجازياً «حاجزاً خفياً».

تشجعه على أن يعاود الطواف حول المنازل تارة أخرى والجلوس في أحد المقاهي. تكوي له القميص الذي تفتح له شارلوتيه أزراره، وعندما يعود أكثر استرخاءً إلى البيت ويعاملها برقة خاصة، يثبت إيمانها على ما يبدو بأن الحياة الهنيئة لشخصين معاً ما هي إلا مسألة موازنة بين قرب وبعد مفعمين بالحب. وما يبرهن أيضاً على صحة ذلك في نظرها خلال الفترة الأولى من شطحاته هو أنه بمجرد عودته إلى المنزل، يتشمم يديه في الدهليز المظلم، ويرغب بعد القليل من الكلام في أن يضاجعها، وبسرعة.. من الأفضل على الفور. ذلك لأنه لا يزال يشعر بالأخرى تنتفض بين ذراعيه، يتذوق طعمها في فمه، ولبضع لحظات عند اكتمال القمر يحتاج بسبب سنه، وخوفه من ضعف قدراته الجنسية إلى الإحساس المنتشي بأنه قد ضاجع امرأتين في فترة وجيزة.. الواحدة تلو الأخرى، وبأنه قد أشبع رغبة عشيقتين عاليتي الهمة. ولأن «ألينا» تتمتع بشدته أكثر من العادة وتبتهج لطول نفسه، فلا يراوده أي شعور بأنه يسيء استغلال ثقتها. فمن منظار سره المنشوري تبدو له أكثر جمالاً من جديد، ونبيلة في براءتها، ولا يعقد بين المرأتين أدنى مقارنة ولو لثانية.

اللقاءات السرية مع الثانية نادراً ما تكون تلقائية. في معظم الأحيان يرتبان لها قبل ذلك بزمن، عن طريق رسائل

الـهاتف القصيرة أو إخطار وجيز بالبريد الإلكتروني، وعادة تقوم شارلوتيه بتحديد الليلة. وإذا قام هو في إحدى المرات باقتراح واحدة، فيمكنه أن يكون على يقين من أنها ليس لديها الوقت المتاح أو أنها تجيب بالقبول حتى إشعار آخر، كثيراً ما تعوقها عائقة ما، العمل بحسب ما تدعي. وعندما يقترب الموعد، يدبر «فولف» في نفسه هذا السبب أو ذاك لكي يذهب إلى وسط البلد بمفرده، إلا أنه نادراً ما يتبادر إلى ذهنه شيء يتفق والعقل. ليس هناك من الحاجات ما لا يمكن قضاؤها في كوبينيك إلا القليل، والتغيير لا يبدو مبرراً صالحاً للاستخدام، حيث إن «ألينا» تجلس أيضاً يومياً على المكتب وستكون في حاجة إلى بعض التغيير. الأصدقاء، كما سبق الذكر، ليس لديه الكثير منهم. كما أن المسرح لم يعد يذهب إليه منذ أمدٍ طويل، والسينما كذلك، في حين أن التحليل في مستشفى شاريتيه بعد إصابته بضعفٍ في السمع قد فرغ منها، وطبيب الأسنان في كرويتسربغ قد قصده ثلاث مرات في هذا العام.

بالكاد يؤاخذ «ألينا» على أنها تفترض لديه التفرد الذي تحبه فيه وكأنه فصيلة دم أو شهية واحدة. أن يعتبر ذلك سذاجة منها، إن هذا لشيء عليه أن يحرمه على نفسه تحريماً صريحاً.. إنها حرارة حبها، بلا ريب– ولكن تلك الحرارة

على وجه التحديد هي ما يضيق عليه صدره، بمجرد أن يقترب موعد لقائه بالأخرى، بصفة متزايدة يوماً بعد يوم، بحيث أنه في يوم من الأيام بالكاد لم يعد يعرف ما إذا كان وجودهما المستمر معاً في الشقة الصغيرة هو ما يقطع عليه أنفاسه أم إحساسه بالذنب. كأن هناك للخيانة تفاعلات كيميائية، تملأ الهواء بمواد صحيح أنها مريرة، ولكنها تحمي مما هو أمر، مما إذا اعترتهما نزوة غضب، أو عراك شديد يشتجر بينهما، تبهت والذي يدور في كثير من الأحيان حول أية توافه، من أربطة أحذية مفقودة، إلى مظلة في غير مكانها، الأمر الذي يمنحه الحق في أن يغادر البيت صافعاً الباب من خلفه وألاّ يعود إلا في وقت متأخر من الليل.

إنه لا يريد أن يتركها، هذا أمر لا ريب فيه منذ البداية.. إنه يرغب في حياة أكثر طلاقة إلى جانب «ألينا»، هذا هو كل ما في الأمر. وعلى الرغم من أنه بطبيعة الحال لا يعرف كيف ستكون ردة فعله إذا كان لـ«ألينا» عاشق، فإن لديه تصوراً لحياة سوية يبقى لكل منهما فيها مجال لأمور شخصية وأسرار لا تضني الحقيقة بل تزيدها ثراءً.. إنه يرغب في أن يشيخ معها من دون أن يصيرا كالسيد رمادي وحرمه، وذلك لأنهما على الرغم من إنهما أصغر سناً، إلا أنه يرى مسبقاً في العادات التي يحتفي بها هؤلاء البشر في صمت ومن دون أي

نوع من الشهوانية، انبعاثات خمول تدل على الأشياء التي انطفأت ولكن معناها بالنسبة إليه النهاية.

غير أنه عندما يحكي لها بادئ ذي بدء- على سبيل التجربة- عن «شارلوتيه» بصفتها من معارفه وقد قابلها منذ سنوات مصادفة في مقهى، فتجاذبا معاً أطراف الحديث وتناولا مشروباً، تنكس رأسها وقد يبدو عليها الاستياء. هل كانت مجرد أوهام؟ ويمتقع لونها، الأمر الذي يعني في حالتها أنه يصير شاحباً، ولذلك فهو لا يواصل الحديث إذ إنه لا يريد أن يجرح شعورها. «ثم ماذا؟»، تسأل رغم ذلك، بطلاقة وجه متكلفة. تقطع الطعام للكلب.. أجزاء داخلية بقرية لونها رمادي مصفر.

«هل رافقتها إلى غرفة النوم؟»

لم تمر أكثر من رمشة عين بين نهاية رنين سؤالها، وإجابته المجردة من تعابير الوجه «هراء! كيف لك أن تقولي ذلك؟» في هدوء ظاهري. إلا أنه يشعر في تلك اللحظة القصيرة التي أحدثها الجبن بأن عالماً كاملاً من نصف حقائق ونبرات زائفة قد التهمه.. وميض من حجج باطلة يُرثى لها، وتصنع ليس له آخر.. يبلغ ما يصبغ به روحه من لون رمادي منذ الآن مبلغ الأحشاء التي يفوح النتن منها على لوحة تقطيع اللحم.

خطاب عليه طابع بريد إيطالي.. اسم المرسل بالأحرف

الأولى فقط. فهو حتى وإن أصبح مع مرور الزمن مهزوزاً بعض الشيء، فإن ذلك الخط العريض، بحركته الفنية، ما زال يظهر عليه عزيمة الإرادة: الصديق القديم والمعلم السابق يرسل تحية.. من بيته في ليغوريا.. يرفق بالخطاب طبعة خاصة، بل قصائد مع رسوم على ورق ياباني، ويبلغه بأنه سيحضر بصحبة رفيقته عما قريب إلى برلين. بعد أن مضى عليهما زمن طويل من دون أن يتبادلا المكالمات الهاتفية أو الرسائل، يرغب في «زيارة» «فولف» بشقته في فريدرخسهاين، بل ويقترح أيضاً اليوم والساعة مباشرة بلهجة كفيلة بأن تنطوي ألفتها على شيء غريب أو حتى فّظٍ لمجرد أنه يتبدى بذكاء مرح وكأنهما لم ينفصلا آنذاك عن بعضهما عن استياء، بل وعن تبرم. أما أن تكون في الأمر مباغتة غير لائقة، فإن ذلك على ما يبدو لم يخطر على باله.. من يتعدى عمره السبعين، فإن حساسية الشعور لا تكون من شأنه أبداً. ولكن ثمة ذرة تأنيب يعتقد «فولف» بأنها تتجلى في إضافة اللقب بين قوسين (ساندر) إلى توقيعه، الذي زادت حوافه حدة بعض الشيء، بـ ريتشارد. معنى ذلك أنه قد يكون نسيه أو أنه يخلط بينه وبين شخص آخر، وذلك التواضع المفتعل، الذي لا يثبت سوى أنه يفترض لديه بداهة أيضاً شعوره الضال، واليقظ نوعاً ما فقط بين نشوات شرابه، يدفع «فولف» إلى أن

يمزق الخطاب.. إنه لا يرغب في رؤية ذلك الرجل ثانية.

ورغم ذلك عاد يفكر فيه كثيراً.. الآن يود التصدي لغواية الانتقام من العجوز لما قد يعتبر غطرسة واستهانة، وغروراً في نفس من قد وصل إلى الشهرة والثروة، والذي اعتاد الحديث بزراية واستخفاف، وأحياناً بالشيكات. وذلك لأنه مدين له بالكثير، رغم كل التحفظات. أنه يستطيع بناء جملة لا تنهار مع أول تقطيب للجبين، وقادر على التفريق بين أبيات الشعر والتصرفات ويعلم كيف ينبغي السكوت على شيء حتى ينجلي. لقد استجمع عزمه استنادا إلى رفعته، واستمد قواه مستظلا بقوته، ولزمن ما كان يشعر بأنه مدين له بفضائله التي أغرقته. وعلى الصعيد المادي أيضاً لقد عرض عليه، المسافر، الذي كان يجوب أوروبا طولاً وعرضاً آنذاك، خدماته كسكرتير. ولكن مجده العابر أصبح بعد ذلك أثراً بعد عين.. خيال ظله بدأ يتفتت، وقبل أن تستطيع كلمة شكر أن تخلّ بالتوازن التكافلي ما بين التلميذ والمعجب به، كانت ساريته قد شغرت.

عندما تعرفا إلى بعضهما في أواخر السبعينيات كان عمر «فولف» يزيد على العشرين بقليل. ما لبث أن انتقل إلى برلين حتى وجد وظيفة بدوام جزئي في محل لتصوير المستندات في محطة «بانهوف تسو». وراء القضبان الحديدية على الجانب

الآخر من ساحة انتظار السيارات، يسمع وقع السنابك، وصراخ، وصرصعة الحيوانات التي أعاد إليها الربيع ذكرى مكانها بحق الجحيم، وكان «فولف» يحمل الورق في درج أحد أجهزة التصوير، فإذا بأجراس تعليقة الريح تدق، ودخل ريتشارد ساندر. أراد تصوير غلاف مكتظ بالمخطوطات على الرغم من أن الثمن في هذا المحل كان باهظاً، حين قال له فولف: إن بإمكانه فعل ذلك أمام الجامعة التقنية.. أي فقط على بعد خطوات، بخمس السعر، أشار بالنفي. «أنا مستعجل.. إنها فقط نقود..».

مظهر ملفت.. على كلٍ، في هذا الحي من المدينة: الأحذية الغليظة والبنطال كانا ممتلئين ببقع الألوان، والقميص الفانيلا الكاروهات كان لكل واحد من أزراره حجم مختلف. أما السترة المصنوعة من قماش الدريل القطني فقد بدت جديدة، وكان يرتديها عادة السمكرية والمثقفون والفنانون الذين يريدون الظهور بمظهر العمال.. العقصات الشقراء الطويلة مردودة إلى الخلف، ومقصوصة إلى حد الأكتاف تماماً. وعلى الرغم من أن الجو ممطر، فقد كان يضع على عينيه نظارة شمسية راي بان. كان فولف قد رآه في طرق المشاة على بحيرة «غرونفالديه زي» مرات عديدة، بأحذية مدهونة بالألوان، أو بين جماهير القراءات والمحاضرات

الذين يترددون عليها أحياناً، ودائماً كان الرجل يجلس على مسافة واضحة من أي شخص آخر. في بعض الأحيان كانت بحوزته عصا تجوال تشبه الجذر، ويشرب جرعة نبيذ من الزجاجة التي كانت بارزة من جيبه، وفي بعض الأحيان كان يدون شيئاً.

لم يكن بالفعل معروفاً لدى كل صغيرٍ وكبير، ولكن من الواضح أنه كان يرغب في أن يصبح كذلك.. ما يبلغ القلوب في برلين الغربية قد أصبحت فيه السبرانية تنظم الفكر، كما أن تعاطي الكوكايين صار ضرباً من الموضة، وبدأ المحليون الأوائل يضعون المفارش البيضاء على الموائد. بيد أنه كان ينقصه ما يملكه هؤلاء غريبو الأطوار في كثير من الأحيان من كاريزما دماثة الأخلاق والرضا عن النفس.. النظارة الغامقة، والذقن المرفوعة، والبشرة الذابلة مع الشفتين العريضتين واضحتي الحدود والزوايا قد أضفت على الرجل البالغ من العمر خمسة وأربعين عاماً تعبيراً متعجرفاً بعض الشيء، وشبه بارد. فحتى الآن يضطر فولف الشاب للحظة إلى مقاومة رفضه، الفعل الانعكاسي النابع من نشأته البرجوازية الصغيرة أو البروليتارية، حيث يظل الشاذ، والغريب مقبولا طالما أنه متوافق مع التصورات الرائجة عن الشذوذ والغرابة. يضع المخطوط في الجهاز.

أثناء ذلك يقرأ اسم الرجل ويندهش. ولأنه يعرف قصائد له غاية في التأثير، ورسومات ساحرة، حافلة بالكائنات التي تقفز وتطير وتتهاوى، وقصصاً قصيرة وحكايات رائعة، تتراجع أحكامه المسبقة أمام ما ينتابه من شعور طفيف بالخجل، لعدم تعرفه مباشرة على ما وراء هالة التشرد من طراز خاص. وسرعان ما يعتقد أن هناك ما يمكن أن يستشفه من وراء الصوت الذي قد لا يكون على قدر كبير من القوة، ولكنه ينطوي على سمة فضية رفيعة، متلألئة من اليقظة والفطنة. وعندما يسأله الرجل عن ورق مائة غرام، لكي يبدو الكتاب الرفيع أكثر سمكاً، على الأقل لا تكون النظرة التي يتطلع بها إليه من فوق النظارة فاترة لغمضة عين.

ومن ثم ينطلق «فولف»، الذي يقف أمام شاعر للمرة الأولى في حياته، على سجيته، ويحاول صياغة ما يعبر عن مدى إعجابه بكتاباته، وتأثره بشعره وما يحويه من بصيرة ثاقبة، إلا أن ذلك لم تنتج منه سوى تأتأة، وكأنه أراد تهجّي تهلله. وبينما يسحب الجهاز، المخطوط آلياً، الورقة بعد الورقة، يعيره الآخر أذناً صاغية، بانتباه ومن دون أن تظهر عليه أدنى إمارات الغرور، ولكن التعبير على وجهه يشي بتشكك طفيفٍ، وكذلك هيئة وقوفه، بمرفق على طاولة البيع، ويد في جيب البنطلون، بنظرٍ موجه إلى الأسفل مع

هز الرأس بين حين وآخر، ما ينم عن احتراف يكبح جماح «فولف». كل شيء فيه يبدو وكأنه يقول: كلام جميل، ولكن دع الكمال للخالق وحده.. الهيام بأبيات الشعر لا نفع فيه. ينبغي أن يكون الحديث عنها، كما الحديث عن كرسي متفكك أو طاولة جيدة الصنع. الأبيات تدل على جلد على العمل، بالإضافة إلى كلام فارغ، ومصنعية، يجب أن تكون لهما فائدة، ليس إلا. والعبقرية، أيها الشاب، يملكها كل واحد منا في وقت ما، فما هي إلاعملة صغيرة.

ينزع النظارة.. يعض على ذراع.. عيناه زرقاوان فاتحتان.. تقريباً أكوامارين. رائحة النبيذ تفوح منه، وكذلك الدخان والتربنتين. تحت أظافره يوجد تراب طباشير. وما يشع به من الانطلاق، والتمرس بالحياة والإلمام بالدنيا والذي يتلألأ من بين كلامه المقتضب، يضّيق على «فولف» عيشته كموظف مع كل نبضة من نبضات القلب أكثر فأكثر. وعلاوة على ذلك، يرغب في استدراك أحكامه المسبقة على ذاك الرجل، الذي يأتي كالمرسال من وسط يتمنى لو يستطيع أن يرى نفسه واحداً فيه، ويعتقد بأنه يلحظ عليه أولى علامات عدم الترحاب. عظم الفك يرتعش، والحاجبان يشتبكان أعلى جذر الأنف، ثم ما يلبث أن ينظر أيضاً إلى الساعة، ويخرج حافظة النقود من الحقيبة.

في الخارج تبدأ فترة التغذية.. أنصاف الخنازير يتم رفعها على عربات اليد، والطيور ترتفع عالية، وترتد من الشباك السلكية تحت السماء. أما الأسود فيعلو زئيرها على صوت مذيع المحطة. وبينما يبدو وكأن مضمون كلامه قد ذهب أدراج الرياح، نظراً لمعالم وجه الكاتب المتبلدة من جديد، ينتهي تصوير الصفحة الأخيرة من النص بحيث تستأثر بـ«فولف» مسحة من الذعر، رفرفة وخشخشة داخلية، فيقرر أن يكشف عن خبيئته وأن يعترف بما لم يسرّه حتى إلى رفيقته. ولكن الآخر كان قد فطن إلى سره من قبل ذلك بكثير. «أجل، أجل»، يقول ويخطف الورق من على رف الجهاز. «لقد فهمت.. أرسل لي ما تكتبه، قصائد، على ما أظن.. لعل بإمكاني المساعدة». ثم يضع ورقة نقدية على طاولة البيع، ويدفع الباب بكتفه، ويضيف رافعاً سبابته: «ولكن فقط إن كنت جيداً!»

أن يكون كاتباً، غير مقيّد بأحد أو بشيء سوى الجمال، وأن يشتغل بترخيص شعري، متى وأينما وكيفما شاء، كان ذلك لـ«فولف»، الذي لم تكن لديه أية فكرة عن الضرورة الداخلية للنص، أو طغيان العسف الفني أو انحطاط الممارسة، لفترة طويلة. منذ عامه الرابع عشر، يعمل فقط من أجل المال بشتى المهن والمجالات التي تقول له كلها الشيء نفسه:

الويل لك، إذا جئت متأخراً، والويل لك، إذا بنيت ببطء، والويل لك، إذا انصرفت مبكراً. في نظر معلميه، ومشرفيه، وأساتذته كان علاوة على ذلك نادراً ما كان عقله يقظاً: فقد كان ساهماً، ويبلي أصابعه إذا استخدم متر القياس.. كان يتصفح الدفاتر الصادرة عن مكتبة «ريكلام» أثناء استراحة الظهر، عندما يخرج الآخرون كلهم صحيفة «بيلد» أو مجلة «سان باولي ناخريشتن». إلا أنه وإن كانت كثير من الكتب أكثر من غامضة بالنسبة إليه فإنه لم يكن مضطراً إلى أن يوهم نفسه بالفهم عند قراءة بعض النصوص، إلا أن الأدب كان بمنزلة السلطة الأولى والوحيدة في مرحلة شبابه التي كانت تقول له: أنت لست واهماً.. أنت على صواب بأحلامك.. ما الحياة ببيت جاهز.. الحياة تنتظر منك شيئاً منقطع النظير.. نمطاً جديداً، وليست هناك أية مشكلة في أن تطوق حصاناً بذراعيك أو تخاطب شجرة بـ «حبيبة قلبي»، ولذا أراد أن يصبح كاتباً.

ثم يجد في شخصية ريتشارد ساندر، تجسيداً لشوقه، الذي هو شوق إلى الحرية قبل كل شيء.. إلى الفضاء. ولأنه يبقى لفترة طويلة الكاتب الأول، والوحيد الذي يتصل به، فإنه لم يمض وقت طويل حتى أصبحا يتقابلان بانتظام. كلما جاء إلى برلين ترسّخ كل ما يسمعه، ويتعلمه منه في نفسه

أكثر عمقا نظراً لصدق مضمونه. لولا تشجيع ريتشارد له لما تمسك بحلم كتابه الأول، ولولا كلمات «يجب عليك أن تكتب»، التي رغم أنها جاءت نوعا ما تحت تأثير الخمر، إلا أنه كان لها أثر قوي دائماً. «فولف»، الذي لا يزال حتى يومنا هذا إما أنه لا يفهم نفسه على الإطلاق وإما أنه يفهمها بدقة مبالغة، يتقبل هذه الجملة المقتضبة، والتي تتألق ما بين استنتاج موضوعي، وقضاء محتوم، وصيغة أمر بسيطة، من صاحب التجربة مثل قطعة النقود القيمة التي يخيطها في بطانة سترته، لكي يمسح عليها بأطراف أصابعه في لحظات التردد، خفية.

إنه يريد أن يكتب، ولكنه يعتقد مراتٍ ومراتٍ أنه لن يجيد الكتابة أبداً، فهو يستبعد بحكم أصله، إمكانية الاطلاع على سر يخص الكتابة، بحكم تعليمه الضعيف الذي لن يعوض عن ممارسة التجربة. إذ إنه ما الجدوى من أن يكون لدى المرء ما يقصه إذا لم يتمكن من تشكيله وتهيئته. غير أنه إلى جانب مساعدته له في الشؤون التقنية، والتي تتمثل بصورة رئيسة في إرغامه على ترك العاطفة من خلال نفض التجاويف وشطب النعوت، يظل الأسلوب الجدي وغير المتكلف في الوقت نفسه، والذي يطلعه به ريتشارد على مثال ذاته أن كل شيء في النهاية مسألة مثابرة كما أنه أيضاً في الفن لا يتم

الطهي إلا بالماء.. هو الذي يشجعه المرة بعد المرة. «والآن هيا إلى الطعام.»، يقول فور الانتهاء من مناقشة أول مجموعة من الأبيات الشعرية لـ«فولف». «السر يأتي بعد ذلك مع قدح العرق».

يسكن بيتاً من مساكن الطبقة البرجوازية العليا في شارلوتنبرغ، ودهليز شقته، أو الجزء الذي يمكن رؤيته من عتبة الباب، مكسوة جدرانه حتى السقف بإعلانات معارضه الشخصية، وقراءاته، وكتبه الحديثة، الأمر الذي لا يثير شكوك فولف في بادئ الأمر. يخيل له أن ذلك مما تجري به العادة أو حتى من الضروريات في الأوساط الفنية. توجد هناك حجرة يكتب فيها ريتشارد، وأخرى للرسم.. تفصل بينهما أيضاً مكتبة زاخرة بمنشوراته الشخصية. إذا كان الأمر يتعلق بمقتطفات أدبية مختارة، فعلّم مكان مقاله بقصاصات صغيرة من الورق.. جدران الحجرة البرلينية الضخمة علقت عليها أغطية أفريقية، وأقنعة نحتية، وتنميشات في أطرٍ من الفضة، معظمها لصاحب البيت شخصياً. وبين الحين والآخر تقام هنا الحفلات الصغيرة، مع النبيذ البادني، والحساء، والكفتة. وقد تلقى المحاضرات، أو تجرى الحوارات المدارة والتي يجلس فيها الحضور بين قطع الأثاث القليلة على الأرضية الباركيه كما في الستينيات. ريتشارد، الذي يذكر

له الكثيرون موهبة الصداقة، والذي تملك معانقاته المصحوبة بلقب «عزيزي..». الإلزامي أيضاً شيئاً محصلاً، يهوى جمع الشعراء الشباب حوله، من ذوي الطلعة البهية في الغالب، ومدرسي جامعة برلين الحرة النحلاء، وقليلي الكلام من الرسامين، وهذا أو ذاك من نجوم ركن الأدب والفن أو مؤلفي الكتب المدرسية، وإلى جانب تعرفهم إليه تربط بينهم على ما يبدو ثلاثة أشياء: الرغبة في نوع مريح من الاختلاف، في بوهيمية المزاج، والكحول حتى أعلى النسب، والميل إلى النساء اللاتي لا يؤلمن.. المربيات الاجتماعيات أو محبات موسيقى الجاز ذوات الشعر القشي والملابس الواسعة، اللاتي انزوت بارقتهن السابقة عميقاً في قلوبهن المعبأة بالدخان.

كذلك قرأ «فولف» هنا من نصوصه للمرة الأولى بصوتٍ خافتٍ، مرتعش إلى داخل حواف المسودة، وبسرعة من شدة الخجل، كما لو أنه يود الهروب من خطر فهم الجمهور. يجعله انتباههم الصامت، أكثر وحدة من أي وقت كان، بل أكثر تشككاً كذلك. كل الصور تسمع كأنها ورق، كل جناس أو سجع يظهر تبرّجه.. كل ذروة لا طعم لها لمجرد أنها تريد أن تصبح ذروة، وأمام الإيماءات المثقفة بالرأس والتنهيدة أو النحنحة هنا وهناك بين حين وآخر، يشعر وكأنه لا شيء أو عارٍ يعرض وشومه بمناسبة حفل تدشين الكنيسة.

الصمت بعد انتهاء القراءة حفرة بلا أرض.. لا يبدأ التصفيق إلا شيئاً فشيئاً، ووقعه من مسمعه أرفع منه لدى الآخرين، المناقشة يضحى بها في سبيل شربة عكاوي، واستياء من نفسه يقرر أنه لن يكتب أبداً ولو حتى سطراً.. لشدة يأسه يمزق المسودة في الحمام.

بعد ذلك، وبينما كان آخر قد بدأ بالقراءة منذ فترة وهو يقف في المطبخ ويلتهم البطاطس المشربة بالمايونيز، بادره ناشر بالكلام.

فصل الصيف الثاني لهما في فريدرخسهاين على وشك الانتهاء، وأزهار الهيدرانجيا البيضاء سابقا باتت خضراء منطفئة. يضفي الضوء على أجزاء من نواراتها الخيمية، لمعة بنفسجية رقيقة، إلا أن الطقس لا يزال حاراً، وأوراق الخريف الطرية لا تزال عالقة على الأشجار، وكذلك الطيور لم تغادر بعد أعشاشها. تتجمع الزرازير على وجه الخصوص مساءً في الغابات على طول الضفاف.. تسمع في هامات أشجار البلوط، وبداخل أشجار الصنوبر الضخمة من دون أن يظهر منها أكثر من منقار أصفر هنا أو هناك أو شيء من بريق الغشاء الدهني الذي يكسو ريشها. وما إن يغمض المرء عينيه، تبدو له ثرثرتها المتواصلة في نغم مترنم، صرصرتها، وشدوها، وصراخها هنالك بالأعلى تماماً كما في الأساطير،

وكأنه واقف في قبو ورشة لصقل البلور.

ثم ما تلبث أن تصمت من جديد، على حين غرةٍ، بحيث يشعر المرء بالدوار، وترتفع مندفعة إلى السماء كي تتشبع بآخر حرارة الشمس الغاربة، ولتتدرب أغلب الظن أيضاً على الرحلة الطويلة إلى الجنوب في بضع دوائر، وحلقات راقصة أعلى فأعلى. خلف الأسراب الكبيرة تبدو قبة المرصد الفلكي، والطائرات النفاثة المتجهة ببطء نحو مطار شونيفيلد كالطيف. أما إذا مشى أحدهم على امتدادها فتظلم عليه الطريق ويأخذه الفكر إلى قصاصة من القماش الناعم يلوح بها في الهواء، إلى رفرفة أوشحة سوداء وامتلائها بالهواء، إلا أنها عن بعد تبدو كالتهليل، تلك الرقصات في تشكيلات، كفرحة السماء.

على الـ «تويفل زيه»، وهي بحيرة صغيرة في قلب الغابة، يوجد مبنى لمطعم سابق للمتنزهين.. له أسوار مسننة على السطح قد نمت عليها الطحالب، وبرج يرفرف عليه علم «لانجنيزه». الآن لقد أصبح في داخله مركز للساونا، به حمام بخار، وبانيا روسية، وحمام تركي. تقدم عبوات الأعشاب والمساجات اليابانية «شياتسو»، وهناك ملعب للصغار على مرج شاطئ البحيرة المسيج، وقفص كبير ممتلئ بالطيور المغردة الغريبة، وحديقة تيه من أسيجة الشجيرات أعلى من ارتفاع

الرجل. في وسطها، في سرادق رحيب ذي قبو زجاجي، يمكن الاسترخاء على ضوء المصابيح الشرقية المعلقة، وهناك ماكينة للبيع الآلي للمشروبات بجانب الباب.

ولأنه جهز بسرعة، وبأقل تكلفة ممكنة بعد سقوط الجدار، فإن المركز يبدو منذ زمن في حاجة إلى بعض الإصلاحات، ولكنه حافل بالزوار. السيدة على الصندوق، شقراء قاربت الشيخوخة، كما أن أظافرها ذات اللونين مزينة بلمعة الكريستال. خزانة واحدة من خزائن حجرة ما من دولاب واحد بين الدواليب بحجرة تغيير الملابس الضيقة ظلت على هيئة تركيبها نفسها، فالمفصلات والأقفال الإضافية في كل مكان، والرطوبة هنا عالية لدرجة أن ألواح الخشب الرقائقي المضغوط، تتمدد وتتدلى شرائط لونها الفيروزي من خشب القشرة كالخوص على الممر.

أما الأدشاش فإنها على ما يرام، وهي مصنوعة من الحديد الصلب كما أن غرف الساونا المختلفة كما تبدو في كل مكان، حيث توجد واحدة حرارتها أربعون درجة مئوية، وأخرى ستون، وواحدة تسعون، بإضاءة ملونة، وجميعها إلى جانب أنها ملآى بشباشب الحمام مكتظة بالناس بصورة مذهلة.. يتقارب الجالسون حتى يتسع المكان للكل، ويجدون صعوبة في عدم ملامسة جيرانهم. «فولف» يضع يديه على ركبتيه،

ويصغي إلى تغريد العصافير على شريط التسجيل، ويرجو من كل قلبه ألّا يكون عرق الجالس في الأعلى هو ما يتصبب على ظهره. الطوب الناري يطقطق.

أغلبية الموجودين هنا، يبدو أنهم زوار دائمون، وهم يرحبون ببعضهم، ويتمازحون، ويتسامرون طويلا، سواء أكان ذلك أثناء تصبب العرق أم على الممرات المرصعة بالبلاط، حيث ينظر الآخرون إليهما هو و«ألينا» مراراً وتكراراً، كأنما يمكن تمييزهما كغربيين ولو حتى من دون ملابس، وهما على الأرجح كذلك، وذلك لأن التردد والخجل الطفيف اللذين يصدران منهما في هذا المكان غير الاعتيادي لا يعرفهما غالبية الزوار إطلاقا. هؤلاء الناس الذين تتراوح أعمارهم بين الثلاثين والسبعين يظهرون عوراتهم كأي لباس غير رسمي آخر. ومن الواضح أنهم يشعرون بالارتياح في داخلهم. يبدو أن بعضهم زملاء في العمل.. مدير مكتب يتناقش مع أحد الموظفين حول مشكلات الشحن، وممرضتان تقدمان التحية لدكتور لم يصبح عارياً إلا من لقب دكتور.. تدوي ضحكة مجلجلة فوق البحيرة.

بعد جلسة الساونا الثانية، يقصدان غرفة الثلج. رفوف النظارات إلى جانب الباب ممتلئة عن آخرها. أحياناً تتشابك الأطر مع بعضها. «ألينا» تلهث بعلو صوتها وتصرخ بينما

كان يمسح على بشرتها بالثلج الذي قد حكه من على الحائط قبل ذلك. ردفاها يحمّران والكتفان جميلتان، كما أن وجنتيها شاحبتان وهما في العادة تتوهجان. الأبيض في العينين خالص النقاء، وعندما يخرجان من الغرفة ويتمشيان على المرج المبلل بندى المساء، يمرر نسيم الهواء القشعريرة على الجسد، وكأنما قد رشا برذاذ رقيق جداً. قد أدغشت الدنيا تقريباً تحت الأشجار، ولكن هناك ناراً مشتعلة على شاطئ البحيرة، كما أن المياه فاترة، والطين ملمسه بين أصابع القدم كالسائل مخملي.

يسبحان مسافة طويلة في جنح الليل، ويبحثان عن النجوم بلا جدوى. في مكان ما وعلى مقربة تطقطق أغصان، وتخشخش أعواد الغاب، ثم يصرخ طائر في القفص. وسط شجيرات حديقة التيه التي أصبحت مكتنزة كالمبنى تخفق مصابيح قرب الأرض، ويتجول الناس خلف الأغصان. أخيلتهم لا تتضح معالمها دوماً إلا قصيراً.. ظلال زائلة، و«فولف» لا يعرف سبب همسه، بينما هو يجفف لـ«ألينا» ظهرها. يتمدد عضوه دون أن ينتصب، وكذلك هي تنشفه، ببطء شديد، وبتأنٍ، حتى أنها ترفع خصيتيه، ثم تبتسم ابتسامة غامضة، بزاوية واحدة من فمها، وتربط الفوطة حول خاصرتيها، ثم تدير نظرها إليه قصيراً.

الطرق داخل حديقة التيه ضيقة، فهي لا تكاد تتسع إلا لاثنين يقفان جنبا إلى جنب. ولأنه قد شكّلتها بواطن أقدام عارية لا حصر لها، فإن الأرض الطينية تملك رغم صلادتها قسطاً من اللدانة، وهذه الخطوات تحصل من تلقاء نفسها، والضوء الناشب عن الممرات الموازية، يرسم أشكالاً زركشية من أغصان وأوراق على جسميهما. كما أن طفلين في الأساطير يسيران ممسكين بيدي بعضهما، ومنصتين دون أن يسمعا أكثر من الموسيقى القادمة من وسط الحديقة.. أغنية لفريق «كارات»، وما أن يدورا حول أول ناصية حتى يثبتا في مكانهما في فزع. في ركن من الأركان يجلس رجلان على طاولة حجرية، ولولا دخان السجائر المتجعد الضارب إلى الزرقة، لأمكن اعتبارهما بمناشفهما المتدلية، وجهات الظل في وجهيهما الجادين تمثالين أو شيخين رومانيين. ولكنهما فقط يلعبان الشطرنج في صمت.

بدأت الرياح تهبّ عاليا، هامات الأشجار تصدر حفيفاً دون أن نستطيع رؤيتها. إلا أن نجوما منفردة تتلألأ الآن. في الممر التالي يستند رجل ذو عضلات لامعة بلون يكاد يكون ذهبياً إلى شجرة ويبدو في انتظار أحد أو شيء ما. لا يرتدي سوى قلادة قصيرة حول عنقه فيها علامات عسكرية، وعضوه الضخم أيضاً يبدو وكأنه مزيت. يرد

تحيتهما بإيماءة رأس، وما كادا يتجاوزانه حتى دلفت ذراع قوية البنيان من وسط السياج الشجري، وتمتد يد عليها بقع شيخوخة إلى مؤخرته.. تختفي إصبع في داخلها حتى الخاتم. لا تبدو على الرجل أي علامات الدهشة. حقا إنه يفرد ظهره متأوهاً بصوت خافت ويغمض عينيه، لكنه لا يتوقف عن مضغ اللبان.

قبل أن يفضي الطريق إلى الميدان الصغير حيث الشازلونجات والسرداق المضاء كاملاً بالمصابيح، هناك زقاق نهايته مسدودة، وتوجد فيه مناديل ورقية، وعوازل ذكرية ملقاةعلى الأرض. ما من أحد موجود، و«ألينا» التي يتلألأ في عينيها شيء شبيه بالقطط، هول السعادة، تتبادل معه لمسات صامتة تحت الملابس الخفيفة، ثم تمدّ يدها سريعاً، وكأنه الساعد أو اليد، إلى قضيبة النصف متصلب، وتشده إلى داخل الظلام.. الناس يتحركون خلف السياج الشجري.. أفراداً وجماعاتٍ، والأخيلة ترتفع إلى أعلى، بينما هي تنزل على الركبتين لكل ما تبقى.. تدلكه بحركات خفيفة، ومع ذلك ممتازة، وهي تسنده بأطراف أصابعها، وتلمع كتفيها وخاصرتها البارزة في ضوء المصابيح الذي يتسلل من وسط الشجيرات.

«فولف» يرجع رأسه إلى الوراء، وينشب يديه الاثنتين

في شعرها.. تسمع أصواتاً من على الجانب الآخر. قرع كؤوس.. قهقهة خفيضة، وبينما تظن «ألينا» نفسها خافية عن الأعين، يدير هو نظره من زوايا العين في ما حوله مرات ومرات. الآن لقد أصبح منتعشاً ويشعر بأنه لن يحتاج إلى الكثير من الوقت، ما دام الجو خالياً لهما. يود أن يسحبها إلى أعلى، لكي يمارسه معها قياماً بصورة ما، إلا أنها تبقى جالسة القرفصاء، وتحك خدها في رأس قضيبه، وتلثم بشفتيها قطرة شفافة. « أخبرني، يا رفيقي، ما موقفنا بالضبط؟» بح صوتها، وأخيلة رموشها تبدو كالأشعة الدامسة.. «أما زلت تحبني؟»

«رباه!»، يقول متمتماً. «ماذا تقولين من هراء؟ هل جنّ جنونك؟ بالطبع إنني أحبك.. هيا، تابعي!»

غير أن «ألينا»، التي قد ثنت كوعها، لا تقوم سوى ببضع حركات خاطفة، مطوقة إياه بإبهاميها وسبابتيها، لكي تحافظ على انتصابه، ويكاد هذا السبب وحده يجعله يقذف. تثبت عينيها عليه أثناء ذلك.. حلمتاها اللتان كانتا لا تزالان منتفختين عند البحيرة، عادتا إلى ثدييها من جديد. «يا سلام»، تقول.«وأنا التي كنت أعتقد أن كلبنا تفوح منه رائحة شانيل. ولماذا تحبني؟ تكلم!»

تدوي الموسيقى في الغابة مجدداً.. بعض النساء يصحن

عالياً.. تصفق الأيادي على الايقاع، ويظهر الوميض خلف الأوراق، التي ليست بكثيفة، كأن العراة يرقصون. «لأنني معك لم يسبق أن تساءلت عن أية لماذا»، يتأوه، وتلك هي الحقيقة، ولكنها ليست بكاملة. إلا أن المزيد من الحديث في الوقت الراهن قد يضيق الشرايين. آلات «الباس» تدق الأرض، وتثير حكة في باطن القدم، وبعدما أدارت قوله في نفسها للحظة، تفرغ لهيجانه مرة أخرى، في استغراق تام، وتتوقف عن مصها وعضها الرقيق، أثناء ذلك أحياناً، وتميل برأسها جانباً بعض الشيء، وتتأمل القضيب اللامع، الذي ما زال يتمدد قبل القذف بقليل، وكأنه من صنعها.. ينحني فوقها ليقبلها، ولو كان بوسعه الآن أن يتكلم لقال: إنني لا أحبك فقط لأنك تعطيني شيئاً، فما أنا أغلب الظن بعارف قدر ذلك على النحو الذي تستحقين إلا نادراً. بل على الأرجح إنني أحبك لأن القليل، إن لم يكن ضئيلاً، والذي بوسعي أنا أن أعطيك إياه يقابل عندك أنت دون أي أحد آخر بأرض خصبة، ويترعرع في عينيكِ، في صوتك، في شعرك، وعلى هذا النحو تعيديه إلي.. هدية حماستك الخالصة، وجمالك، وفطنتك. وهذا يجعلني قوياً، وإنني في بعض الأحيان لأكاد أن أبكي من السعادة. و«ألينا»، التي تتساقط النقاط على ذقنها مثل ضوء القمر، تبتسم له وتنتصب..

تسحب القلفة على الحشفة من جديد باحتراس، وبعد ذلك أولاً تمسح نفسها بظهر يدها، ثم تمرر طرف لسانها على الشفتين. في ما بعد يقومان بجلسة ساونا أخرى.

مراتٍ ومراتٍ في أوائل الثمانينيات قام ريتشارد ساندر بدعوته إلى إيطاليا.. إلى بيته في تريورا بليغوريا. لم يكن بالنادر أن يرفق شيكا بتذكرة السفر. إنها مقاطعة منعزلة بأعلى هامات أشجار الصنوبر، ومطلة على القرية الصغيرة في الوادي وعلى الكنيسة التي تقع على ضفة النهر. على المنحدرات التي كانت آنذاك لا تزال ناعمة، وممتلئة بحدائق الخضراوات وأشجار الزيزفون الفواحة، ترعى الماعز من الصباح حتى المساء، وهي سوداء الوجه من منطقة إيميليا رومانيا، وذات قرون مقطوعة. الكثيرون يتسلقون في منطقة عشب الجنستا على حافة الوادي، ورنين أجراس أعناقهم الأجوف، تردد صداه الكتل الجيرية ذات الارتفاع الشاهق والتي يثرثر بها ينبوع هنا وآخر هناك، ولا تبدو كالجبال– إنها شخصيات من زمن آخر.. ليست حتماً مقطبة وجوهها توددا، بينما هي حانية جبهتها العارمة على التوافه البشرية.

كثيراً ما يستقلون سيارة ريتشارد الجيب، وهي عربة عسكرية حافلة بآثار الاصطدام والاحتكاك، على السهول العالية، حيث يصل البصر إلى «بيمونتي»، وعندما تكون

السماء صافية إلى تمثال المخلص «مونته ساكاريللو» على ناحية والبحر على الناحية الأخرى. لا يعيش هنا سوى رعاة الغنم، في أكشاك من الصفيح المضلع. وفي ليالي الصيف قد يلتفون على سيجارة حول نار متوهجة، قد أخفضتها الريح، أو على كوب نبيذ من العلبة الصفيحية. ريتشارد.. كثير الشرب دائماً، وسكران نادراً.. يتحدث «إيطالية» القرويين والفلاحين جامدة الشفتين، ويبدو أنه محبوب من الجيران، الذين يرعون البيت في الشتاء. لقد وضع شجر الجوز وأراضيه الزراعية تحت تصرفهم، وفي ما عدا ذلك هم لا يتطفلون. يلوح له الناس بأياديهم من بعيد، وعندما يقول شيئاً تنفرج بعض الأفواه في ابتسامة بلا أسنان.

«فولف» لا يستطيع سوى أن يكن له الإعجاب.. في نظره، إنه رجل سعيد الحظ يعيش حياة غاية في الطلاقة، ما من أمر مادي ينقصه، وكل الأبواب الفكرية مفتوحة أمامه، بلغات مختلفة. بأكمام البلوفر المشمرة، وسواك الأسنان بين الشفتين يبدو وكأنه وليد التو والساعة، فهو حتى عندما يقرفص ليتبول على زهور الداليا، أو يصب للقطة الحليب في منفضة السجائر، تتوافر في ذلك بصورة ما عناصر الذوق. يكتب ويرسم بصفة شبه متواصلة، وذلك من مطلع النهار حتى الليل، يطبخ بجانب ذلك الأكلات الفاخرة. ما من سنة

إلا ونشر فيها كتاباً أو اثنين، أو كتب صور، أو سلاسل رسوم تصويرية، ويومياً يتلقى الخطابات من معارض أو جرائد أو دور نشر تسأله عن أعمال، ولقاءات، كما يترك له معجبوه من المسافرين المارين، الهدايا على عتبة الباب، والنبيذ بالصناديق، والمربيات البيتية، ويحوز الجوائز في الداخل والخارج، وفوق ذلك له عشيقات في مدن مختلفة.. إنه يعيش حياة متألقة، بطولية في طبيعتها، دون أن يغير الملابس المبقعة بالألوان أبداً. ونظراً إلى أنه لا يعير نجاحاته أو النقد المتذمر، أقل اهتمام فإن ذلك يضاعف التألق بالنسبة لفولف.

بارقة نور.. هذا ما يعنيه بالنسبة إليه، ومع ذلك يوجد شيءٌ معتمُ في شخصه.. شيءٌ ما زال بارداً، ولا يقدر على تفسيره، ويحول دون أن تتوثق الصلة فعلياً في ما بينهما وبين حميمية فعلية. صحيح أن ريتشارد ينادي بالصديق كل من يشرب معه النبيذ بما يكفي، إلا أنه حينما يود الشاب الصغير، الذي يبوح له بسره متشكراً ومن دون قيد أو شرط، أن يعرف شيئاً عنه وعن مشاعره خارج النطاق الفني في ولع شبه طفولي بالتودد إليه، يبتسم فقط في فتور وبفكر شارد بعض الشيء، ويشير براحة إحدى اليدين قائلا: «ذلك، يا عزيزي، كله مكتوب في كتبي».

الظاهر أن ما تحويه هذه الإجابة من إهانة وعجرفة قد غاب

عن فطنته. ولعله يخشى أن يخسر إعجاباً، إذا ما تعامل بألفة مبالغة. على كل، من الواضح أنه غير معني بتوطيد صداقة يكونان فيها على مستوى واحدٍ، حتى ولو بعد سنين. ما زال يريد أن يقرأ ويصحح ما قد كتبه «فولف»، ولكن بالكاد لا يدعه ينظر في مسوداته بتاتاً، أو يدعه فقط إذا كان مقتنعا بكمالها. وإذا وجد الشاب الذي أصبح في غضون ذلك أكثر تأكداً من سداد حكمه وقد واجه الجمهور للمرة الأولى بديوان شعر صغير، مع ذلك شيئاً قابلاً للتحسين، أو صورة نمطية خافية مثلاً، أو لهجة خاطئة، فان ذلك يدعو الآخر في ذهول إلى الاستغراب، ويكاد يصدم، ويروح لبضع ثوانٍ في حال من التجمد الذي لا يحرك فيه شيئاً سوى عينيه، كمن يقف بظهره للحائط ويبحث خلف مضايقيه عن أبواب للهرب. بل وفي بعض الأحيان يعلو الاحمرار وجهه، وفي كل مرة تقريباً ينزع منه الورقة ويقول: «كلا، كلا، هذا خطأ.. إنك لم تقرأه على النحو السليم، يا عزيزي. ولو كنت ملماً بالأدب العالمي– وأنا ملمّ به– لاستطعت حتماً أن ترى ما الذي يميز هذا النص.. سأعطيه لك مرة أخرى لاحقاً».

ما هو إلا تهيب «فولف» المحترم، الذي يحول دون أن تأخذ عليه مثل هذه العبارات أنفاسه. كما أن ما تحمله من تعاظم ليس على هذا القدر من الفظاعة من النظرة الأولى،

لأن ريتشارد بالفعل على جانب عظيم من العلم. إن عمه كان كاتباً، صاحب مكتبة ضخمة، ومن ثم فما من مؤلف من بين المؤلفات الكلاسيكية إلا وقد قرأه– عدا ريلكه. لكن هذه وجهة نظر.. يقول مائلاً إلى التفاخر، والسيجاريللو[9] في فمه: «إنني بالأحرى أنتمي إلى ناحية بريشت!» وعلى هذا المنوال فهو أيضاً عليم بكل ما هو ناء منعزل. فإذا بدا من «فولف» على سبيل المثال، إعجاب بشاعر عاطفي فإننا لا ندري إذا ما كان قد اكتشف أبياته المترجمة في إحدى المكتبات التي تبتاع الكتب القديمة عن طريق المصادفة أم لا.. بإمكانه أن يكون على يقين من أن ريتشارد يعرفه منذ زمن، بل وأكثر من ذلك: إنه يعرف كل شيء عن مدرسة هذا الكاتب، وقام بدراسة مصادر إلهامه عن النسخ الأصلية. إنه حقاً يعرفها، ويسترسل في الكلام عنها بكل سرور. إنه يوفر له ارتياحاً ملحوظاً، بل وعلى ما يبدو يهدئ أعصابه.. ذلك اليقين من أنه لا يزال قارئاً أكثر من أي أحد آخر. إلا أنه لا إحساس له بأنه يعطب القيمة الداخلية لتلك المعرفة، من خلال تفاخره بها واعتقاده بأن بإمكانه تجاهل حقيقة أن الشعر يتأبى على من يسيء استخدامه كمادة تعليمية ويدفن إيروسيته تحت أكوام الكتب.. ذلك سيتركه يفتر.

(9) اسم يطلق على السيجار الصغير.

في ذات يوم، في أوائل الصيف يجلسان على هضبة فوق القرية.. العشب الطويل يتمايل مع الريح، ويلمع أثناء ذلك كالذهب الساطع. وفي هامات أشجار الكرز تتشاجر العصافير مع بعضها بعضاً، والصخور الساخنة، المتلألئة في ضوء الشمس، مبقعة من عصير الثمرات المتساقطة. حلاوة طعمها يفوق كل وصف.. يأكلان ملء اليدين، ويبصقان النوايا في الوادي.. هما صامتان.. يحسان بالعجز المطلق، وخاملان من جراء نبيذ الليلة. حالما فرغا من شرب النبيذ الأبيض، كان ريتشارد قد أحضر بوردو معتقاً، عمره أكثر من ستين عاماً من القبو، هدية امرأة غنية مشجعة للفنون. كان شبه أسود وممتلئاً بالجسيمات الغريبة، لدرجة أنهم سكبوه فوق مصفاة قهوة على سبيل الاحتياط.. لم تنسكب في الكوب سوى بضع نقاطٍ بطيئة. إلا أنه بما أن الأمر في مثل هذه الساعة المتأخرة كان أمر كحول فقط لا غير، فقد تجاهلا طعم العفونة الطفيف، وأفرغا الزجاجة في جوفيهما، وغرقا عقب ذلك في نوم شبه غيبوبي.

كان ريتشارد في ذلك الصباح قد تلقى إلى جانب بريد آخر خطابا من أكاديمية ما.. استفتاء حول فهم النفس لدى الكاتب، والذي صحيح أنه قد دسه في حقيبته ناخراً في تهكم، ولكنه تحت أشجار الكرز يخرجه مجدداً. الريح

يجعلها ترفرف، الورقة، ولما يسأل الشاب في مجون ظاهر عما هو بكاتب في رأيه، يستشف الآخر من نبرته التربوية الخافية أنه يعرف ذلك منذ زمن ويتوقع منه أيضاً الإجابة نفسها، أو مستعد أن يعلمها له. ربما لهذا السبب يهز فولف كتفيه. إن الأكاديمية لا تعني بالنسبة إليه سوى شيء معفر، أو منشة ثقافة لا يرغب في أن يكون له أي شأن بها، ولا حتى هنا، مع الرياح تحت السحاب. بيد أن ريتشارد في الظاهر قد اعتزم على أن يسلب النهار ما هو حالم، وأن يعمل ذهنه بما تبقى من كحول. «إن ما في ذلك كلام»، يقول. «أرجوك. وماذا قد يكون أكثر رفعة للكاتب من التنوير. إنه لجوهر كل أدب.. أنا على كل حال أريد التنوير، أتفهمني؟»

إن هذا، رغم تلك اللهجة المنبرية، مفهوم لمن ذهب إلى المدرسة في عصر النازية ووقت الحرب، ومن شاهد بعينيه بيت أسرته يشتعل ناراً، ومن نبش الأرض وسط الأنقاض بحثاً عمّا يؤكل ووجد جثثا، ومن صادفت سن بلوغه وأولى محاولات تفكيره أيام أديناور. لكن قوله يقع من مسمعه أيضاً موقعاً يشبه ورق الصحف بصورة مريبة، والمقالات الافتتاحية في ركن الأدب، وخاصة من قبل شخص عادة لا يتكلم عن ذلك إلا بازدراء، وفولف يعزو إلى ما تخلفه الخمر أن ريتشارد ليست له وجهة نظر في ما يحويه ذلك

من اطالة، لا تسمع أذنه النغمة الجوفاء. أما عن نفسه، حول من أو ما الذي عليه تنويره؟ من منظوره يتطلب ذلك نظرة شاملة هو ليس بمالكها، ولتوافر ذلك ما زال الكثير غائباً عن فطنته الشخصية. أن يكتب وعن ذاته، عن تجاربه، إنه ليجد في ذلك من المشقة ما فيه الكفاية.. التنوير بكل بساطة كلمة كبيرة عليه. «لا أدري»، يقول ويستلقي على العشب الدافئ.. يشبك أصابعه خلف رقبته. «إن أي مغفل من القرية بإمكانه أن ينورني، أما أنا فأغلب الظن أنني أميل إلى الافتتان».

ينظر الأشيب إلى السماء ويضحك، ضحكة باهتة، لا يبدو عليها البرود فقط، لأن أسنانه سيئة، مصفر.. يطوي الخطاب من جديد. «عجباً، يا هذا! من يسمعك يحسب أنك متعلم بنفسك.هل ستصبح في النهاية رومانسياً؟»

«سأصبح ماذا؟»، يسأل «فولف» ويهز رأسه سلباً.. ذاك مؤلم. يغلق العينين قصيراً. «لم أخلق لمثل هذا، فما الرومانسية إلا روحانية لدافعي الضرائب».

ريتشارد يصق. « آه! والروح القدس تنطق بلسانك، أم ماذا؟»

لقد أصبح «فولف» ضجراً بطبيعة الحال.. منذ فترة وهو لديه شعور بأن الآخر يرى فيه شيئاً هو لم يكنه سوى جزئياً

وسيكونه دوماً بصفة متناقصة. ما دام بحكم أصله غليظاً، ويكتب بلفتة موضوعية عن أماكن البناء، أو المطابخ الكبيرة، أو أقسام السرطان، أو غرف التشريح، فإنه ليس بحاجة إلى أن يبالي بموافقة ريتشارد. وأكثر من ذلك أنه يستشف من وراء لهجته في بعض الأحيان، حقداً خافتاً على تجاربه. ولكن إذا ما حاول أن يعبر عما يدور من وراء الصور المعبرة والآراء الواضحة، والأفكار والأحاسيس البعيدة عن الإدراك، والتي لا يستبعد أن تكون لهذا السبب الأكثر صدقاً، يخرج الأشيب القلم الأحمر على الفور، بينما يسمع قوله مومئاً برأسه «هذا ليس أنت!» مع مرور السنين كثيراً ما كنت «ما هذا الهراء؟ كن مثلي!»

«ما ينطق بلساني هو شعور الخمار»، يقول فولف رامياً نظره إلى الجدران الجبلية العالية، التي تحكي الطبقات الجيرية أو المارلية الخشنة أو الناعمة المختلفة، الممتلئة بالقواقع والحلزونات ورؤوس الأسماك كأسطر رمادية عن زمن لم يكن فيه هنا سوى الماء، وجود متكامل بلا حراك تحت النجوم التي لم يكن لها عهد بالبشر. «ولكنك على حق، أن المرء في النهاية أكثر تديناً مما يظن».

لم يكن الغرض من وراء ذلك استفزازياً إلى الدرجة التي يفهمها ريتشارد إطلاقا، أو التي يريد فهمها. منذ الصباح

الباكر وثمة استياء كان عاقداً له حاجبيه إذ كان الشرر يتطاير من عينيه.. أخذ يدخن الواحدة تلو الأخرى ويخبط التعشيقات في الترس بحيث أنه قرقع، والآن يبدو أنه قد ارتاح تقريباً إلى ذلك الداعي، إلى انفجار ينتشله من ارتجاجه الداخلي. كبشة الكرز.. إنه يقذف بها إلى الشجرة، حيث اقتطفها ويمسح أصابعه في البنطلون. «أتدري ماذا أعتقد، يا عزيزي؟ ما الذي تبيّنه لي الساعة؟ أنك أيضاً مغفل بعض الشيء.. أليس كذلك؟» وعندما يغمض «فولف» – وفي فمه عود– عينيه مرة أخرى، ويبتسم بشماتة، يعلو صوته أكثر مما يتلاءم مع هيئته.. فجأة يسمع كأنه شبه مبحوح. «إنك لم تفهم أي شيء من الحياة على وجه الإطلاق، يا بني آدم! كيف يمكن لمخلوق أن يتفوه بمثل هذا الهراء؟ لولا أنني أعرف قصائدك... يعني، إنك لحمار، ألست كذلك؟ معتوه لعين! أنت ليس لديك أدنى فكرة عما تقول!»

إن الرغبة في أن يكون قد أخطأ السمع لقوية، إلى حد أنها تأخر التأثير العميق للجعجعة. ينتصب «فولف» بطيئاً وينظر، في وجه الآخر الذي يبدو وكأنما قد أظلمه احتقان مفاجئ للدم، ويتمنى في طرفة عين لو أنه قد شعر بالخجل من ثورة غضبه التي لا يمكن إلقاء تبعتها إلا على الدورة الدموية التي ما زالت تضخ في جسده السم. لم يسبق لهما أن تشاجرا أبدا

حتى الآن.. كان احترامه له لا يزال يعلي من شأن سجايا ريتشارد المرية، وتعاطفه معه كان دائماً سابقة لعدم لباقته بقليل. غير أن «فولف» حينما يبذل محاولة يائسة للتهوين من سوء ما قيل بالإشارة إلى النبيذ الشيطاني، ويكون أكثر من ذلك على استعداد لأن يتراجع عن كلامه في سبيل ألفتهما، لا يسع الآخر سوى أن يصيح بصوت أعلى.. يا له من قفل، يا له من غريب أطوار بميتافيزيقية حقائبه، بالروحانية المستمدة من غليون الحشيش، ومدى خيبة ظنه فيه على ما يبدو، ويضرب في ذلك على هيكل سيارته الجيب، كي يردد الجبل صداه. «متدين!» يصرخ. «متدين! لا تعد على مسمعي هذا الروث! وكأنك لا تعلم ما الذي عملته الأديان في الدنيا! ذلك الضباب النفسي من أولها إلى آخرها..».

هذا كلّه يبعث على الضحك.. يبدو الأمر لـ«فولف» وكأنه هنا بصدد اختبار قدراته المسرحية. ولكن بما أنه كان دوماً يرى أن إحدى أكبر النعم في حياته تتمثل في فهم الشائب له، ومعرفته به التي تتغلغل إلى لب العظام، إلى أدق خبايا الأفكار، فهو الآن لا يدري ماذا سيحدث له. فالطاقة التي أمده بها التشجيع، والتأييد الحافل بالأمل المبشر، والنزاهة التي كانت دوماً سابحة في جوانحه مثل العلامة المائية حتى ذلك الحين يبدو وأنها قد محيت منه لسبب غامض. الكلأ أمام

قدميه يسيل مع الريح، والسحب تنطلق على جناح السرعة نحو البحر، و«فولف»، الذي لا يدري حتى ما الخطأ الذي ارتكبه، بل ويتساءل حائراً عمّا إذا كان ريتشارد، الذي كان يعتقد في فترة من الفترات بأنه يرى عليه علامات إثارة جنسية مثلية صامتة، مجرد شاذٍ ويروّح الآن عن خيبة أمله في محاولة اقتراب لا طائل منها، حيث إنها لم تُلحظ.. يشعر «فولف» بقلبه يهبط، ويحبس الدموع الأولى.

في غضون ذلك تتمخّض عن مجون الآخر، لعنات تزداد بذاءتها، وكأنه ثائر على شيء ما في داخل نفسه. وفي ذلك يبدو مستمتعاً بنزوة غضبه إلى أقصى حد، وظاناً أن أقواله كلها معانٍ ذات شأن وحدة، لأنها مناسبة للصياح. في حين أن الشاب يبدأ الشعور بأن السذاجة قد تكون شيئاً لاذعاً، وأن البلاهة تهين. ذقنه ترتعش.. قاع الوادي يغيم أمام ناظريه، صفرة الجنستا، وأثناء عودتهما بالسيارة إلى البيت، عبر طرق كثيرة المنحنيات وفي صمت يبلغ من كثافته أن يسبب ألماً في الحلق، ينظر مستجمعاً كل طاقته من النافذة الجانبية إلى سماء الليل، لكي لا يرى ريتشارد وجهه المبتل. تترقرق الدموع على الكتاب في حجره.

لا يأكل شيئاً، ولا يشرب شيئاً، بل يأوى إلى الفراش. هذا ليس بمعقول، تلك هي الفكرة التي يرددها مثل مقطع ديني

أثناء الصلاة، هذا كله مجرد حلم بشع. ومع ذلك فإنه يحس إحساساً قوياً بأن هذا الموقف لا يعزى إلى الكحول وحدها، بأن ثمة صدفاً وحسمية يكمنان في طياته، يتواصل تأثيرهما في أحلامه حتى مطلع النهار، ثم تساعدانه في النهاية على الإفاقة من كثرة التفكير. حقاً، إن صياح الديوك يرنّ رنين الهواء الصدئ، ولكنه يفاجأ بأنه ليس خائر القوى، وبأنه على الرغم حتى من قلة نومه ليس بمغموم فعلياً. بل على الأرجح يشعر بانشراح صدره وبأنه يستطيع تنفس الصعداء، كأنما قد سقط عنه شيء مقبض، وغير تابع له فعلياً أثناء الليل، نحو قشرة مؤلمة، عضو غريب.

يصدر عن المبنى الملاصق صوت شخيرٍ عالٍ، وهو لا يزال يرتاب بذلك النشاط الغريب. إلا أنه بعد الاستحمام وفنجان القهوة السادة، حينما تخترق أشعة الشمس الأولى غابات الزيتون في المشرق، وتصور خيال ظله على الحائط، يحس إحساساً قوياً بأنه قد تحرر من الإطار الذي كان ريتشارد قد حدده له، والذي لا يكاد يتشابه مع صورة خيال نفسه أكثر من رسم طيارٍ على الرمال وشخصٍ حي، ويحزم حقيبته البحرية ويغادر الفناء. بقميص مفتوح والحذاء في يده ينزل المنحدر المندى حافي القدمين بين الأشجار العتيقة، التي اعتصرتها الريح، وبينما تغشى الغرابة فرحته بهذه الحرية

الجديدة، بالأمل في طريق آخر من غير وصيّ، لا يسعه سوى أن يضحك حين يخطر على باله أنه الآن سيفيق إلى نفسه فعلياً.

صحيح أنهما ظلا يلتقيان في ما بعد من حين لآخر، ويكتبان لبعضهما بعضاً هذه البطاقة أو تلك، ولكن السحر قد زال. فالإعجاب، من الظاهر أنه ينقلب بسهولة ضد هذا الذي لا يتنصل منه في اللحظة المناسبة التي يتمتع بها أطول مما ينبغي.. يتمتع بها من الأساس. الفطنة ونضارة الفكر التي صنع ريتشارد بها سمعة الملهم لنفسه اتضح مع البعد المتزايد للمسافة في ما بينهما وعلى ضوء الإعادات التي لم يكن هو نفسه بمدركها، والتي وردت أيضاً بصفة متزايدة في كتبه أنهما تجربة جدباء، حيث يسهل الحصول على هذه الإعادات في أي وقت، من صندوق قصاص الورق، وفولف اشمئز أكثر فأكثر من السلطة الأزلية بين الضرورة المزعومة للخلق الفني، والحذلقة الفارغة المصحوبة بالحركات الاستعراضية، ووتيرة البوهيمية الاصطناعية لمن لا يقبل بأنه يتقدم سناً ويبدل الحرية الداخلية بطريقة معينة لطرح الشال فوق الكتفين.

والآن إذاً الخطاب، الخط المرتعش. تفوح من الورقة رائحة هواء الجبال العطر، يود لو يلوح لعينيه. وحين لم تبدُ من «فولف» أي ردة فعل، أيضاً مكالمة مفقودة ورسالة

صوتية على جهاز الرد الآلي. الصوت على استحياء غريب، ولكنه تقريباً كما هو، بنفس النبرة الفضية، شيء مثير للدهشة بالنسبة لمن يتعدى عمره السبعين. ولكن مرة أخرى تلك الكلمة البغيضة، مزمزة الشفتين في لهجة مجامِلة، الصادرة عن زمن غائر منذ مدة طويلة: إنه يرغب في «زيارة» «فولف». هذا وحده يوقف الشعيرات على ظهور أصابعه، خاصة وأن ما يبعثه في نفسه من أثر أشبه بعبارة «أما زلت تذكر..».. الجياشة بالمشاعر على مائدة الشاي. ثم يترك رقم هاتفه، ويقطع صوت نسائي في الخلفية عليه حديثه فيستدرك ما قاله، ويضع السماعة.

«فولف» لا يتصل، ولا حتى عندما ترجو «ألينا» منه ذلك. ربما أنه مخطئ، ففي النهاية، إن الرجل له فضل عليه. وهو لم يعد يأخذ عليه شيئاً. ولكننا هكذا، لا نحب أولي الخير والبر علينا، ليس في كل مرحلة من مراحل حياتنا. إنها لذرة تكابر في فعلة الخير التي تمنحنا الشعور بأننا على حق في جحودنا للجميل.

-4-
أخبار ثقافية متنوعة

قرابة نهاية فصل الشتاء، تتجمد البحيرة ثانية. الجليد غير سميك، وكلّما التقى زورق بتلك المساحة الواسعة أو هبط عليها سرب من الغربان تهتز، والهواء من تحتها يتغنى على الشاطئ، فوق أوراق العام الأسبق والحصوات. بالليل في بعض الأحيان، حينما يكون واقفاً على الشرفة الصغيرة أمام غرفة مكتبه، يتسنى له أن يسمعه. البيوت مظلمة، والشوارع ساكنة، وتحت تراكمات الثلوج الرقيقة على نوافذ السيارات الراكنة تومض أزرار أنظمة الحماية ضد السرقة.

ما تلبث قرقرة قطار بضائع طويل، لا نهاية له تقريباً، أن تتبدد، حتى يمر ثعلب في حركة لولبية رشيقة على الممشى.. حيوان هزيل له ذيل كثيف الفرو، يرفع رأسه متشمماً مراتٍ ومراتٍ، وفي ضوء المصابيح الشاحب يلمع الشعر على أذنيه المنتصبتين. كان قد أصبح على بعد بضعة بيوت عندما أغلق «فولف»، بعد أن قرأ رسالة SMS، تليفونه المحمول، ومع ذلك يبدو أنه يسمع الصافرة الخافية، غير المسموعة تقريباً. بعد أن يتنحى جانباً كما من شدة فزعه، يخطو خطوة إلى الأمام وينظر من فوق كتفه. ولكنه في الحال يهدأ روعه

ويقصر الطريق إلى المتنزه. في ما بعد يصدر صوت من وسط الشجيرات في مكان ما، آهات متحشرجة، شاكية بلا ريب، وتحيط بها هالة من الوحدة الممتدة إلى غابات بعيدة، وترد عليها الكلاب خلف الستائر والمصارع الجرارة في المنازل المحيطة بنباح وعواء فوضويين.

بعد ملاحظة ألينا بشأن رائحة «ويبستر» لفت نظره للمرة الأولى مدى الحرارة التي كانت دوماً تستقبله بها عندما يعود به إلى البيت، حيث كانت تعانقه وتقبله ممرغة وجهها في فروه، الذي يبدو بالفعل أنه يحتفظ بالروائح والعطور الغريبة لمدة أطول من شعر الإنسان أو الملابس. منذ ذلك الحين لم يعد يصطحبه معه عندما يذهب إلى «شارلوتيه». وعلى أي حال، كان يجد دوماً وجود الكلب عتاباً صامتاً. لأن لون فروه بالكاد كان يتميز عن الأرضية الداكنة في شقتها، فهو أحياناً لم يرَ سوى العينين الكهرمانيتين الفاتحتين في الركن.. نظرة بدت له أكثر حزناً كلما ازدادا انهماكاً أو اشتدت حدتهما في ممارسته على الأريكة الغالية. فحتى لهاث الحيوان بدا له في تلك الأوقات مستنكراً، وتثاؤبه مستهزئاً.

لأنه حتى بعد مرور أكثر من عام من السرية، من دون أن يجري ذكر للحب، يسعفان نفسيهما بالسخرية الخفيفة. «شارلوتيه» على كل حال ليس بالنادر أن تكشف بعد

استقبالٍ حارٍ، بل ولاهث- بالكاد يمكنه أن يرى الدفعة التي تعطيها لنفسها- عن صرامة شامتة، فهي على ما يبدو تجد الأمر ضرورياً أن تشير إليه بذقنٍ مرفوعة، ووجه منمق بدقة بأنها هنا تتكرم عليه بنعمة، لا بل تحسن إليه، وأن عليه أن يكون شاكرا لها. ففي النهاية، إن لديها ارتباطاتٍ، ويخطب ودها الكثيرون، فتليفونها لا يسكت أبداً، وحتى الذكور من طلابها يتغزلون بها. وفي ذلك، كثيراً ما ترتدي من الفساتين، أو الملابس الداخلية التي تحز في الجلد حزّاً ما كان قد تمناه في ما بينه وبين نفسه، فليس الشفاف من هذا المهرجان ما كان يعكر عليه مزاجه بقدر ما كانت تلك البداهة المكشوفة، المجردة من الحياء والتي تتوقع بها منه ألا يسبر غرورها. لا سيما وأنها بالكاد لا تثبت أبداً أنها قادرة على مواجهة الحمية الجامحة التي تبغي إطلاق عنانها لمراودتها.

إنها قد بلغت سن اليأس، ولذا فإنها ليست دائماً مبللة، وخاصة عندما يكون متعجلاً التوغل بين فخذيها. في بعض الأحيان يكون طعمها أدوية، والأمر الجديد أنها تريد أن تدلك أولاً.. من العنق حتى باطن القدمين.. زجاجة زيت اللافندر موجودة دائماً بجوار السرير. صحيح أنه يذعن لها بطاعة صماء، حينما تنذره بتجنب اللهوجة أثناء التدليك، إلا أنه نادراً ما ينقضي الكثير من الوقت حتى تتحول لمساته

من رقيقة حنونة إلى ملحة، ويغرس حدود صبره بأظافره في جلدها. أن يعاملها بغلظة، بل وبوضاعة، وأن يدس أصابعه في فمها، ويسبّها بكل ما يجود به متن لغته البروليتارية، فتلك هي طريقة انتقامه في بعض الأيام، لكونها في وهج أوهامها بالكاد لا تريد منه أكثر من جسد عامل.

لكي لا يمنحها الفرصة للتعجرف عليه، فهو صحيح قلما يبدي أية رغبات، ولكنه ينغمس مع «شارلوتيه» من الشهوات في ما لا يرتضيه لـ«ألينا» عن استحياء أو عطف. يستلقي في البانيو الخالي، ويدعها تبول عليه، ثم يضربها على مؤخرتها حتى تتلون بحمرة غامقة، ويقذف في وجهها، أو على شعرها المصبوغ حديثاً، ويولج في عاصرتها في دون سابق إنذار، في حين أنه يخيل إليه أنها لا تستمتع بالألم فحسب، بل وأيضاً بنفسها وهي تتنهنه بلا حول ولا قوة.

تعشق أشد العشق، وهي الأستاذة الجامعية، أن يناديها بالقذرة أو العاهرة، وتدعه يفعل بها ما يريد ما دامت تحصل في النهاية على نشوتها. وهي لا تزال على ذاك التوهج الجارف، الذي يشعل في القصائد الشموع وسط الجليد.

ثم تلتصق به، وتظل ترتجف فترة طويلة، ويقبّل هو الدموع من على وجهها. أحياناً يكون في صوتها شيء هادئ، وأحياناً ترتسم على وجهها ابتسامة كمن تم خلاصه.

ويبقيان مستلقيين إلى جانب بعضهما، يتحدثان حديثاً لا وزن له حتى يجف العرق، ولكنه عندما يرتدي ملابسه بعد ذلك بساعة- مع حرصٍ شديد دائماً على أن يكون مرتدياً الجينز أمامها- تودعه في أغلب الأحيان بالقليل من الكلام، وعلى نحو بارد، أقرب ما يكون إلى الرسمي بينما تكون قد بدأت تصحيح أحد المستندات أو كتابة شيء ما على الحاسوب. كانت هذه النقطة السادسة على جدول الأعمال، يبدو أنها تريد أن تقول: النوم مع فولف، أو تتحدث مع صديقة أو أحد الرجال الآخرين على الهاتف، غير أنها لا تخفي أبداً أنه ما زال عندها، شاعرها الشاحب، ولكنه أوشك أن يرحل، تقريباً فقد راح، وتنظر في الساعة أثناء ذلك.

دائماً، أو بشكل شبه دائم ينزل على السلالم فرحاً، بل حراً، إلا أنه حتى وإن كان لتلك المرأة عليه فضل فإن له سرّاً، وأنه بذلك يشعر بشيء يشبه الاكتمال، إلا أنه كثيراً ما يجد صعوبة في أن يعيرها أهمية. وعلى الرغم من ذكريات أم قاسية القلب، اعتادت على أن توسعه ضرباً حتى الرمق الأخير، فقد حفظ في ذهنه تصوراً بأن الأنوثة شيء مشرق، ومجنح بنعومة ورقة، بل وأحياناً يمكنه أن يتصورها شيئاً له أشواك، ولكن يصعب عليه أن يتخيلها شيئاً ذا حافظة مستندات. يحيط بها أكثر من الكثير من الكوامن والخبايا.. أكثر من الكثير من

الصفات التشريفاتية الأكاديمية، والمهايطة الثقافية، والشراهة الغادرة بعد تحقيق النجاحات. تبالغ بصورة واضحة في جعله يشعر بأنها تتحمله هو وبلبلته، التي يدعوها بالشعر، بالكاد بداخل أطر عالمها العلمي وعلى هامش المناسبات التي لا يملك الملابس الملائمة التي تؤهله لحضورها. ورغم كل ذلك يدق المرة بعد المرة على بابها في الطابق الخامس، ومعه الزهور، لأن الشيء المتكابر في شخصيتها- صعوبة نيل انفراج ساقيها- هو بالتحديد الذي يبقيه على ولعه بشارلوتيه.

ورغم أمله في أن يمنح عدد السنوات التي بلغها من عمره لحياته قدسية، إلا أنه بوجه ما: لا يفكر بأن يحتفل بعيد ميلاده الخمسين بصورة أخرى، سوى بفنجان القهوة أو النقانق بالكاري مع البطاطس المحمرة. لم يسبق له أن أقام حفلاً أبداً، فالعادة اليومية في أغلب الأحيان هي أن يحتفل بما يكفي، ولا يريد أن يستوقف عمله. بيد أن «ألينا» لا تني بل إنها ترغب في القيام برحلة معه على الأقل في شهر أيار المشمس هذا العام، ربما إلى الشاطئ أو إلى الجبال، إلى نوار الكستناء والليلك. بعد احتفالات عيد الميلاد وكل ما يصحبها من زينة فإن أعياد ميلاده هي ما ينتفض له قلبها حماسة واضطراباً شبه طفولي، حيث إنها تعطيها الفرصة

كي تعبر عن محبتها له بالتمام والكمال، وبغمرة من الهدايا في أغلفة مكلفة وبأسعار باهظة أحياناً. لذلك تجد في الإهداء ما يفوق تلقي الهدايا نفسها من سعادة، على أنه ليس بالنادر أن تحمر وجنتاها، بل وأن ترتعش أيضاً خوفاً من ألّا تكون قد أصابت الاختيار، قبل أن تتلقى الفرحة والشكر كما المشروب الغازي في كأس من الزجاج المصقول.

إلا أنه بسبب ما تعلق عليها من توقعات رائعة بالذات، فما من مرة قد تمت إحاطة أعياد الميلاد العقدية هذه– إن شئت أن تسميها بالإطار الذهبي المنشود– إلا وتكرمشت، فأثناء الاحتفال بكلّ من عيد ميلاد «ألينا» الثلاثين في لندن، وكذلك عيد ميلاده الأربعين في برشلونة، قد اشتبكا مع بعضهما بعضاً في عراك شرس، وداسا الورود بالأقدام، ورميا بهدايا الحب في جميع الأركان. وعندما يذكّرها بذلك، بل ويبدي رغبته في البقاء بمفرده خلال عطلة نهاية ذلك الأسبوع والتسكع في منخفض أودربروخ مع «ويبستر»، تنهل طبعاً دموعها. إنها ترغب مهما كانت الظروف في القيام بشيء غير اعتيادي، في مكان خاص، تحلو به الذكرى، ومن ثم يوافقها، ويقع اختياره على باريس. بالأحرى عن كسل، حيث إن خطوط الطيران مريحة.

لقد عاش هناك في ما مضى، لأكثر من عام، ولا يستسيغ

من محاسنها الكثير. فجمالها لم يسبق أن أقنعه أبداً، ربما لأنها دائماً ما تغريه بنفسها، مثل مغيري الجنس مفرطي الزينة، المكسوين بالخرز والترتر من قمة الرأس إلى أخمص القدم. إنها تستنزف ثمار أسطورتها، لكي تدب فيها الحياة فعلياً، كجميع المدن الكبرى التي تعتبر نفسها محور الحياة كلها، إنها لاإقليمية أكثر مما تدري. غير أنها على كل حال تمتلك حافظة ذكريات على عكس برلين، محسوسة، بحيث يبدو المرء لنفسه على الرغم من السرعة الأعلى للحياة، أقل زوالاً، ثم إن هناك أيضاً الخبز الطازج.

ينزلان الكلب في بنسيون للحيوانات، ويأخذان من مطار شونيفيلد طائرة رخيصة. يتم تصنيف المسافرين إلى مجموعات (أ) و(ب) و(ج)، فما كادت البوابات تفتح حتى اندفع المسافرون جميعاً إلى المهبط، بينما غلّف الأكثر تحضّرا منهم، تكالبهم في ابتسامة شماتة واهية.. أي نوع من علامات التعجب، عندما يدخل مع «ألينا» الطائرة، لا يتبقى لهما سوى مقعدين بعيدين عن بعضهما. ولأن أحد السيور الناقلة في أورلي، عاطل نجدهما يضطران إلى انتظار حقائبهما قرابة الثلاث ساعات، ومن ثم يصلان مجهدين ومستنزفي القوى إلى فندق، الـ «ريكامييه» الصغير على ميدان «بلاس سان سولبيس». «فولف» يعرفه منذ ما يزيد على خمسة

وعشرين عاماً، ولم يسبق له أن لاحظ في داخله أي تغيير. لا تزال هناك البوابة الثقيلة ذات الكنارات المؤكدة والتي صنعت من النحاس الأصفر، ناهيك عن الكرة الزجاجية الزرقاء على العمود الخشبي الأول لدرابزين السلم، وورق الحائط الملصق بطريقة سيئة والذي يبدو ممتقع اللون بأعلى مدافئ الحديد الصلب. أما المصعد ذو القضبان الرفيعة، فإنه لا يكاد يستوعب حتى شخصين، كما أن الأبواب الركيكة لها مقابض خزفية مفككة، في حين كانت الستائر من النسيج المضلع الذي قد بهت لونه من كثرة الغسيل. وحتى لو أن هناك بالفعل خطة تصميمية وراء ذلك فقد يكون تطبيقها شاقاً، وباهظ التكاليف مثل التجديد المتواصل، حيث إن المرء يفضل الاعتقاد بأن الطاولات الجانبية والفوتيلات الكوكتيل التي ترجع إلى حقبة الستينيات، ومظلات المصابيح ذات المواضع المتفحمة، والنجف المصلصل بخفوت في التيار الهوائي، والأحواض الضخمة ذات الصدوع الشعرية، والكتل الصفراء العسلية من الصابون المتحجر، قد صبت هكذا من قديم إلى داخل الوجود الشفاف للنافورة العارمة أمام البيت، لهديرها الذي يخترق كل شيء ويظل المرء يسمعه عندما تكون دفات النوافذ مغلقة، والذي يبدو في دأبه وكأنه يضطلع بأعباء انقضاء الزمن، لأي سبب وجيه حتى يبقى كل

شيء من حوله كما هو من دون تغيير.

عندما سجلا في الفندق، كان النهار قد بدأ يبزغ. الغرفة صغيرة، وتبدو أكثر ضيقاً، بسبب باقة الزهور العملاقة التي كانت «ألينا» قد طلبتها قبل ذلك بيوم، وهي تشتمل على تسع وأربعين زهرة بيضاء وواحدة حمراء. وبينما كانت حقيبة السفر في يدها كانت تنظر إليه قلقة بعض الشيء من زوايا عينيها. ولكي لا يخيب أملها يبتلع «فولف»، الذي تخطر في ذهنه نفقاتها الباهظة، امتعاضه. يمنحها قبلة، ويواسيها عن قساوة قلب حامل الحقائب. ولعدم توافر مزهرية مناسبة على ما يبدو، قاما بوضع الزهور في زجاجتي فيتيل مقصوصتين. يأكلان شيئاً بسيطا في «كافيه دي مايري»، ويتنزهان في الليلة المشرقة، حيث يعصف نسيم منعش بنواوير الكستناء البيضاء الضاربة إلى السمرة إلى الرصيف، وفي الساعة الثانية عشرة يشربان كأس شامبانيا على ظهر مركب بيسترو بـ «بونت نوف»، حيث يسمع «فولف» فجأة صوتاً غريبا في أذنه الداخلية، أغلب الظن أنه نوبة طنين، وكأن محموله المكسو بالطحالب يرن في قاع السين.

وبعد عودتهما إلى الفندق يقرأ بعض «مراثي دوينو»، التي يأخذها معه شبه دائماً عندما يسافر، وبعد أن تنتهي «ألينا» من تصفيف شعرها وإزالة ماكياجها، تدلك له قضيبه

بالزيت، وتديرله ظهرها حتى يولج فيها بسهولة. يتحركان ببطء، كمن يسير في نومه تقريباً. وبينما كانت تقوم إضافة إلى ذلك بإثارة نفسها بأصابعها، لم تنقضِ سوى دقائق قليلة حتى بلغت بلهاث خفيض قمة النشوة. بعدها يوافيها النوم، وبينما هو لا يزال يقظاً في الفراش، لبعض الوقت، يتأمل الورود في ضوء أباجورة الكومودينو، وأخيلة ظلها التي شبت حتى وصلت السقف. تتوقف النافورة في الخارج، ويتوقف هديرها العارم، فيبدو السكون وكأنه يحرك الغرفة دفعة واحدة.. إنه مثل كتم الأنفاس السريع، الذي ينقض على الأشياء من حوله.. يحيط به على حين غرة، ويبلغ من قربه وحدّة أطرافه أنه يضيق عليه صدره فيكاد يخنقه، ولكن حينما يملأ مسمعي «فولف» كلاكس في مكان ما على الميدان يسترد أنفاسه ويبلع ريقه بنفس عميق، ثم يستدير على جنبه ويخلد أيضاً إلى النوم.

ينام نوماً خفيفاً.. ومع ذلك لا يحسّ بـ«ألينا» عندما تقوم في وقت ما أثناء الليل بوضع طرد صغير، ملفوف في ورق ذهبي تحت الأزهار. سيكون يوماً معتماً على ما يبدو. على كل يدل منظر الضوء الذي ينفذ إلى الغرفة من شقوق الدفات الصفيحية على ذلك. وعلى الرغم من أن الوقت لا يزال باكراً للغاية، فإن رائحة القهوة والكرواسان تفوح في

الفندق. باب الحمام الصغير مفتوح، وبخلاف خرير المواسير يمكن سماع أصوات عبر فتحة التهوية.. هتافات وضحك الخادمات الأفريقيات، والموسيقى الخفيضة. خزانة الملابس العريضة، التي تقف أمام جانب السرير، أبوابها الجرارة مرايات، و«فولف» ينتصب بعض الشيء، ويسند رأسه على إحدى اليدين ويتطلع إلى نفسه بالطول.

لا بأس.. لا بأس. كان من الممكن أن يكون أسوأ من ذلك. لا يزال الشعر كثيفاً والرقبة غير ذابلة، وبالطبع لا توجد بطن. بل إنها بفضل تمارينه، التي كانت مزيجاً من السويديه واليوجا، مشدودة أكثر مما كانت في شبابه، إلا أن بشرته، التي تهم الشعيرات المبططة بالانتصاب عليها تمنحه إحساساً بأن الحشرات تجري عليها، ممتقعة اللون في الضوء، وشبه مجدبة وشاحبة، كما يبدو على قسمات وجهه إعياء لا علاقة له بقلة النوم. الأجفان التي أحاط بها الشحوب، والتجاعيد التي تزداد عمقاً تحت طاقتي الأنف، وزاويتا الفم اللتان يتكرر انهدالهما أكثر فأكثر، والشفتان اللتان تزدادان نحالة، كلها تؤكد أن الجسد قد شرع في مقاومة مستوى ميل وجوده، عاقداً أساريره، بينما تبرز في ذات الوقت معالم الروح.. روح بحسب اللمعة الهادئة على الجبين والعينين الكبيرتين، اللتين تبدوان بنيتين في النظرة الأولى، ولكنهما

يميلان كثيراً إلى الخضرة.

كأنما صفحته في كتاب الكون هي الوحيدة التي تخلو من العلامات المائية.. لا يزال يرتاب في نفسه ألا يكون قد فطن إلى ما هو جوهري في الحياة. في لحظات الضعف، وعلى وجه الخصوص وسط الناس، يشعر إذاً بأنه هزيل النفس، من دون معالم واضحة، ولعل هذا ضمن أسباب إعارته أهمية متزايدة لفعاليات الحياة اليومية، بل وسماحه في بعض الأحيان بأن يحرف تفكيره وحديثه، صوت خلفي كان دوماً يستنكره أو حتى يتقزز منه لدى الآخرين.. صرير وجهة نظر. كلما ارتسمت له ملامح المستقبل أكثر وضوحاً، زاد من المساحة التي يكرسها اهتماماً به، ودنس كل لحظة سعيدة بالرغبة المضنية في الأسعد منها. فبينما هو يأكل يكون قد بدأ التفكير فيما سيطهوه في اليوم القادم.

ورغم كل ذلك، ليس بوسعه أن يكون راضياً؟ إن له امرأة رائعة، وعشيقة فاتنة، وهو بصحة جيدة وموفور الرزق، ولا يزال عمله يروق له، بل وأكثر من ذلك لقد حقق في الفترة الأخيرة أيضاً بعض النجاحات. لقد تحتم عليه أن يتزود بأجندة مواعيد وخبيرة ضرائب. أما البنك الذي يتعامل معه فقد أرسل اليه كتيبات المعلومات عن صناديق معاشات التقاعد والاستثمار مراراً وتكراراً. لا ينبغي له أن يشتكي،

ولكن أن يلعب إلى حد ما في الجانب المضمون ويمشي في طريق مدنية لعل المراد بها السخرية ومع ذلك تعاش بجدية بالغة، بينما السماء مفتوحة أبوابها أمامه على مصراعيها، فإن ذلك لماسخ الطعم بغرابة، كما التهام الأجنحة الشخصية. أن يفوز بإعجاب مجتمعٍ كان يرفضه أو لم يتقبله إلّا وهو عاضد على أسنانه لعشرات السنين وأن يحقق النجاحات في مجال الفنون، فإن ذلك لحزين قدر العثور على النقود على الشاطئ تقريباً.

حينما يرفع ذراعه كي يبعد شعره عن وجهه يلاحظ أن الجزء الواقع أسفل عضلة الذراع القابضة يبدو أكثر تراخياً عن بقية جسمه، وبينما هو يتحسس نفسه في هذه المنطقة لا يسعه سوى أن يذكّر لحم سمك، وهو رغم اكتنازه لم يعد طازجاً إلى هذا الحد، ولا يعود مجدداً- إن عاد من الأساس- إلى هيئته الأصلية عند أماكن الضغط إلا بطيئاً. يزداد النور سطوعا، والشعور المطلي في فمه يشتد.. يريد أن يغسل أسنانه، ولكنه لا يخاطر بالنهوض. يسمع «ألينا» خلفه تتنفس في إيقاع هادئ كان له دائماً دليلا على ثقة عميقة، طمأنينة تميزها عنه إلى شمله برعايتها. لا يستطيع أن يتذكّر يوماً لم ترتسم فيه على وجهها ابتسامة، إلا أنها تطلق مرة واحدة تنهيدة شاكية قصيرة، يسنو بها صوتها كشيءٍ فضي

يعلو على سطح نومها.

يقع ذلك من مسمعه وكأنها فتاة صغيرة، أو حتى طفلة. وعن غير قصد يسأل نفسه عن الوقت الذي مضى عليها وهي تتفيأ ظله، ومتى سيصير طاعنا في السن بجوارها. تمتد الأعوام في ما بينهما في وضوح متزايد لأنه بسبب بعض التجاعيد والشعيرات البيضاء المنفردة يبدو أكثر جاذبية في عينيها من أي وقت مضى. ما يصدقها فيه إلى حد ما وقد يصير حاله من حالها، وهو عندما يفكر في شارلوتيه التي يبدو عليها التقدم في السن. فالوجنتان التعبتان، والعنق المعروق، والديكولتيه المجعد الذي يتدور أسفله ثديان لا تشوبهما شائبة، والردفان المتراخيان، والجلد المكشكش على ظهر فخذيها من كثرة ترددها على السولاريوم تثير هيجانه مرة بعد أخرى. ربما إن تلك حيلة من حيل الطبيعة، إلا أن جاذبية «شارلوتيه» بلا أدنى ريب لها علاقة برباطة الجأش المتمثلة في شخصها والتي تبدو على جسدها رغم كل شيء. ولكن هذا الظهر الممشوق الذي يبرز كل ما قد أنجزته وحققته كالمسبر، هو بالتحديد ما ينقصه.

الجرس الصغير لسان سولبيس.. يدق الساعة السابعة، وعندما تبدأ النافورة فجأة في الهدير من جديد، ويغلق باب، وتتقلقل الجدران الركيكة، يخيل له للحظة هلع أن فضة المرآة

قد بدأت تذوب. يمد يده خلفه، ويمسك بخاصرة امرأته، ويلصق إحدى ساقيه بساقها، لكي يشعر بحرارة جسمها، وتكاد تلك الخيفة تمتعه. إلا أنه في ذات الوقت يتضح له– لم يسبق له أن رأى ذلك عياناً على هذا النحو– أنها أسلم ما فيه، والأكثر صدقاً. وهذا ما يجعل منها هبة... «ألينا» تتحرك، وتستفيق، وقصتها المشعثة تبرز خلف كتفيه، الجبهة البيضاء، وإذا به، وهو الذي كان منذ لحظة يعتقد أنه يتذوق رماد جسده، يستطيع أن يتنفس الصعداء من جديد. كأنما قد انقشعت هالته الرمادية عند رؤية قسماتها، حيث يشعر بشيء من التفاؤل وسريان طاقة جديدة، وبينما هي تنظر إليه عبر المرآة بعينيها الفطنتين، وتطوقه بذراعيها النمشتين، وتتثاءب عميقا، تتكامل الدنيا من حوله.

«إنني لأجدك فاشلاً.. نوعاً ما كواحدٍ يبلغ الخمسين من العمر».. كانت قد قالت له في تلك الليلة على ظهر المركب. «لو كنت تبلغ الأربعين لكنت جيداً».

في صبيحة ذلك اليوم يقرر أن يخبرها بالحقيقة.. يتناولان الإفطار في الغرفة، ويغلبهما النعاس مرة أخرى، ثم يكون الظهر قد حل عندما يخرجان إلى الشارع. الأجراس الكبيرة تدوي، والأباريق المعدنية الصغيرة على صواني التقديم تلمع في ضوء الشمس، وخضرة الكستناء تبدو وكأنها تنهمر على

الزجاج الأمامي للسيارات. لقد أهدته «ألينا» كاميرا.. آلة ذكية نبيهة، يمكنه أن يصوّر بها أيضاً الأفلام القصيرة، وما قاما به، في كافة الوضعيات، وبالصوت. العرض على الشاشة كان ممتازاً، وربما تعود إلى هذا السبب خيبة الآمال، غير المستساغة والتي بدا عليها كل شيء، ولو أنه في ما بينه وبين نفسه يهنئ نفسه على عمله الرائع. ولم يسبق له أن لفتت نظره درجة الاحمرار التي تعلو وجهه أثناء ذلك.

وفي ما يتعلق بـ«ألينا»، فإن حالها الآن، أمام النافورة الشلالية السارية أيضاً كعهده بها لم يتغير: إذا صُوبت عدسة الكاميرا نحوها يزول السحر من وجهها ومعه كل ما يجعلها عديمة المثال في عينيه تقريباً. إنها تكره أن يتم تصويرها إذا لا صورة تتبين فيها ذاتها الحقيقية. مراراً وتكراراً يضايقه أن المناخ الحميم الذي يترعرع فيه حسنها ما يلبث أن تدمره العين الزجاجية لآلة حتى وإن كان هو من يستعملها. بل وفي بادئ الأمر يشك في أن تكون أقل جمالاً مما تبدو، ولكنه في حقيقة الأمر بعد حاسم وزائد عن الحاجة ما يجعل صورها غير مرضية في أحيان كثيرة، وذلك لأن الأشخاص السطحيين الذين لا يمتلكون بريقا داخليا، يمكن تصويرهم كما هم، في داخل ذلك الوسط. وبالنسبة للآخرين فتسري عليهم الحقيقة التي علمتها له كتب الهنود الحمر في طفولته:

أن المتصور تسلب روحه في خطف البرق.

يتمشيان ببطء في «الجاردين دي لوكسمبرغ» الذي قد أصبح الليلك فيه ذابلاً، ويشربان كأساً من البيرة في «سيليكت» على التراسينة المغلقة بالزجاج. «ألينا» تشير في صمت إلى أزرار الصديري الذي يرتديه النادل.. رؤوس كلاب معدنية صغيرة. ومن دون أن يكثرا من الحديث، يتطلعان صوب البولفار، حيث ينتظر بضعة أشخاص مكتظين على جزيرة أسفلتية، ويعصف برقاع الورق والأكياس البلاستيكية تيار السيارات أعلى فأعلى في حركات راقصة استعراضية غريبة، تصممها حركة المرور باتجاهيها الدائبين. لقد بدت الأزرار وكأنها أساور قمصانٍ لأشباح تلوّح بأياديها أو تقود فرقة موسيقية في همجية جنونية وبمشاعر جارفة بفوريوزو ليس له وجود إلا في سيمفونيات مرتجلة لا تتبع نوتة موسيقية مكتوبة.

ثم تصبح الإشارة حمراء، وخلال اللحظة القصيرة التي يسودها هدوء يصم الآذان، ينزل رجلٌ من الأوتوبيس في يده قبعة ممتلئة عن آخرها بخبز الغراب. يحاول «فولف» مليا أن يصور انعكاس زجاجتي الزيت والخل على المفرش الكتاني أو خيال ظل المارة، ولكن بلا جدوى. المحل شبه خالٍ، وخيزران الكراسي المضفر يطقطق في ضوء الشمس،

كما أن مخروطات فوط السفرة على الطاولة المجاورة، تنفتح بطيئاً. في صورة انعكاساتها الضئيلة تنطلق السيارات حول القواعد السفلى للكؤوس كالريح. «ألينا» تميل برأسها إلى الوراء وتغمض عينيها، ومن جراء دماثة خلق تحول دون أن يقر له قرار، يدفع «فولف» الكلمات الأولى خارجاً مراراً وتكراراً.

بالكاد يجرجر قماش ستار الباب الأخضر.. ينقضي الوقت مع وميض الحلقات الضوئية البيضاء والصفراء الفاقعة والتي تتشابك مع بعضها بعضاً على ألواح الزجاج، وكأنها تروس رقيقة. وفي آخر الأمر يأخذ نفساً عميقاً، ويضع إحدى اليدين على كتفها، وهي التي دفعت الحساب منذ لحظات وتهم بمغادرة الطاولة. يتراخى ظهرها إلى الكرسي مرة أخرى، وتنظر إليه ببشاشة وتشوق، وسرعان ما تعود به الذاكرة إلى فكرة الزواج التي قد شرد بهما الخيال إليها منذ بضعة أسابيع من جديد، والتي كادت تنتزع منهما الضحك، نظراً لعمرهما، حيث دخل عيد ميلاده الخمسين كموعد محتمل في الحسبان. غير أن التاريخ كان عاطفياً على نحو مبالغ فيه بالنسبة اليهما.

وباتكائه على مسندي كرسي الخيزران وبيدين مشبكتين أمامه بمستوى فمه يتنحنح ويبدأ في الحديث، ويتجنب أثناء

ذلك النظر صراحة إلى «ألينا». إنه لا يريد أن يدع ملامح العبوس الرقيقة على تجعدات جبينها، تنحرف به عن الحقيقة أو فمها المفتوح أو امتقاعها المتزايد الذي يلمحه منذ الآن من زوايا عينيه، أو حتى أن يتلطف معها في حال بكائها. إلا أنها تبقى رابضة الجأش. في نظر المارة ما هما سوى زوجين أليفين في محادثة عادية. تطوي هي فوطة السفرة في حجرها، ويضع هو ساقاً على ساق ويحرك قمة حذائه يميناً ويساراً، بل ومرة تميّل جسدها إلى الأمام لتلتقط شيئاً من على ياقته.

ولكنها وكما هو مألوف في مثل هذه الحال، عندما تضطرب أو يتمالكها الخوف، تبدأ بازدراد ريقها، مرات ومرات.. ثم تتحرك أجفانها ما يومئ بأن شيئاً قد اندس تحتها. وذلك الصعود والهبوط المطردان لرموشها الممسكرة على زاوية مجال رؤيته ينتج عنهما تدريجيا، الشعور بأنه يسبب أذى بكلماته، وبأنه يجرح، بلا رجعة. تضيّق مسحة من الرثاء عليه الخناق، ولكنه يستمر في الحديث، هذا ما يريده، وما يتحتم عليه القيام به حتى ولو فقط من أجل نقاء رفقتهما، التي لا يريد أن يرى عليها أطول من ذلك ظلال شيءٍ يحظى بأهمية لمجرد الإخفاء. ذلك لأنه من وجهة نظره، لا يهدد لقياهما ما يربط بينه وبين «شارلوتيه» كما لا تهدده نزهة في الغابة أو زيارة ساونا.. إنه نادٍ صحي،

والهدف منه الاسترخاء ويأتي في مصلحة الطاقة الشخصية، فقط ليس إلا. إذاً فما الداعي إلى الاشتراك في لعبة ثقافة الخيانة، التي يبدو أنها سائدة في كل مكان، ولإهانة «ألينا» من خلال جعلها الضحية، إن ذلك ما كان ليزيف حياتها فحسب، بل وحياته أيضاً، وذلك لأن الحب إذا ما كان يعني له شيئاً، فمعناه الثقة، بل وأكثر من ذلك: بينما كانت هي في كثير من الأحيان بالفعل مجرد كلمة في ماضيه واشتملت بذلك على كافة ما قد يؤدي إلى سوء التفاهم من احتمالات، فقد بقيت الثقة واضحة جلية، كما تنفس الصعداء.

«ألينا» تغمض عينيها.. تعض على شفتها السفلى، وبينما كان لا يزال تحت تأثير دهشته للاقتضاب الذي تيسر له به أن يحكي فإن ذلك قد جعله يعاني من تأنيب الضمير طوال هذه الفترة. لم تقل هي شيئاً في أول الأمر، وطوال دقيقة من الخوف راح فكره إلى تلك المرة في كرويتسبرغ والتي تحدثا فيها عما يسمى بالخيانة، على سبيل المداعبة. فقد أغاظته لهجتها القاطعة في «هذا لن يحدث لي أبداً» آنذاك، ليس فقط لما فاح منها من تزمّت قد كان أشبه برائحة الطلاء اللامع للمجلات النسائية. صحيح أنها لم ترد من ذلك سوى أن تقول له إنه حب حياتها، لكنها ونظراً إلى أنها حصنت نفسها بكل هذه الثقة ضد مباغتات الوجود

وأهوائه الممكنة، فإن ذلك قد أفقد ملامحها بريقها ونظرتها عمقها. على الأقل في تلك اللحظة. ولكنه ما لبث أن سألها عمّا ستفعله إذا ما أصبحت فجأة لديه عشيقة، ولو في السرير فقط، حتى تسمّرت في موقفها، وبدت لبضع دقات قلب وكأنها تتنصت إلى داخل السؤال بما هو أعمق مما يتناسب مع معناه. وهمست في تخوف: «ألديك؟» ولما هز رأسه بالنفي، وهو الذي بالفعل لم تكن لديه واحدة في تلك الأيام، أسندت نفسها عليه من جديد وقالت: «الحمد لله، لأنني في هذه الحال كنت سأرحل».

كان ذلك منذ أمد طويل.. منذ عقد من الزمان. ومع ذلك أسهم ذلك التهديد الذي لفظت به شفتان مفتريتان- كأنها أحد أدوية علاج المثل بمثله التي يكون المرء قد نسي أنه قد تناولها منذ وقت طويل، ومع ذلك يستمر تأثيرها لقيام الطبيب بين الحين والحين باستدعائها إلى ذهنه- في أنه قد خدعها في الحقيقة، منذ أول لقاء له مع «شارلوتيه». هي الآن تبكي، قليلاً فقط، غير أن المسكرة قد بدأت تسيح، ويمسح لها، كعادته في مثل هذه الحال، أجفانها السفلى بإبهامه، ثم يمسح تلك في جينزه، ثم فقط بعد ذلك يبحث عن منديل.

«وأنا التي اعتقدت أننا سنتمم مرة أحد أعياد الميلاد العقدية بلا كارثة» هو أول ما تتفوه به «ألينا»، بصوت غير

مسموع تقريباً، ويكاد وخز مزاحها الخفيف يروّح عن نفسه، حيث إنه على ما يبدو بمنزلة دليل على أنها تتقبل الأمر على النحو الذي تمناه، بروح رياضية إلى حد ما. بل وعندما تقول له بعد ذلك: إن قلبها قد حدثها بذلك منذ أمد طويل، خاصة وأنها سبق أن لاحظت على ملابسه تلك الشعرة الملونة أوتلك، وأنه بعد رحلاته الأولى إلى وسط المدينة، قد فاحت من الكلب دوماً الرائحة العطرية نفسها.. لا يستطيع أن يحبس ابتسامته.. شانيل رقم خمسة.

بيد أنها حينئذ تفرد ظهرها، وتسحب ذقنها نحو رقبتها، وفي اللحظة نفسها التي يدرك فيها أن العشيقة الغريبة ليست ما يكدرها بقدر ما يفعله نفاقه، وتستّره وتكتمّه طيلة هذه الشهور، تتطلع إليه بنظرة... لا يتجلى فيها السخط والاحتقار بصورة مباشرة فقط، لأنه الآن أيضاً لا يزال لا يتوقع منها مثل هذه المشاعر، وما ينم عنها من ظواهر. حتى المخدوعة لا يسعه أن يتصورها بغير الهمة العالية. تضيق عيناها، وتنبثق عنهما في ذلك دمعة أخرى، تاركة أثراً على وجنتها ضارباً إلى السواد، وإذا به فجأة لا يملك إلا ازدراد ريقه، ويسومه التنفس عناء. ينظر إليها المارة، بينما هو ماد لها يده بالمنديل.. بإلحاح، وكأنما ليس هناك ما يفوق ذلك أهمية في الوقت الحالي، وتنحي يده جانباً بقوة، وتنهض

فجأة إلى تلك الدرجة، فلو لم يمدد ذراعه لكان الكرسي قد انقلب.

يقلّب نظره فيمن حوله من الزوار الآخرين من زوايا الأجفان.. النادل بالفتاحات المذهبة في جيبي الصديري، والذين لم يلحظوا شيئاً في غير لبس أو إبهام، والسيدة على الكاشير، والتي بدت كتمثال من الشمع بلا حراك. سابقاً، كانت المشاهد المنبرية التي تقع من بعض النساء الغاضبات على مرأى من الناس، تجعله ينكمش في ذعر بسرعة فائقة. فالكرب المتفجر الذي تجاهلن به الفضول العام، وتقطيب الجبين، وثارت به ثائرتهن على الرجال في مشاجرات زعمن فيها أنه ما عاد يعنيهن عدا المضامين شيء، كانت في الواقع انتقاماً منه ومن إحساس نظرته المتصلبة لقواعد السلوك. أصابه من الخجل ما لا يقل عمّا لو كن قد فتحن للجلوس من حولهن جميعاً باب غرفة النوم الجماعية على مصراعيه. وكذلك الآن أصبح يراوده شعور بالابتزاز لكمّ اللعنات التي يتصور أنها حالاً ستصبّ فوق رأسه، ويتمنى في سره لو أمكن له أن يسحب كلامه أو يتراجع في أي شيء. هو، الذي يتقن في مهنته الحديث بطلاقة أمام جماهير أكبر من ذلك، يتصبب عرقاً عند التفكير في أنه قد يلفت الأنظار في أحد المطاعم أو ما إلى ذلك من الأماكن العمومية الأخرى ويود

في تلك الأوقات لو يصبح خالياً من الإطار أكثر من نظارته. لكن ما قيل قد قيل، و«ألينا» تهز رأسها عندما يدفع الكرسي نحو باطن ركبتها برفق.. إنها لا ترغب في الجلوس.. إنها تريد إجابة عن سؤالها الذي لم يفهمه.

«أتحبها؟» تعيد ذلك أكثر وضوحاً، ويتساقط أثناء ذلك عدد من الدموع على بلوزتها البيضاء، مما يوحي بمظهر الأطراف الرقيقة لثيابها الداخلية، وربما قد يحلق بصره فيها لمدة أطول مما ينبغي. كأن هذه الدقائق الرصاصية بصدد الذهاب أدراج الرياح، وكأن النقاط الرمادية لم تجعل القماش أكثر شفافية فحسب، بل وأيضاً الحاضر أكثر وضوحا بمقدار نظرة صفاؤها من صفاء الماء. نظر فجأة داخل قلب الموقف، وأدرك أنه لم يسبق له أن كان أقرب إلى «ألينا» من الآن، تحت ظلال حزنها، حيث إن سره الشخصي يتحدث إليه من خلال هذه المرأة، التي تعد ينبوع طاقته، وأن روحها بكل ما فيها ملاذ له، بل إعانة مقدمة له من أي سبيل. بالطبع لقد أساء إليها، ولكنها أيضاً حياتها، وباليقين ذاته الذي يزول به الألم يجب أن تعود إليهما سعادتهما معاً، لأن لا وجود لها بغير ذلك. إنها الباعث الرقيق حتى للحظاتها القاتمة، وفي ما نتج لديه من ذلك اليقين من حيرة، لا يقدر في بادئ الأمر على أن يقول شيئاً حيث إن «ألينا» قد تعتبر تردده تدبراً في

سؤالها. على أي حال ترمي فوطة السفرة المنشية التي كانت قد مسحت بها وجهها، على الطاولة مرة أخرى، وأكثر من ذلك يسقط الآن كأس.. ينكسر عند اصطدامه بالمنفضة. وتقول هامسة: «آه، في داهية... أصلاً أنت لا تعرف أبداً ما الذي تشعر به!» ثم تستدير وتغادر المطعم.

خروج من الواضح أنه درامي أكثر من اللازم، ويظل هو جالساً في عناد، ويطلب مزيداً من القهوة وسيجاريللو من نوع فاخر، ولكنه لا يخرجه من الورقة المعدنية. في ابتسامة النادل غير الملحوظة تقريباً، ما يعتقد بأنها تكشف عنه من تفهم وحكمة، يجد «فولف» للحظة عزاءً وتأييداً ويترك بقشيشاً لا بأس به بجانب قطع الزجاج المكسور. ثم يتوجه بعد ذلك إلى السوق بقرب المدافن، مروراً بالـ «رو ديلامبر»، ويشتري الجلاديول الأبيض، ويضعه على قبر «سوتين» الذي كان من أحب الرسامين إلى قلبه لفترة طويلة. وكما في العديد من المرات يبحث أيضاً في هذه المرة- بلا جدوى- عن قبر لسيزار باييخو بين الأنصاب المتلاصقة التي يعلوها واحدٌ فاحش الكبر، لناقد أدبي، وعلى هذا المنوال يكرمه بإيماءة من رأسه في الاتجاه التقريبي.

في المكتبة الألمانية بجوار «كلوسيري ديه ليلا»، يتصفح بعض الكتب الحديثة ولكنه لا يشتري شيئاً.. يعود مرة

أخرى إلى المتنزه، ويمر على الدوارة ذات الحيوانات الخشبية القديمة والتي طليت باللون مرة ومرتين. لا يلاحظ ذلك إلا بعد فترة، من غير موسيقى على الإطلاق. ثم يراقب الأطفال الذين قد وضعوا أجهزة الكمبيوتر المحمولة وغيرها من الألعاب الإلكترونية الأخرى على المقاعد، كي يدفعوا المراكب الصغيرة المنحوتة التي يمكن استئجارها هناك منذ أزمان غابرة بالأعواد الخيزرانية على سطح مياه النافورة. هبات الرياح المفاجئة، تسفي موجاتٍ من التراب، في ما بين المتنزهين، وهو يجلس في ظلال سرادق الموسيقى، حيث ترفرف أوراق النوتة الموسيقية على الحوامل، ويشعل عود ثقاب. وبينما هو يحس للمرة الأولى منذ عهد بعيد بطعم التبغ على لسانه، بجديته الخاوية، لا يسعه إلا أن يفكر في سؤال «ألينا» في ما يتعلق بالثانية، من ناحية شعوره تجاهها.

الحب، نجم غاية في السطوع.. كيف له أن يبلغ هذا المبلغ من القتامة والفقر اللذين لا نهاية لهما إذا ما تعثرت قدم أحدهم بسطحه؟ لأن تجاربه معه لم تقارب بريق وحمية مخيلته بالكاد أبداً، ولأنه في كل مرة سلم نفسه إليه فيها بلا قيد أو شرط، لم يتحتم عليه أن ينتظر الركلة في بطنه طويلا، فقد قاوم سلوكيات الحب المطلقة مبكراً، بل ووبخها بينه وبين نفسه في خبث في اللحظات التي تأججت فيها الأشواق بشكل

خاص.. تلك الظاهرة. ولكن حتى لو أنه لا يزال صحيحاً أن أوامرها ليست سوى مراوغة بيولوجية، كفيلة بالتطابق أو التكامل بين الصفات الجينية، وأن قمم نشواتها تنجم عنها تلك اللامبالاة عينها التي أراها ضرورية من أجل إتاحة المجال لغرائز حفظ النوع السليمة التي تعترض سبيل العقل، والرغبة في الانطلاق إلى الحرية في كثير من الأحيان، فمن المفترض ألا يكون هناك جدال في أن ذلك بالكاد لا يمس صميم حقيقته. أكبر الظن أن الحب لا يريد أن يُحسّ قدرما يريد أن يعاش، وذلك لأنها وحدها فكرة أن الغبار الذي يتعثر فيه المرء ينتمي إلى نجم، كفيلة بأن تزيد من سطوعه.

في ما يخص «شارلوتيه»، فقد أرادت فقط منذ عهد غير بعيد أن تعرف منه كيف يرى علاقته معها.. المضاجعة مرات متباعدة، وسكون الغرفة المفعم بالأشواق، والذي بدا وكأنه مهيأ لما هو أساسي، بدوا له رهيبين على حين فجأة. كان حذاؤه في الردهة، وبنطاله في أبعد ركن بالغرفة، وأخذ يبحث في تشنج عن أي رد وقح، من شأنه أن يقلل مما في ذلك من خطورة على استفحال الموقف. إلا أنها عندئذ هزت رأسها، ونزعت وبراً من سرته، وبعضا من سائله المنوي المتجمد، وقالت: «إننا نستمتع ببعضنا بعضاً، أليس كذلك؟» واحتسى رشفة من النبيذ في ارتياح.

عندما يعود إلى الفندق، لا تكون «ألينا» موجودة. في ما عدا معطفه البوبلين، لا يوجد في الخزانة سوى الشال الذي قد أهداها إياه ذات مرة، في حين كانت على الطاولة الزجاجية في الحمام التذاكر وبعض خيوط الأسنان. يتصل برقمها، إلّا أن تليفونها مغلق، أو خارج نطاق الخدمة. لا يجيب إلا صوت المسجل على جهاز الرد الآلي، فتتحرك مخاوفه من دون أن يقوى على قول أكثر من «هذا أنا.. أين أنت؟» ثم يصمت برهة، ويحلق في الورود التي انطوى بعضها في الغرفة الدافئة، وفي لحظة سكون يكتشف أن النافورة قد توقفت عن الهدير. لقد صرفت المياه، ويقف في حوض الرخام بضعة رجال يرتدون الأوفرول الأخضر، ويكنسون أعقاب السجائر وقطع النقود والأوراق أكواماً.

أمسية لـ«بريشت» في السفارة الألمانية.. لضيوف مدعوين. ضوء القمر ساطع على سيارات الليموزين التي تسير على حصى المدخل ببطء، والملحق الثقافي يرتدي الأسموكن ويبدو أنه يأخذ الأمر مأخذ الجدية. وبغض النظر عن وفد رجال المسرح القادمين من شرق ألمانيا، والذين يقفون مقتضبين قليلاً في حدتهم في انطوائية، بل ويرتدي اثنان منهم قبعتين أنيقتين ويدخنان السيجار، فالضيوف الآخرون، أعني الرجال الأنيقين بجملهم ذات البنية المثالية،

وزوجاتهم بشعورهن الشقراء واللاتي بطبيعة الحال لسن شقراوات، أنيقو الثياب أيضاً.

بريشت يصبح أرماني ستايل

ضوء الشموع الحقيقية، يتلألأ في الدموع البلورية للنجف.. ممثلو قطاعي التجارة والثقافة يرشفون مع طلاب برامج التبادل في معهد جوتة ومساعديه من كؤوس الشمبانيا، أثناء ذلك تلوح المغنية ذات الخبرة، والملتزمة كل الالتزام بجدية التعبير، بشعرها ناري اللون في ثوب فضفاض من الحرير، وتقلب عينيها المكحلتين بطن من الكحل بشكل درامي، وترفع يديها اللتين طليت أظافرهما بالأحمر القاني كالمخالب. لقد كان شريراً، «بال» هذا. في ما بعد سيعاد مرة أخرى بالفرنسية.

كذلك كان عازف البيانو يرتدي الأسموكن. وبينما كان الناس يتسكعون ويتناولون المشهيات، أو يغترفون الكافيار في كل جدية، كان يعزف هو بعض المقطوعات المجهولة لكورت فايل، وماذا غير ذلك؟ موظفو السفارة الذين كان أكثرهم من الرجال يعرفون من قصة شعرهم، التي لا تشوبها شائبة، والمظهر المرتب الأنيق الذي يحجبون به أمنيتهم لو أنهم كانوا في مكان آخر، أمام حواسبهم على سبيل المثال. ولكن بما أن مديرهم قد أثقل كاهلهم بتلك الدوشة الفارغة،

هم وأنصافهم الحلوة، فهم يرعون المحادثات، وينظرون في أثنائها إلى أعلى ناصية طرفهم الآخر وكأنهم لا يريدون أن يقطع شيء عليهم تركيزهم بينما هم يحركون مفاصل الأيادي برفق يميناً ويساراً، تجفيفاً للمانيكور. زوجاتهم، اللاتي ترتدي أغلبيتهن الثياب عارية الظهر مع قلائد من اللؤلؤ هذا الربيع، يقفن في ذلك تماماً على البعد السليم، ويومئن برؤوسهن بين فترة وأخرى أو يعترضن بكلمة لا يستطيع أحد أن يقول شيئاً ضدها ويتلقاها الآخرون غاية في الإنصات، خاصة وأنها كثيراً ما تضيف إلى الجو المتكلف والمعكر شيئاً منعشاً. هن زينة الحفل في تلك الليلة.. المقبلات، بل ما هو مقبول، لأنهن يدركن ذلك ويتلاعبن به. «بريشت» من شأن الرجال، ليس فقط في غرفة التدخين المليئة بالفوتيهات المصنوعة من الجلد المحبب، حيث يشرب «فولف» كأس ويسكي.

ثم يحضر السفير أخيراً، ويقف إلى جانب البيانو، ويدق على كأسه بالخاتم، ويعتذر لعدم الحضور في الوقت المحدد. عشاء مهم لدى رئيس الجمهورية، له علاقة أيضاً بالثقافة، والموسيقى على وجه الخصوص. إنه مطلع ولع لكبير الخبراء بالكلاسيكية الألمانية، والمفروض أن عام موزارت على الأبواب... هنا يعمل فاصل صمت واضح، ولكن

لا يضحك أحد أو حتى يتهامس بها، والقنصل ذو الشعر الفضي يستمتع بها بشكل ملحوظ لحضة انقباض ضيوفه ومرؤوسيه، ويشرب شربة من الماء المعدني. رجل بخبرته لا يدع نكتة تفشل. من المفترض أن هذا الأمر مفروغ منه، لكن ورغم أن الصمت يسمع له غور بعيد، فإن أحد رجال المسرح لا يملك إلا أن يعيد إحياء روح الثورة التي كانت ببذلته السوداء، وقميصه الأبيض المفتوح، وصلعة الثقافة والقرط جعلا منها تصميماً من قبل ذلك بكثير. «ألم يكن موزارت» يقول سائلا: «نمساويا؟»

بالطبع يريد أن يكسب حب الآخرين بذلك. يومئ له القنصل برأسه ممتنّاً بينما يعلو ابتسامته شيء من الحسرة وكأنما يرد على ذهنه: إنكم ما زلتم فعلاً جديرين بالثقة أيها اليساريون! بغمزة من عينه يلتفت إلى الجمهور، وموظفوه على وجه الخصوص يتنفسون الصعداء بشكل ملحوظ عندما يجيب بقوله: «لقد لفت ذلك أيضاً نظر السيد الرئيس أيها الشاب. وما كان بوسعي أن أقول له؟ بطبيعة الحال كان موزارت نمساوياً، وإن عهد عمليات الضم قد انتهى. ولكن أصله، منبع إجادته، فالأب- أليس كذلك؟- ليوبولد موزارت مسقط رأسه في آوجسبرغ الجميلة، وهي المدينة نفسها على فكرة التي ولد فيها عزيزنا بريشت هنا،

ما يجعلنا نصل إلى قلب الموضوع. إننا بلد الكلاسيكيين!
ومع أننا لن نستمع اليوم إلى الفلوت السحري، فإن المارش
سيعزف لنا على الفلوت.. تفضلي حضرتك..».

ومرة أخرى المغنية اللامعة، تظهر من وراء صورة على
ارتفاع الرجل المحتفى به وكانت في تلك الأثناء قد غيرت
ملابسها. كل شيء فيها أصبح الآن بنفسجياً، وكذلك الشريط
المخملي على عنقها.. تلوح بشعلة شعرها، وتضرب مخالبها
في الدخان، وتلوّح بقبضتها منذرة، وتلفظ راءاتها مكررة
كما يدحرج صانع براميل آوجسبرغ براميله إلى نهر الليش.
ولأن سمك القرش له أسنان حادة مثل سكين، فإن ذلك
ينبغي أن يبرد الإدراك بصوت منشاري لكي لا يبدأ المرءمثلاً
في الترنح جالساً أو حتى يخطر على باله أن صحبة بريشت
وأغنياته، قد اصبحتا سخرية لاذعة منذ عهد قديم، وذلك من
جراء الفقر في العالم البارد. ولكن ربما كان هذا السبب في أن
هذا يمكن أن يحدث لهم، يفكر «فولف» بينما هو يجلس
في المترو مرة أخرى ويتصل برقم «ألينا» بلا جدوى، لأنه
نفسه، تصدق نيته على المشاركة، ولأنه قد تهرب من نقص
في فطنته التي يهنأ باله بها وتورط مع السلطة على الإطلاق
وقام في مكر على خدمة الروح السياسية للعصر.

في الليلة التالية يتعين موعد طائرة عودتهما، وبما أنه لم

يتمكن من الوصول إليها طوال اليوم فقد غادر فولف في آخر الأمر إلى أورلي. وهناك ينتظر حتى يكون كافة المسافرين قد أتموا إجراءات تسجيل دخولهم، ولكن «ألينا» لم تحضر. مسافرة أخيرة فقط، تأتي مهرولة، ومقطوعة النفس وفي حوزتها حقيبة تشيلو، لا يزال يتم إعدادها، وهو يشرب القهوة على طاولة، قرب شباك التسجيل عندما ينادي عليهما مكبر الصوت وينطق باسمه صوت ألماني.. يرعبه ككلمة جهورية من أعلى المستويات. يكاد يحني ظهره تحت ذلك الرنين الذي ينطوي مجرد ارتفاعه على شيء زاجر. المتحدثة نفسها تندهش على ما يبدو من حساسية الميكروفون، وتبتعد عنه بعض الشيء لأن اسم «ألينا» يكون وقعه بعد ذلك أكثر انخفاضاً. بالكاد ينطق جانباً، وكأن طاقم الطائرة لم يعد يتوقع حضورهما.. يتجه «فولف» إلى الخارج ويلوح بيده لتاكسي.

وفي طريقه إلى وسط المدينة، يحاول مجدداً الوصول إليها. فهي حتى وإن لم تقم بأية ردة فعل، فإنه يعرف من الرنين الطويل حتى اشتغال الرد الآلي أنها قد فتحت تليفونها. المرور مختنق، والشمس الغاربة تنعكس على زجاج العمارات وتجعل الهوائيات تبرق، والسائق منشرح الصدر، جزائري، يرفع صوت الموسيقى عالياً، ويفرمل بغتة بحيث

يضرب «فولف» خطأ على التليفون. «واحدة أخرى من تلك الليالي»، يكتب، «التي يموه فيها مجرد التفكير فيك قمم قروني المتشعبة بالذهب..».

ولأنه يعلم أنها تعشق مثل هذه الجمل، فقد أرسلها إليها. وبينما كان السائق يحاول أن يتحاشى اختناق حركة المرور، وينتهي إلى شوارع جانبية أكثر ضيقاً، لا يملك «فولف» إلا أن يذكر زوجات الديبلوماسيين في السفارة، وأعناقهن الطويلة وقسماتهن الحادة، والمحادثات المفعمة باللهجات البينية، والنحو الهجومي الذي يرغبن من خلاله بأن يفخرن برجالهن. رائعاتٍ بدين، ومع ذلك غاية في الحزن في غضون سعيهن إلى الاحتذاء بتصور للعظمة لن يتسنى لهن بها أبداً أن يهتدين إلى عظمتهن الحقيقية فعلياً، حيث إنه بمنزلة تجاهل غبي وقاسٍ للحقيقة أن تكون هناك صورة مناسبة من صور الكمال في انتظار كل إنسان. وإن إدراك ذلك، وفهم ما تقتضي الحياة من الإنسان، وصقل الشخصية الذاتية وفقاً لذلك، تعد إحدى مقومات الرفعة، ولم يسبق له أن تساءل عما إذا كانت ألينا في حاجة إلى ذلك: أن تفخر به. بل على الأرجح، إن ما يكربها أكثر بكثير هو أنه لا يحب نفسه أكثر من ذلك قليلاً وليس أكثر رضا عن عمله بعض الشيء. ولهذا السبب فهي عظيمة بالنسبة إليه وستبقى هكذا دائماً. تتوقف

أنفاسه عندما يشعر بالاهتزاز الخافت في منطقة القلب وترد عليه، ولو حتى بكلمة واحدة فقط ليست على درجة بالغة من اللطف. ورغم ذلك تبدو له مثل بادرة صلح، أو ابتسامة تحت الدموع. مكتوب في الرسالة «وغد»، فقط لا غير.

بعد ذلك بقليل، توقف المرور تماماً، في جميع الاتجاهات، وبعد انقضاء ربع ساعة دفع للسائق أجره، وشدّ الحقيبة على كتفه، ومشى على امتداد السين، متجهاً نحو نوتردام التي تدور أسراب الحمام حول أبراجها. ولأنه لا أحد من السائقين الواقفين في المرور، أطفأ الموتور فإن الهواء بالكاد يمكن تنفسه. وفضلاً عن ذلك فإنه يلاقي صعوبة متزايدة في التقدم سيراً على الأقدام من كثرة عدد السائحين. وعند «بولفار سان ميشيل» ينزل إلى نفق المترو، ويقرر أن يركب إلى حي «مونبارناس» الهادئ، كي يأكل شيئاً هناك.. مرة أخرى يتصل بـ«ألينا»، ولا ترد ثانية.

في ممرات المحطة الكبيرة المرصعة ببلاط أبيض، تطقطق ماكينات التذاكر، وتصفر بوابات ضغط الهواء في إيقاع يذكّر بالأفلام القديمة.. بمصانع الهدف منها الإيحاء برؤية مستقبلية، مضاءة بالكامل على نحو مسرحي، تتم فيها تعبئة السكون في علب، أو تقطيع الخلود إلى أجزاء، وبعض المتعجلين يتخطون عدداً من السلالم في آن واحد، كي يلحقوا

بالقطار المنتظر. وعلى الرغم من أن السيمافورات الحمراء قد بدأت تومض وصوت الصفير يحذر من إغلاق الأبواب، فقد حاول فولف أيضاً الركوب، إلا أن متسولاً أمسك به من ذراعه.. كان رجلاً مبتسماً في حزن ومعه أكورديون يتدلى، ويتحرك كيره على كتفه، فتراجع عن حرف الرصيف، وأعطاه بعض قطع النقود. وبعد أن غاب القطار داخل النفق عن البصر، وعادت القضبان على الفلنكات المزيتة المكتظة بالفئران تعكس ضوء القبو من جديد، يراها على الجانب الآخر.

بالمفاجأة نفسها التي قد غادرته بها في «سيليكت»، وقفت هناك مرتدية معطفها الخفيف ورفعت إحدى يديها في تردد، وكأنها تريد أن تلفت الأنظار إليها، وسط الجمع الحاشد، ولكن أغلب الظن أنها ترى فيه إفراطاً في التساهل، أكثر مما ينبغي في ما بعد، حيث إنها تحول الحركة إلى ردة لشعرها إلى الخلف. وكأنما باريس قرية، حيث لم يجد «فولف» في بادئ الأمر ما يدعو للاستغراب في أنهما يتلاقيان هنا.. في سراديب محطة ما من محطات المترو التي تمر بها القطارات في كافة الاتجاهات الممكنة كل دقيقة، من دون أي موعد. عندما كان لايسمح بمثل هذا اللقاء في أحد نصوصه أبداً لأنه ما كان جديراً بالتصديق ومصيرية اللحظة هو أنها كانت

ظاهرة للعيان أكثر مما ينبغي. إلا أنه لن يصبح على وعي منها إلا بعد ذلك بكثير. الآن هو بكل بساطة فقط مرتاح النفس، ويأخذ نفساً عميقاً، ويحاول ألا يتبسم بشكل ملحوظ أكثر من اللازم، بينما هو يذهب عبر السلم الطويل والرواق إلى الرصيف الآخر، ويقترب من خيال «ألينا».. من ظل كتفيها الرقيقتين على الحائط. وبينما يضع حقيبة السفر بجوارها ويقترب منها إلى درجة أن أزرار معطفيهما تلامست مع بعضها، يعتقد بأنه يقرأ في جدية عينيها الناعمتين وتصر قسماتها الهادئة على أنها أيضاً لن تستغرب بالكاد ما إذا واصل العيش معها، غداة موتها بشكل طبيعي جداً، وأحضر لها الإفطار في السرير، ودهن لها شرائح الخبز المحمص بالزبدة، وصب لها القهوة. على ضوء حبهما لا يمكن أن يختلف الأمر عن ذلك، حيث إن المنطق الشعري هو في النهاية دائماً أكثر دقة من أي منطق آخر.

العصافير، التي اعتادا على إطعامها بحفنة من بذور عباد الشمس، بصفة يومية تقريباً، قد تعودت على صورة خيال ظل ويستتر خلف الألواح الزجاجية لأبواب الشرفة، وهي تأكل من دون خوف. في جلسة معتدلة يتأمل تقريباً بلا حراك رفرفتها، ونقرها على بلاط التراكوتا، وكأن الأشكال دائمة التغير، التي تكونها العصافير، والقراقف، وطيور

الخضيري والغراء كافة من خلال تنططها المتواصل، شيء سهل القراءة بالنسبة إليه، أو خط سرّي لا يستنفد مغزاها أبدا. فقط، عندما تتشاجر وتشتبك مع بعضها إلى حد أن يطير الريش يصبح مضطربا ويعوص بصوت منخفض. إن طيور الغراء الفاقعة تتواثب حول الآخرين بوحشية، حتى إنه إذا ما دامت المعركة طويلاً، بدأ ويستر بالنباح أيضاً: الزجاج أمام فمه يكتسي بالبخار، والسرب يختفي داخل شجرة الزيزفون.

في البيت الذي يقع قبالتهما على الجانب الآخر من الشارع، والذي تحجب ستائر نوافذه الغربية نصفه تقريباً، يقف السيد أرمد ويصور أعمال البناء على قطعة الأرض المجاورة، حيث ستفتتح روضة الأطفال عمّا قريب. تتم تغطية أساسات المزلقة بالخرسانة، ويتم إنشاء ملهى رملي، وبيت فوق شجرة الطقسوس. صحيح أن له على تلك الناحية أيضاً شرفة، وبالتالي يمكنه أن يدلف من القضبان ويلتقط صوره تحت سقف السماء، إلا أنه يبقى خلف الزجاج، ويشد نسيج ستائره التل من أمامه حتى أصبح لا يبدو منه من الخارج سوى عدسته الشيئية، هذا إن بدا منه شيء من الأساس.

«فولف»، الذي يعد كوباً من شاي البابونج لـ«ألينا»، لا

يستطيع أن يصدق ذلك. على الحال نفسها منذ انتقالهما إلى هنا، يجد اللاشك مخيفاً، والذي يؤثث به المرء بماله وأهله منزله في هذا الحي في ضيق يميل إلى الرفاهية وهو لا يزال شاباً مخلوقاً للوسع والثروات، بل ويجده خطراً، خاصة وأنه مقرون بتعابير وجه وطبقات صوت تختال فيها قلة العقل، وكأنها من الفطنة، ومن ثم يقف الآن الشعر على ذراعيه عند التفكير في أن هذا الشخص ليس مثلاً بصدد جمع أدلة ضد روضة الأطفال التي قد تكون صاخبة أو سيئة النظام بعض الشيء، ولكنه يمثل في حد ذاته دليلاً على مدى ضعف الطلاء اللامع المصون- الذي يحمل كافة الأختام والطوابع التأمينية الممكنة- لتلك المعيشة التي يتخمر من تحتها جوهر الحياة: جحيم من تجسس وغدر ولجاج.

وهو في ذلك أطيب نفساً في ازدرائه من أن يرتاب فيه. الراجح أن الرجل الطيب هناك في الجانب الآخر يخشى فقط من نقصان قيمة عقاره أو يريد الحصول على شيء من الإثبات للمحكمة، إذا اقتضى الأمر. ومع ذلك فإن «فولف» يجده مكتئباً إلى حد أن نفسه لم تطاوعه أن يأتي بكاميراته الجديدة، ويلتقط له صورة أثناء ترصده. يقشر تفاحة، ويقطعها إلى قطع جاهزة للأكل، ويرش عليها القرفة، ويحلي الشاي بالعسل، ولكي لا يتقدم إلى فراش مرض «ألينا» بوجه متعكر

تماماً، يجمع شمله ببصيص الأمل في ما يبدو له من قلة تفكر السيد أرمد في أنه قد يكون مراقباً عبر النافذة الجنوبية أثناء التجسس.

«فولف» لا يقول لها شيئاً عن ذلك، فهي تعاني من ارتفاع طفيف في درجة الحرارة، والزكام، والتهاب اللوز. هناك صلصلة في تنفسها، وهو يساعدها على القيام حتى تستطيع الجلوس على الفوتيه، بينما هو يغير الملاءة. كانت قد ظهرت قروح البرد على شفتها السفلى فجأة في باريس، وفي الطائرة بدأت تتصبب عرقاً وترتجف، مصطكة الأسنان. وحينما وضع «فولف» يده على جبينها، أغمضت عينيها وقالت بصوت خافت: «هل تسدي لي معروفا؟» فقد كان صوتها متغيراً تماماً، ومخشوشيا ومطموس المخارج. واعتقاداً منه بأنها ستطلب منه الماء أو قرص أسبيرين، أومأ برأسه في صمت ومال بأذنه أمام فمها. ازدردت ريقها مرات عديدة وتنحنحت.. شبكت أصابعها مع بعضها بعضاً، ثم فكتها وأخذت تعبث بالخاتم. «أتعدني بأنك لن تقبلني بعد أن تنام معها مباشرة؟»

في أول أسبوع بعد الرحلة يبيت في غرفة مكتبه، وما دامت «ألينا» مريضة فلا يتكلمان عن «شارلوتيه». وبصفة عامة أصبحا يصمتان كثيراً، حيث إن ما لا ينطق به واضح

بما فيه الكفاية. يقوم بإحضار الأدوية من الصيدلية، وإعداد قربة الماء الساخن، ولفاف الساق لها، وينزع عنها الـ«تي شيرت» المبتل من العرق عن طريق الرأس، ويعطيها واحداً نظيفاً من ملابسه التي تفضل النوم بها، ثم يدهن لها صدرها وظهرها بمرهم الكافور، ويشتري الصحف والمجلات التي لا تكاد تمسها، ويجلس على حافة المرتبة لكي يطعمها شوربة الدجاج التي قام بطهوها بنفسه.. ملعقة ملعقة. عند كل جرعة تحملق دوماً بعينيها المحمرتين من البكاء وهي جالسة إلى جانبه تماماً، في سقف الغرفة الخاوي، وتدلك للكلب، الذي يقعد على مقربة من السرير، قفاه بكل حنان أثناء ذلك.

لا تنهض إلا في ما ندر. فعندما يكون «فولف» في الجزء الذي يقع تحت السقف من الشقة، تذهب إلى الحمام مرة واحدة على الأكثر. بيد أنه ما يلبث أن يقول لها: تصبحين على خير، فتستلقي على الأريكة السريرية بجوار مكتبه حتى يقرأ، أو يسمعها وهي تستحم أو تغرغر هناك فوق، أو حين تفتح الأدراج، أو تنقب في الثلاجة باحثة، أو تشغل الراديو، أو تخاطب «ويبستر»، بحس حنون، وعندما يعم السكون أرجاء الشقة مجدداً، ولا يسمع سوى حفيف أشجار الكستناء أمام المنزل مع نسمة هواء، يعتقد «فولف» بأنه يشعر به

بشكل واضح.. ألمها، كأنه حافة غير مرئية في الهواء. يبدو أن هندسته الباردة تجعل الحجر أكبر حجماً، والزوايا أكثر حدة، والظلام أكثر جدية، وتضفي عليها سمواً يزيد من شكه في نفسه، وارتيابه في احتياجه الضروري إلى تصفية الأمور.فهل كان الأمر فعلاً يتعلق بكرامتها في باريس، أم أنه أراد مزيداً من الراحة، لأنه قد أصبح أكسل أو أضعف من أن يكلف نفسه عناء الإخفاء؟ بل أوليس من الحق أن تعتبر اعترافه أيضاً نوعاً من الاستهانة بها؟

ومن ناحية أخرى، فإنه يعتقد بأنه يعلم أن استمرار نفاقه في معاملتها من شأنه أن يضني لقياهما، وأن فتوره في احترامه لـ«ألينا» كالسم الخفي مع الوقت. تبدو الآن نائمة، ويرقى السلم بقدمين عاريتين كي يحضر لنفسه كوباً من الماء، ولكنه عندما يفتح باب غرفة الجلوس المقمرة، يجدها جالسة على الأريكة تأكل الأيس كريم بالمعلقة، وبصرها أثناء ذلك محملق في شاشة التلفزيون. إنه مشغل بلا صوت، وعندما يسألها عن حالها ترد بإيماءة من رأسها تكاد تكون غير ملحوظة. كما كان الكلب مستلقياً- ما لا يسمح له به في العادة- بين الوسائد، إلى درجة أنه لم يكن هناك مكان لفولف، فجلس على فوتيل، على الجانب الآخر من الغرفة. وفي وميض الشاشة المستمر المائل إلى الزرقة تلمع أظافر «ألينا» المدهونة

بطلاء لا لون له.. خيال الظل النحيف لورقة نخيل يرتجف على كتفها، وبعدما تناولت من الكوب الورقي كمية وافرة، مدت يدها بالملعقة إلى ويبستر وفيها بواقي الستراتشاتيلا وأضاءت مصباحاً أرضياً.

لقد أصبحت أكثر هزالاً بعض الشيء، خلال الأيام الأخيرة. فالخدان يبدوان أجوفين، كما أن طاقتي انفها مازالتا محمرتين، ولكن نظرة عينيها تبدو صافية، وكذلك الشعر، فقد تم غسله من جديد.. الظاهر أنها قد شفيت من عدوى الأنفلونزا، وربما أكثر من ذلك: في ظل هدوء النفس الجميل الذي يبرز معالمها على هذه الدرجة من الدفء، تقع من نفس «فولف» موقع شخصٍ صحيحٍ قد نزل به ما لم يرد أن يعهده أبداً، ولكنه قد شهد من خلاله تجدداً مسترضياً لطاقاته. على أي حال لم يعد هناك شيء مرّ في نظرتها، أو شيء لائم، وتشبك ذراعيها أمام الصدر، بحيث تتزحزح تقويرة «السويت شيرت» مظهرة أحد مشدات حمالة الصدر. «لقد راجعت نفسي»: تقول هي، وتنفسها العميق لا يزال صوته مرتجفاً بعض الشيء. «لا ينبغي لنا أن ندع الأمر يأخذ مسار صغائر الأمور».

أيا كان ما تعنيه بذلك، فهو لا يسأل. في ترقب يتكئ بظهره على المقعد، ويضع ساقاً على ساق، مقشعراً من البرد

قليلاً بالشورت. الكلب يتثاءب ويتقلب على ظهره، وهي تربت على بطنه، ويبدو أنها تبحث عن العبارات المناسبة. أكثر من مرة تشرع في الكلام، بحركة من شفتيها بلا صوت، وفي النهاية تزدرد ريقها، وتريد أن تعرف ما إذا كانت هناك نساء أخريات غيرها أو إذا كان قد خدعها في العديد من المرات خلال كل هذه السنين. يفرح في سره بأن نور المصباح لا يصل إلا إلى أصابع قدمه.. يمد يده إلى الطاولة، ويحتسي بعضاً من شايها العشبي الذي قد أصبح بارداً، ويثبت عينيه على صحن الكوب كأنما أمكّنه إيجاد ألطف جواب عن سؤالها. وبناء على ذلك تضغط باستيليا من الشرطة وتضيف أنها لا تتحدث الآن عن مضاجعاته لليلة الواحدة أو زياراته لبيوت الدعارة.. إنها تعفيه من ذلك.

ما من تعبير على وجهها، تؤتي به ردة فعلٍ على نظرة الاستغراب التي يرفع بها بصره، وبينما كانت تمص حبة التهاب الحلق، دست قدميها بالجوارب الصوفية البيضاء تحت الكلب، الذي قد غشيه النوم مجدداً وأخذ يهر في ارتياح. تود أن تعرف ما إذا كانت هناك عشيقات أو نساء قد جذبن شوقه نحوهن وقدمن له شيئاً لا يوجد لديها.. يعني أميرات الأحلام، وحين يجيب بعد أن يأخذ نفساً عميقاً عن ذلك السؤال بالنفي، وتضايقه عند إجابته بحة صوته الواهي يقول

لها عن قلب صافٍ إنه لا يحب منذ ما يزيد على عشرين عاماً أحداً غيرها ولا يتصور أن ذلك قد يتغير ذات يوم.. تحدق بهزة رأس لا تكاد تكون ملحوظة في الشاشة وتتخلل شعرها بأصابعها بطيئاً، ثم يعتريها ذهول شبه مطلق في نظرتها، كأنها فعلاً لم تتوقع منه ذلك.

صمتها الطويل يمد الوقت، ويتحتم عليه أن يتمالك نفسه حتى لا يواصل الآن الحديث، أو حتى يصطنع تأكيدات ليست بضرورية. منذ القدم واعتقادها الواثق يمثل محلاً تقع فيه كل نبرة خاطئة أو فاشلة موقعاً باطلاً فاحشاً. إلا أن ما بينهما من سكون يكون في بعض الأحيان أدق من كل حوار، وأكثر نقاءً كذلك. كأنما تقرر مكمن تغير لا يحتاج إلا للصبر، حتى يطلق عنان السحر من جديد ويتمم المداواة. «ويبستر» يرفع رأسه بدفعة قوية، ويتلفت إليها ثم إليه ويضطر أثناء ذلك إلى أن يلوي عنقه، و«ألينا» تخدش قشرة من على شفتها العليا وتغمض جفنيها قصيراً مرة واحدة.

صافية السماء تلك، خلف ألواح الزجاج التي تصل حتى السقف، والرياح بالكاد ساكنة،أما النجوم فتتلألأ فوق خضرة شجرة الزيزفون الشامخة، التي أصبحت في العهد الحديث «من عجائب الطبيعة»، بلافتة رسمية على الجذع، و«فولف» يستطيع أن يرى غزالاً في الحدائق خلفها، يسير

بحذر بعض الشيء وسط الشجيرات، ويحمل بقعة فاتحة على عجزه. كما أن ما حول الأنف يكاد يكون أبيض. يقضم براعم الورود وذلك النوار أو ذاك، محركاً أذنيه في ضوء الهلال. وأخيراً، تغلق ألينا التلفزيون وتنهض، فجأة، مما يدعو إلى استغراب «فولف». «من جهتي أنا، إنني بالمناسبة ما زلت أعشق مؤخرتك»، تقول لدى مرورها به، وقد كادت تلعق الملعقة التي أمسكت بها إلى الكلب من هنيهة. بيد أنها تتذكر ذلك وتضيف، بعد أن أصبح نصفها في غرفتها: «من الخلف ومن الأمام».

ثم تغلق بابها، وبعد أن عني بشأن الكلب، وأطفأ جميع الأنوار، قام فولف بتتبعها، فقد خلعت بنطلون الترينغ.. ورفعت نظرها إليه مقطبة الجبين، وهو يتجاهل قولها «ابتعد عني» بصوت خافت، ثم اقترب منها إلى درجة أنها لا تملك سوى أن تمسك به إذا لم ترد أن تقع. باليدين على كتفيه تنفض القماش من على بطن ساقها، وتميل نصفها الأعلى إلى الوراء، وتدير رأسها إلى الجهة الأخرى. تنتفخ سوءتها بقوة تحت الكيلوت الأحمر الداكن، وتدفعه بها، دفعة أغلب الظن أن الغرض منها لا يزال التمنع، غير أنه يدفع بها نحو الجدار، وبينما كان يتنشقها، وهما يقبلان بعضهما بعضاً، في وله لم يألفاه منذ عهد قديم، فتح حمالة الصدر التي قد تدلت

مشداتها قبلاً بقبضة واحدة ولمس ثديها وكأنها أول مرة. حقا، إنها لم تزل تنظر إليه، وكأنما ما زال ينبغي عليها أن توازن شيئاً في نفسها، لكنها تتنفس بصوت أعلى، وأخيراً، لا تستطيع هي أيضاً أن تمنع نفسها من الطهارة الجديدة في ما بينهما أطول من ذلك فدست راحتها عميقاً خلف إطار شورته بقدر ما يسمح به خاتمها اللؤلؤي، ثم اغمضت عينيها.

عندما يعود في اليوم التالي مع الكلب من البحيرة، يجد سلة صغيرة على مكتبه.. كرزاً من عند الرجل الأخضر. إنها هدية وداع، فالفيلا القديمة ذات الحديقة المهملة قد تم بيعها لرجل من الغرب.. سياسي اتحادي، وسيتم ترميمها خلال هذا الصيف. منذ عهد غير بعيدٍ، انتزعت واحدة من تلك العواصف المفاجئة، التي هبت في الفترة الأخيرة بصفة متكررة نصف السقف. وقد وارى ذلك الزاهد، الأضرار بغطاءٍ بلاستيكي سميك، عبارة عن ملصق سينمائي ينتفش ويطقطق في الهواء، فأصبح هناك «سبايدر مان» عملاق يزحف فوق قمة السقف.. إنه آخر بيت رمادي في الشارع.. في الملاط الخشن المصقول بلا ترو، والذي هو من معالم الجمهورية السابقة.. قد نشأت من خلال الحصيات الصغيرة والأكبر حجما في المونة أشكال صحيح انها تبدو

مقصودة، ولكنها في الغالب لا ترجع إلا إلى نقص في الرمال المنخولة. وفي بعض الأيام تتشبث بها أعداد لا تحصى من العصافير والقراقف، مرفرفة بأجنحتها لكي تنقر الحشرات أو يرقاتها من الثقوب. وعلى الجانب المواجه للرياح تنمو فضلاً عن ذلك أيضاً الطحالب، التي كان لونها ضارباً إلى السمرة كالفراء.

في اليوم الأسبق لانتقاله تحضر «ألينا» للرجل، زجاجة شمبانيا، وتتبادل معه أطراف الحديث برهة عند سور الحديقة. لقد وجد شقة جديدة في وحدة سكنية مبنية من بلاط البلوك المسلح بحي «مارتسان»، وبعد أن حمل حقيبتين، ومرتبة إسفنجية، وبعض الأوانى، ومصباحاً أرضياً على ظهر مقطورة صغيرة، لوّح لهما بيده وركب سيارة ترابنت تقودها امرأة. يبدو من قلنسوتها التي تتوج رأسها المشتعل شيبا أنها ممرضة، وتضحك ضحكة مجلجلة عندما يتوقف منها المحرك لحظة الانطلاق. إلا أن السيارة ذات المحرك ثنائي الأشواط، تنصرف بعد ذلك مطقطقة بالحمولة المترجرجة على أرض الشارع المرصوف بالحصى، و«فولف» يستنشق الرائحة الخاصة– التي عادة ما يستفظعها إلى أقصى الدرجات– للدخان الضارب إلى الزرقة، والذي يظل عالقاً في الهواء وهنة، آسفاً بالكاد كأنما هو شيء ثمين،

مثل عبق التاريخ الذي قد انصرم معه أيضاً شوطٌ من التاريخ الذاتي. «كان رجلا طيبا»، تقول «ألينا» وتمسك بيده. «يظننا من السعداء».

هو بصدد إعداد مسودة جديدة للمراجعة، عندما يتم على الجانب الآخر نصب سقالة وتفكيك البيت. تستخدم الأزاميل الكهربائية، ما يسمى بمطارق التانغو، وعن طريق مزالق أسطوانية، تتدحرج مخلفات البناء إلى الحاويات.. تتكاثف سحب من الأتربة، وإذا لم يكن هناك تفريز، أو صنفرة، أو حز في إحدى المرات، يدّوِ رنين الطقاطيق المنبعثة من راديوهات العمال في أرجاء البناية. «فولف» يحشر قطناً داخل أذنيه، وذات يوم يقف في النافذة وينسكب بعض من قطرات الطامس على ورقة، عندما يقذف أحد الرجال بطوب حراري ملمع من الشرفة، بحذر، حيث إنه في الغالب يود أن يستخدمه مرة أخرى. يسقط على كوم من التربة الفوقية الطرية، وينفضه أحد زملائه بهدب ويرصه في سيارة التوريد الخاصة به.

بناء مواقد التدفئة، أيضاً واحدة من تلك التسميات– مثل طباعة ضوئية على سبيل المثال أو تنضيد الحروف، التي لن يصبح لها وجود عما قريب.

يواصل فولف العمل بصدرٍ منشرح، حيث إنه يشعر في

ظل وجود العمال بالضبط بما هو ضروري من البهجة من أجل أن يتكامل النص بالنسبة إليه، ذلك لأن الشكوك في إتمامه شيء ذو أهمية فلا يبددها تشجيع الناشر أو المراجع، أو نقد خالص أو سوق ناجحة لكتبه إلا فيما ندر. هذا كله يمكن دوما أن يحطمه سوء الظن بسهولة فائقة، حيث إن الناشر لا يريد سوى كسب المال، والنقاد لا يجيدون القراءة من الأساس، ويكفي دليلٌ على ذلك مدى أخطائهم في الاقتباس في كثير من الأحيان، وأرقام المبيعات يمكن دائماً أن تكون أحسن. لو أقام لكل هذا وزناً، لكان له ذلك بمنزلة دليل أكيد على أنه قد انحرف عن الأمر المهم. لكن كانت دوما– ولم تزل– الإشارات التي لا بأس بها ولا يمكن لإساءة فهمها أن تحميه من ذلك.

مسألة حساسة، ومن المؤكد أنها شخصية إلى حد لا يُسمح بالحديث عنها من الأساس. ذات مرة منذ سنوات، عندما قام بعد انتهائه من إلقاء محاضرة في إحدى المكتبات بإجراء محاولة، لقي قصوراً عابساً عن الفهم لدى الكثيرين، بل قوبل أيضاً بالاتهام بإظهار نفسه وكتابته بصورة أكثر تشويقاً، من أجل الكسب. تسويق غامض، فمنذ ذاك التاريخ وهو يفضل السكوت على القصائد والقصص التي قد رآها حلماً، على حصول وقائع مبتدعة أو ظهور مفاجئ

لشخصيات روائية أو لحيوانات في المتنزه قد قام بوصفها أيضاً على اللعبة القطيفية، ذاك اليوم في منتزه فونتانيه، عثر عليها بعد أن أرسل روايته الأولى، التي يقفز فيها بين الحين والحين أرنب أبيض بين السطور.

ما زال يقذف بالبلاط الملمع من الشرفة، وفي إحدى المرات أيضاً بمنفضة رماد، مطروقة بمهارة بالغة، وبينما يراقب «فولف» العمال، يبعث بشكر صامت إلى أي مكان. في كتاب فيه مجموعة قصص قد انتهى منه في التو هناك واحدة، الأخيرة، تدفع بها فتاة شابة ورجل متقدم في السن الملل بتلاعب الكلمات أثناء رحلة قطار. الاثنان يجنحان إلى عدم النظر أو الإنصات جيداً، فبدلا من ورم يقرآن كرم، وبدلا من مقلم مخرم، وبدلا من حديقة الحيوان حديقة الطيران إلى آخره. ومع كل الفكاهة الأولية فهي أيضاً قصة تنمحي فيها الحدود بين الحياة والموت بطيئاً، ومن ثم يعتقد الرجل، الذي يكاد يدهس من عربة نقل عند المحطة الشرقية، للحظة أنه يقرأ على هيكلها عبارة وحي *السماوات*. ولكن كان مكتوباً عليها نزع *الدفايات*. وبينما ينزل العامل على الجانب الآخر، بلاط رأس مدفأة مزخرفاً بالذهب، ومربوطاً على حبل وينظفه زميله ويضعه في حجرة الشحن، يضع فولف «*يعتمد للطبع*» أسفل النص ثم يأخذه إلى مكتب البريد.

هل تكون الشيخوخة، قد بدأت تعلن عن نفسها، إذا أصبح الإنسان فجأة يكتب كلمات معينة صحيحاً بعد أن كان يخطئ في كتابتها في كثير من الأحيان حتى ذلك الحين؟ روماتزم على سبيل المثال، أو بواسير؟– آه، إيروس الوقاية: صورة أشعة طبيب العظام تحت الإبط، وقالب الأسنان الجبسي داخل الحقيبة، ومجهر طبيب العيون المثبت بكثرة ما فيه من مسامير وتروس على الأنف، والإصبع المطاطي لطبيب أمراض البول في المؤخرة– وفي الخارج في الظلام تضحك الثعالب.

الآلام تكاد في كثير من الأحيان، تصبح فوق الاحتمال، وصفات بلدية، نظام غذائي، وأدوية علاج المثل بمثله قد فشلت، ومن هنا فقد أصبح «فولف» يتوقع أسوأ الاحتمالات، من قروح المعدة مثلاً إلى داء الكرون، عندما يأخذ موعدا عند الطبيبة الأخصائية في آخر الأمر. إنها فنية بشرية، ومتمكنة تكنيكيا.. وقد تعلمت في الجمهورية الألمانية الديمقراطية، وفي ما يبدو تعده أيضاً من الشرق. على أي حال تتوقف أثناء الفحص الأولي في العيادة المكتظة بالمرضى، والتي يعزف في جنباتها رنين التليفونات، وقرقعة القباقب الطبية، وصفير أية مضخات طرد أخرى، وتقول: «لن تصدق حضرتك كم يبلغ عدد من لا يزالون يحملون دولتنا السابقة في داخلهم–

على هيئة أورام سرطانية..».

على الخزائن في كل مكان يوجد هناك تحف صغيرة، جندول مذهب، برج إيفل فضي، تمثال حرية من البلور. الحيوانات القماش مصفوفة على رف خشبي بالحائط بحسب الحجم. هي تتكلم بصوت مرتفع.. تكاد تصرخ، وحينما تسمع أنه كاتب، ترفع حاجباً، وترسل بصرها سريعاً إلى فئته التأمينية، وتتكئ بظهرها على المقعد مرة أخرى. قد قرأت في صباها «الحرب والسلام»، بالروسية، وكانت دائماً تبكي فحسب. «تولستوي هذا...»، تقول. «يا له من رجل، أليس كذلك؟ كان قبيحا قبح الـ Wurzelsepp، ولكنه من كثرة المبادئ عاد وكان جميلاً. وكتب ذلك المشهد، الذي وجد فيه لوين وكيتي بعضهما بعضاً– أم أن هذا الآن في «آنا كارنينا»؟ ماذا تظنه حضرتك بقائل عن عالمنا اليوم؟ إننا لنعيش في زمن ثقافة الثرثرة، أليس هكذا؟ أريدمثلاً أن أشاهد مباراة لكرة القدم في التلفزيون، ولكنني أشرع أولاً بساعة لا بأس بها من الكلام الفارغ، ثم بعد قرون يبتدئ اللعب، وفي الاستراحة يكون هنالك كلام أيضاً، من قبل خبراء مزعومين، يواجهون صعوبات في القواعد الابتدائية للغة. وما تلبث المباراة أن تنتهي، حتى ينضم إليهم أيضاً المدرب، ويشبعونني جميعاً، لتاً وعجناً عمّا كان يدور على تلفزيوني منذ لحظات.

ذلك لأنني طبعاً عمياء، أليس هذا صحيحاً. حسناً، سنقوم بعمل أشعة موجات صوتية لحضرتك. لا لا، هذا كان تنظيراً داخلياً على ما أذكر. ستفشل فشلاً ذريعاً».

ليومين متتاليين يتناول المسهلات ويطوي قيعان اكتئابه على ظهر قاعدة المرحاض، وتعد له «ألينا» الشاي العشبي مراراً وتكراراً أثناء ذلك، ثم يصبح المصران فارغاً، وبالتالي يمكن معاينته. في الصباح الباكر المتفق عليه، يسود العيادة سكون تام. فعلى طاولة الاستقبال هناك باقة زهر جديدة، وعلى الطاولة الزجاجية، المزدحمة بالمجلات والمنشورات، التي تستعرض بألوانها الزاهية كافة الأمراض الممكنة، توجد شمعة مضاءة، وبجوار طبقٍ فيه بسكويت، لا يؤكل منه إلا بعد الفحص، يتصاعد البخار من إبريق شاي على مسخن، والموسيقى الخافتة- على ما يبدو على سبيل التهدئة- تنبعث من مكبرات الصوت أسفل زخارف السقف، كما أن الموظفين بدا وكأنهم يمشون على أطراف أصابعهم ويتكلمون في همس.. كأن حجرة الانتظار قد صارت فجأة شيئاً مقدساً.. غرفة خشوع. جميع المرضى- إلى جانب «فولف» ينتظر رجلان أشيبان وامرأة من عمر «ألينا» تنظيرهم الداخلي- في حوزتهم شنطة بلاستيكية فيها الفوط المطلوبة، وزوج الجوارب فيها السميكة بشكل إضافي، ولا

أحد يتكلم أو يقرأ أو حتى فقط يقلب في إحدى المجلات، فقد أوهتنهم أيام الجوع والمسهل.. يستغرقون في الأحلام أو يحملقون في الجدار، صور المناظر الطبيعية بالألوان المائية وفي أطر مموهة بالفضة. وبين فترة وأخرى نسمع فقط ازدراد ريق أو نحنحة، وشعيلة الشمعة ترتعش كلما صدرت من أحد تنهيدة.

كان قد تزعزعت أركانه على السلم سلفاً، وهو لا يزال في بئر سلم البناية القديمة الجميلة، وتلَّفت خلفه مرة ونظر عبر الألواح الزجاجية للباب إلى السماء. النظرة التالية إلى هذه الزرقة قد تكون نظرة من كتب على جبينه الموت، كان ذلك تخوفاً لم يتسنَّ له حظره، وفي ما يتعلق بما يسمى بالتفكير الإيجابي: من قديم وما يحتاج إليه ذلك من مجون وحده يكفي لأن يجعل «فولف» سلبياً، ولكنه بعد ذلك يتذكر النزهة التي قاما بها قبل ذلك بيوم.

كان الجو ماطراً على البحيرة، وخاليا من الناس، وأخذ «ويبستر» يلعب في الأدغال. شعر «فولف» بأنه خفيف بعد الصيام، من دون ثباتٍ حقيقي على الأرض، وشبّك ذراعه بذراع «ألينا»، عندما هبط طائر على الطريق بلا صوتٍ وبسرعة تتعدى كل فزعٍ.. قرقف صغير. فقد دنا من قدميهما إلى درجة أنهما تسمرا في مكانهما من غير عمدٍ،

وثبتا بصرهما إلى أسفل وكأنهما يريان معجزة. وإن شاءا لكان قد سهل عليهما الانحناء والتقاطه، وبينما هو يجوب المتنزّه ناقراً هنا وهناك، رفع نظره إليهما بلا وجل مراتٍ ومراتٍ، ربما لأنه كان جائعاً، وأمل في أن يحصل منهما على أية فتات، إلا أنهما لم يكن معهما إلا بعض العلكة.

وعلى الرغم من ذلك بقي على مقربة منهما، ولم يطر أيضاً، حينما نويا الذهاب في نهاية الأمر، وتقدما خطوة أولية باحتراس. فقد ابتعد قفزاً بما فيه الكفاية لاستعادة المسافة الأصلية، وأخذ يكرر ذلك ثانية وثالثة، لبضع دقائق، ومصدراً صوتاً حاداً أثناء ذلك بين الفينة والفينة. «إذاً، يا عزيزي؟»، سألت «ألينا»، دون أن ترفع عينها عن الطائر: «ماذا يعني لك هذا؟» إلا أن فولف- الذي بقي ساهماً، وواجماً وقد أخذ الألم منه كل مأخذ، الفحص الذي قد أصبح على الأبواب، يعده شراً- فقط رفع منكبيه.. ماذا عساه أن يعني له؟ فارتسمت على وجهها ابتسامة عريضة. «أليس ذلك واضحا؟ لا تخف!»، قالت هامسة، وفجأة انطلق الطائر وانصرف.

الستائر الجرارة لحجرة الكشف عالية السقف، التي جهزت بقطع مهشمة من الأثاث الأبيض، وكافة الأجهزة التقنية والشاشات الممكنة، والتي كانت الطبيبة قد تحدثت

فيها معه عن الأدب وكرة القدم.. مغلقة، وعلى المكتب فقط كان هناك مصباح صغير يومض فيلمع في ضوئه نصل فتاحة خطابات. وبينما تعلق المساعدة بنطالا من ورق في كابينة تغيير الملابس، وتقول له كيف يجب لبسه- الفتحة في الخلف-، تنظر إليه بلطفٍ جعل ما فيه من رحمة يديه معرورقتين. وفي الوقت ذاته إنه ممتّن لتلك الرعاية غير المتوقعة لاستحيائه، حتى لو أن القماش الأزرق الفاتح المصنع من المواد السليلوزية خفيف إلى درجة أن بإمكانه قراءة ميناء ساعته من خلاله.. يرتدي الشورت الصحي وهو مرتاح النفس ويفرش فوطته على المضجع. الخراطيم، التي ستدخل في جسده، معلقة على حامل: واحد قصير ورفيع لمعدته، وآخر طويل أكثر سمكاً للمصران، وحينما تتحقق الممرضة من اللمبات الموجودة على أطرافها، والتي كان ضوؤها بالغ السطوع، تدخل الطبيبة الغرفة.

ترتدي كمامة، ومريلة مطاطية بيضاء، وقفازاً يصل إلى ما بعد المرفق، أخذت تعدله بينما كانت تجلس في الكرسي الدوار. تتمتم قائلة: «لقد نفدت مصافي القهوة»، وتتصفح التقرير الطبي. «هل أخذ المهدئ؟» مساعدتها تهز رأسها.. لم يرد البنج، والسيدة تغمز له بعينها، وتبّخ له مزلقاً طبياً في الحلق، وتضع حلقة تسنين بين أسنانه، وتشغل الشاشات.

«حسناً، فلنلقِ معاً نظرة في أعماق أعماقك، يا أستاذ كاتب... ربما نجد بعض القصائد الغنائية.. تابع التنفس في هدوء تام».

تنظير المعدة ليس مزعجاً بقدر ما كان يخشى. عليه أن يغص مرة واحدة قصيراً عندما يجتاز الخرطوم حلقه، ثم يصير الشعور تحت عظم القص شبيهاً بذاك الذي يحس به المرء بعد ابتلاع قضمة كبيرة وجامدة أكثر مما ينبغي، بل وحادة الحواف بعض الشيء، ولم تمض بضع ثوان قليلة حتى أصبح بالكاد لا يلقي إليها بالاً. ضمغ الأنف مضغوطة، وفي شيء من اللهاث يلتقط أنفاسه مروراً بكل ما في فمه من بلاستيك ويخلب لبه منظر أعضائه المضاءة: الثنيات الطولية بالمريء، فتحة الفؤاد النابض، المعدة التي تشبه الكهف، وهي بمناطقها الداخلية غير المستوية تبدو له مثل الصورة العكسية لكوكب غريب، والغشاء المخاطي السوي، الذي قد تصوره رمادياً مائلاً إلى الصفرة، شبيهاً بالكرش الأهلب لدى الكلاب، والذي له لون وردي ذو رقة أخاذة.. يبدو من كل الوجوه أطهر منه هو في أي وقت كان. ينظر في عيني الطبيبة كي يقرأ فيهما شيئاً.

«كل شيء على ما يرام».. تقول ذلك من وراء كمامتها، التي يتحرك نسيجها الورقي خفيفاً. «كما في الكتاب

المدرسي تقريباً.. لا قرحة، ولا ندبة، ولا أي شيء. الراجح أن حضرتك مصاب بملوية بوابية، جرثومة معوية على الموضة في الوقت الحالي لدى من هم في عمرك.. واحد من كل اثنين يعاني منها. بعضهم لا يلاحظونه على الإطلاق، وآخرون لا يعرفون رأسهم من رجليهم من شدة الآلام». عندما تؤخذ خزعة بجفت قد انطلق من داخل المنظار، ضئيلٍ كمنقار القرقف، يكون هناك مرة أخرى ألم حاد، ثم تخرج المساعدة الخرطوم اللامع من الغرفة. كما أنه أثناء تنظير المصران الذي تلى ذلك لم يشعر بالكثير ويأكل، بإحدى اليدين تحت وجنته، بونبون بنكهة النعناع في فمه وهو يشاهد الصور التي تظهر على الشاشة بكل حواسه. لغيبته في باطنه الذاتي.

كل شيء كان قد وضعه في الحسبان: الدم والمخاط والرواسب اللزجة من البراز، والقروح المتقيحة والبوليبات، ثم بعد ذلك هذا: بقوة تضاهي الهول، الذي يختطف لون الإنسان حينما يسمع صوته من شريط التسجيل للمرة الأولى في الحياة، تعتريه الآن- بعد خضة وجيزة من رؤية الصورة المكبرة لعاصرته التي يغطيها الشعر على الشاشة- بهجة مفاجئة بشاعرية اللامرئي، والتجاويف اللانهائية لها، والتمعج الهادئ لأمعائه الغليظة ذات الثنيات الهلالية الموزعة في تناظر لم يكد يخاله ممكناً في داخله. الأغشية

المخاطية الوردية تلمع عند التجاويف، بلون بنفسجي رقيق، وبالأعراق التي تتبدد في الظلال، والزبد ذي اللون الأصفر الفاتح المتطاير هنا وهناك، فضلاًت المسهل الحاد، يبدو له مصرانه الذي لا قرار له مثل شكل صورة من ظواهر المحيط، شعب لم تسبق رؤيتها. على المرآة المقابلة، يمكنه أن يرى نقطة ضوئية تحت جدار البطن، والطبيبة تلوح لعينه مبتسمة من خلف الكمامة التي تكونت عليها بقعة من التنفس، وتغمض العينين في رفق. «وهنا تندهش حضرتك، أليس كذلك؟ إن الإنسان نظام أنابيب رومانسي».

الاندهاش ليس تعبيراً. إن آخرة ما، أياً كان نوعها ليس فقط لا يمكن تصورها فحسب، بل ولعلها قد تكون أيضاً جميلة على نحو لا يتصوره عقل. هنا ينوه له بذلك بصوت غير مسموع. كل ما هو داخليٍ، سواء أكان ذهنياً أم بدنياً، استوى عنده إلى حد الآن، والفوضى، والإهمال، والغليان الملتبس. إلا أن ذلك العالم المذهل، المصور بمزاج خالص الرقة، والذي يتميز حتى في أصغر انحناءاته والتواءاته بالأناقة، يتجلى فيه نظام عميق بالغ، يرمي بصورة بينة إلى ما يتعدى حدوده هو وجسده.. حظوة محسوسة تهز إلى هذا الحد أيضاً لأنها تظهر له مدى قلة إثباته لجدارته بها إلى الآن كما أنه قد عبث بها عبثاً مزرياً. مدى الضعف الذي كان عليه إيمانه.

يأخذ نفساً عميقاً حينما يتقدم مرة أخرى إلى خارج الباب الزجاجي، هو راض كل الرضا. من المخبز تهفو إليه رائحة الأرغفة الصغيرة الطازجة. سيارات الشرطة تقطع المتنزه، والضوء الأزرق يومض تحت السماء الزرقاء.

«ماذا كنت ستفعلين لو ظهر عندي شيء مكروه.. شيء نهائي»، يسأل «ألينا» بعد وصول التشخيص المرضي المطمئن ببضعة أيام، وهي ترفع منكبيها. بينما هو بالكاد دائماً ينسى نفسه، كلما كانت مجرد مزكومة أو مصابة بصداعٍ، ويشتري كافة وسائل المساعدة الممكنة على الفور، وفي كثير من الأحيان، يزيد من ألم مرضها حينما يضيق عليها الخناق بصبره النافذ، وتبقى هي في معظم الأحيان هادئة النفس. «في تلك الحالة كنا سنتعايش مع المرض»، تجيب هي. وعندما يضحك على هذه البراغماتية ويقول: إنه ينتظر بكل سرور أن يمسح لها في يوم من الأيام العصيدة من على ذقنها، ويدس تحتها مبولة السرير، والبلعوم، تهز رأسها برفق. «آه! كلا، يا بيبي، لن يصل الأمر إلى ذلك الحد أبداً. ليس بنا».

الويل لمن لا يشيخ في حمى الحب.

حيثما كانت هناك في الماضي أقفاص صدئة، مصطفة صفاً طويلا لكلاب الشرطة الشعبية، يملط الناس الآن البيوت المملوكة لهم. وأول شيء يضعونه في غرفهم الجديدة، هو

رفوف الملفات.

ترغب في رؤية صورة للثانية، تريد أن تتمكن من رسم صورتها في خيالها، وهو يحضر لها اثنتين : الرسمية، المعروضة على صفحة الإنترنت الخاصة بكليتها، والتي تبدو فيها «شارلوتيه» كما الزعيمة المديرة ذات القلب العطوف، الحازمة رغم ذلك في أعمالها دائماً- على أن الهالة الواضحة، التي تمنحها الموهبة، وتكدرها في النظرة الأولى مسحة حزن جميلة، مركزة من كثرة ما لم يتم إشباعه من شوق، تبرز في الثانية- أما الأخرى فمنذ السنة الماضية، تقف أمام باب حجرة نومها مرتدية بذلة داكنة، وبلوزة مكشكشة واسعة الطوق، وحذاءً مدبباً كعادتها، ومن الغريب أنها تنظر إلى الكاميرا في حرج على الرغم من الابتسامة المشرقة. أغلب الظن أن ذلك من شأنه أن يعمي عن أنها لم تكن في حال جيدة في ذلك الوقت. هزيلة تبدو، ومع ذلك لا يفوتها أن تزيد من حلاوة قسماتها بعض الشيء من خلال إبراز الأرداف، وبعد أن نظرت «ألينا» إلى عينيها على الصورة طويلا تقول: «مذهل. إنها تناسبك. إنني أتفهمكما».

لم يتغير الكثير منذ أن قام بالاعتراف. كل أسبوعين، مسافة قد حددتها رغبتها. تدريجياً مع الوقت، يذهب إلى «شارلوتيه»، وإن تقرر مثل هذا اللقاء منذ زمنٍ طويل، إلا

أنه لكي يهون الأمر على «ألينا»، يعلن عنه دوماً في اليوم المعهود، بعد تناول الإفطار مثلاً أو ظهراً أثناء غسل الأطباق، وبطريقة عابرة قدر المستطاع. من عاداتهما أن يشربا فنجان الشاي أو القهوة الثاني في الصباح على الأريكة، مستندين إلى بعضهما، وأن يصعدا بأحلامهما إلى السماء فوق شرفتهما الجنوبية، وفي الغالب يصمتان أثناء ذلك ويستمعان إلى الموسيقى، ولكنهما أحياناً يتبادلان أيضاً وجهات النظر في أعمالهما الراهنة ويسديان النصائح إلى بعضهما.

يتعذر عليه التفاعل مع أدبها العلمي، ولغة الأعمال الثانوية، ولكنه يعجب المرة بعد المرة بقدرة «ألينا» على استيعاب أهدافه ورؤية جوهر نصوصه من دون أن تغفل عن تشعباتها الرفيعة أبداً. شعورها الفطري بإجادة العمل شعور يمكن الوثوق به، حيث تواصل نسج خيوط الأحداث، وتقترح الأسماء، وتشير عليه بكتابة الخطابات أو إجراء المكالمات التليفونية، وأثناء حديثها يمد أذنيه يتسمع بباطنها إلى أن يشعر بأن إخطاره الخافت، والبادئ بكلمة «بالمناسبة...»، لن يزيد تأكيداً مثلاً من خلال الأسلوب العابر المتعمد، فيحتمل أن يرجع ويتسبب في شجار أو دموع، وذلك لأنها إذا ما عزمت على أن تتقبل تلك العلاقة فإن ذلك لا يعني أن الأمر لا يشغل لها بالاً عندما يذهب إلى الثانية. أرقها المفاجئ،

والجدية الجديدة في عينيها، وآثار القيء في الحمام، كلها أمور تتحدث عن نفسها.

على أي حال، عندما يقول: «أنا مرتبط بموعد في ما بعد» أو «غالباً لن أكون موجوداً هذا المساء» فهي لا تدع أي أثر لخيبة الأمل يظهر عليها، تومئ برأسها إيماءة لا تكاد تكون ملحوظة، وربما تسأله أيضاً إذا ما كان يريد أن يأكل شيئاً قبل ذلك أو يحتاج قميصاً مكوياً، وتنبهه إلى عدم المواظبة على ارتداء سترة القطيفة المستهلكة أو المعطف الشامواه عند ذهابه إلى عشيقته، فهو لديه الكثير من البذلات الجميلة. وعندما يقترب الموعد ويستحم، ويحلق، ويدهن بشرة مؤخرته التي تزداد ترهلاً بالكريم، ويلبس ملابس داخلية نظيفة، تبقى هي مع «ويبستر» في حجرتها وتعمل أو تستمع إلى الموسيقى الهادئة.. في أغلب الأحيان إلى ألحان موزارت أو هايدن. ولكن أن يودعها بعد ذلك، فهذا ما لا طاقة له في فعله. ومهما كان وقع نظرتها إليه، فإنه لن يرى فيها إلا الألم أو الاجتهاد في إخفاء حزنها عنه. بلا سلام ينزل السلم ويصفق الباب خلفه بصوت خافت.

ومثلما لم يستطع في ما مضى في حالات الانفصال أبدا أن يتفهم أن الأمر بعد كل هذا العشق واليأس، بعد الصراعات والدموع وأفكار الانتحار، في النهاية يتعلق بمحمص الخبز

أو طقم فناجين بيضاء أو فاتورة نور تستحق الدفع، فهو الآن لا يكاد يصدق أن الوضع الجديد فعلاً لا يؤدي إلى تعكير الصفو أو إلى مشاجرة إلا إذا انقضت مدة طويلة من دون أن يضاجع «ألينا» قبل لقائه بشارلوتيه. إذا بدا عليه أنه يفضل الثانية– وهذا غير صحيح بطبيعة الحال، حيث إنه مضطر إلى اتباع أجندة مواعيد السيدة المرهقة بالعمل- راعى الالتزام بتلك الشعيرة التي تقع من نفسه موقعاً ضارباً إلى عالم الحيوان على وجه من الوجوه، وذهب معها هي أولاً إلى الفراش. ولأنه لا يريدها أن تشعر بأي شكل من الأشكال بأنها قد نزلت عن مرتبتها فهو أكثر محبة لها من أي وقت كان، حيث تبدو له صرخاتها، وبشرتها المتوردة بين الثديين، وعنف تحركاتها الذي يتجاوز المألوف تأتي مؤكدة له ذلك. كأنما ضميره المتبلد بالغيوم هو الكبريت الذي يجعل من الأمر ألعاباً نارية.

ولكنه بالذات خلال الفترة الأولى بعد الاعتراف، يأخذ على عاتقه أكثر مما في وسعه القيام به، مستغرقاً في نشوة حريته المفاجئة، ومتحرراً من قيد حاجته إلى التصنع والرياء. يعيش الآن في بعض الأحيان وكأن له عاتقاً جديداً يحمل عليه الأعباء ويقع في ظل جاذبية «ألينا» المتغيرة، التي في ما يبدو قد أنعشتها ظلال الثانية، في شرك صورته الشخصية

الخاصة عن الرجولة. الثوب الحريري الضيق، والجوارب الشبكية المثقوبة عند إحدى العقبين، والزرقة الرائعة المبتذلة للأجفان، أحياناً تدفع به قبيل تحرك القطار إلى الزاوية لكي تمتص مخ عظامه، ما يسكت عنه.. يكفي أنها تمنحه الإحساس بأنه يمتلك قوة، غير عادية، وليس مجرد العزيمة على القوة. التي يقتصر عليها الأمر في الواقع. ثم بعد ذلك يهوي بعظام جوفاء خائر القوى على أريكة «شارلوتيه»، وصحيح أنهما يخلعان ملابسهما، لكنهما يشاهدان أولاً أحد الأفلام الداعرة على حاسوبها المحمول في انتظار أن يفيق عضوه من نومه الحلزوني، حيث إن لديها مجموعة متكاملة من اسطوانات الـ dvd التي تحمل أسماء مثل: «القيود المبللة» أو «استعراض القذف 1-4» أو « من باب التغيير: الممارسة الشرجية في الحياة الزوجية!». فالمنتجون ودور النشر، الذين كانت قد بعثت إليهم خطابات على الورق الخاص بالجامعة، تركوها لها، من أجل دراسة ترمي إلى رسم بروفيل نفسي لمستخدمي الأفلام الداعرة، بتكليف من مجلة نسائية. فيلمها المفضل هو «فقرة سحاقية» حيث تحك فيه امرأتان ناهضتا النهدين عضويهما التناسليين مع بعضهما بعضاً كما نصفي الثمر، بلا نهاية، والصوت الخافت الذي يصدر عن ذلك، يبدو له وكأنه الترجمة السمعية للعذوبة.. العذوبة الخالصة.

قبل أن يصبح الوصول إليها ممكناً عن طريق الإنترت، تعذر عليه أن يحرم نفسه من المفعول التخديري الخفيف لمثل هذه العروض. في الفنادق التي توافرت فيها قنوات تلفزيونية مختصة بذلك، كان في كثير من الأحيان يبقى مستلقيا أمام التلفزيون حتى الساعات المبكرة من الصباح، من دون أن يشعر في ما بعد بتأنيب الضمير الذي يصيبه عندما يقضي ساعات طويلة من التحديق في الشاشة لمتابعة المسلسلات، والبرامج الحوارية التي تعرضها القنوات التي تدعي العفة، وذلك لأنها تضع للفطرة الغريزية حدوداً مستوية ولا تقدم إلا مواد بديلة مفعمة بالألوان الزائفة، ومحسنأت الطعم تصبح هي الداعرة الحقيقية، والشيء الوحيد الذي تعطيه للإنسان هو الشعور المخجل، بأنه قد كان مرة أخرى أكثر ضعفاً من أن يغلق التلفزيون وبأنه قد أضاع وقتاً ثميناً من عمره سدىً، في حين أن مشاهدة الأفلام الداعرة، سرعان ما تطلق طاقات جديدة، ورغبة عدوانية نشطة تتعدى حدود الجنس وتبدد حالات الاكتئاب.

قرب نهاية فترة طفولته الكاثوليكية، ترددت كلمات مثل عفيف، وغير عفيف على مسمعه بصفة متزايدة، وبدا له فيها أن ثمة شيئاً خفياً يتكثف من حوله مع كل شهر يزيد في عمره، عندما أصبحت هناك على حين فجأة مواد عالقة

في الهواء، قد استطاع أن يتذوق طعمها على لسانه—شيء حلو مر، جعله يزدرد ريقه بصفة مستمرة، وجعل قضيبه الصغير ينتصب. أنار الأمر جوانحه المظلمة كما الكشاف المضيء عندما اكتشف ظرفاً مليئاً بالصور الداعرة بالابيض والأسود في الكومودينو الخاص بوالده.. صوراً شخصية على ما يبدو، فالأشخاص ذوو الأقنعة وطراطير الكرنفال لم يعودوا صغاراً، الرجال فقد بدا عليهم العمل الشاق والإفراط في الشرب في حين ظهرت على النساء آثار العمليات القيصرية وفترات الرضاعة الطويلة، ومع ذلك كان ما يقومون به وحده سببا كافياً لأن يجعلهم بالغي الجمال في نظره. ولكون هذه الإمكانية موجودة في هذا العالم من الأساس فقد بدا له مثيراً للصدمة ورائعاً. لقد أشرقت في أعماقه آفاق سماوية جديدة، فالأزواج الثلاثة أو الأربعة على السجاد بدوا وكأنهم يشعون نوراً من رونق التحرر الذي يتميز به الكبر خارج نطاق الهموم والاستياء، أو بحسب تصوره، والذي كانت تهفو نفسه إليه طوال الوقت وهو لا يدري. إذاً، إن له وجوداً، الحب الشامل، الحظوة بأسارير باسمة وقضيب في كل يد، وكان هذا الاستبشار مبهجاً إلى درجة أنه لم يكد يحتمله، ولكنه قد ربأ بنفسه عنه في بادئ الأمر، مستنكراً «إنهم يمارسونه! إنهم يمارسونه فعلياً! هؤلاء

الخنازير الفاجرون..». ثم بدأ يستمني وهو يبكي بكاء مريراً، مراعياً في ذلك ألا يلطخ ملاءات السرير. ولم يعد يراه أحد في الكنيسة منذ ذلك الحين.

ستان في لون زرقة الليل.. موسيقى النهاية على الأبواق الفرنسية العارمة والكمانجات الدرامية تتصاعد وتتسارع وصولاً إلى ذروة عليا، يكشر فيها البطل عن أسنانه قبل أن يندفع قليل من سائل الرجل، كما تسميه «شارلوتيه»، متدفقا كما الشهب الساقطة على الملاءة. اسطوانة dvd جديدة تنزلق إلى داخل الجهاز. «إن معالم شخصيتك تتطابق تماماً مع ما تعيش عليه بمنتهى الدقة»، تقول وتعبث بخصيتيه حديثتي الحلاقة، واللتين قد عادتا تنبتان الشعر. «إنك صحيح بالكاد لم تعد تؤمن بالحرمات، ولكنك لا تريد أن تستغني عن لذة خرق بعض منها. إن هذا هو آخر بقايا الإباحية، وهو ما يجعل النقود تخشخش في جيوب الناس. انظر، إنه يفيق..». وبينما تفتح على الشاشة أبواب سيارات الليموزين، وتصب الشمبانيا داخل حذاء، وتسقط الملابس الداخلية الغالية ببطء مبالغ فيه على الأرض، تستلقي على بطنها فوق ذراع الأريكة، لكي يدفع قضيبه داخلها تماماً كما يفعل الزنجي منفتل العضلات في «الحيوانات المشبعة بالابتلال» بالمرأة الشقراء، بل وأشد قوة، ما لا يمنعها عن

أن تعزم على التناقش معه، حول عداء مثل هذه الإنتاجات للمرأة. فيظهر– بحسب قولها– أن القضاء عليها من رابع المستحيلات. إلا أنه عندئذ ينظر مجدداً في الساعة ويتساءل عما إذا كان يتوجب عليه أن يتصل بـ«ألينا» حتى تنتظره في الأكل.

لا ترحم نفسها.. لا تريد أجيرة لأعمال التنظيف في الشقة الصغيرة، وتحظر عليه أن يتولى عنها في ما عدا الطبخ أية مهام أخرى.. لا تكل أبداً، والدوار الذي انتابها في الفترة الأخيرة، نوبات غيبوبة مفاجئة.. يبدو أنه يشغل باله وحده. «ألينا» تعزو ذلك إلى التوتر– بسبب موضوع رسالة الدكتوراة– وإلى ضغط دمها المنخفض منذ حداثة سنها، وهبوطه المتزايد في الأيام الحارة. «إني على مشارف سن اليأس»، تقول ذات مرة وتضحك. من الظاهر أنها هي نفسها تعجب من أنها ستبلغ الأربعين عمّا قريب. ومع ذلك لا يظهر عليها أن هذه السن قد تكون اشكالية بالنسبة للمرأة، وخاصة إذا كانت بلا أولاد. فجسمها رائع، ونظرتها الزرقاء صافية، ولديها أحلام، بالسفر والمكوث في الخارج لفتراتٍ طويلة على وجه الخصوص، ومازالت تعتقد بوجود إمكانيات لا حصر لها، وتعشق حياتها اليومية الغريبة، بحسب وصفها. ولا تتملق «ألينا» عيباً من خلال يقينها بأن الإنسان في الأسرة يتحرك

في محيط محدد له مسبقاً، ومتحكم فيه من قبل الكثيرين غيره أو حتى مفروض عليه قهراً في حين أن لديه في مثل هذه الحياة التي يعيشها الفرصة لأن يتخطى تلك الحدود، بل تتحدث– في هذا الشأن بالتأكيد– من القلب بكل صراحة. ولكن ماذا يكون بعد هذه «الحدود»؟

ريتشارد ساندر يتصبب عرقاً.. العينان الزرقاوان، اللتان ازدادتا دنواً من بعضها بعضاً عما سبق، قد بهت لونهما قليلاً، أو ربما أن الظلال في زوايا الأجفان قد أصبحت أكثر ظلاما. التجاعيد الانسيابية على جبهته العالية، تبدو أكثر وضوحاً، وبشرة الرقبة تبدو أكثر ذبولا، ولكن في ما عدا ذلك لم يكد يتغير فيه شيء. فهذا الرجل الذي قد تجاوز السبعين من عمره يمكنك ببساطة وسهولة أن تحسبه في أواخر الخمسينيات. فحتى الصوت ما زالت فيه تلك اللمسة التي توحي بشيء صبياني تحت مظهر رجولة عجينية بعض الشيء، إذا لم توحِ بأثر نفحة أنثوية. الفم لا يزال مظهره شهوانياً، كما أن الشفتين اللتين بدتا تقريباً بلا لون، ممتلئتان على نحو مثير للدهشة، حيث إن الزوايا المتهدلة في ارتياب أو حتى بتبرمٍ، تكاد لا تلفت النظر بصورة مباشرة في أول الأمر.. النظرة غير معبرة، وشبه متحجرة، وفتحات الأنف تتدلى منها شعيرات رمادية.

وقد لف ذراعه حول رفيقته أو زوجته.. امرأة نحيفة ترتدي ملابس فضفاضة، وفي يدها كراسة نوتة موسيقية ملفوفة. قد تبلغ من العمر تقريباً ما تبدو عليه، وحتى عندما يدعو «فولف» كليهما إلى الدخول لا يبتسم ريتشارد. الشمس تتلألأ على النوافذ خلف الأشجار، وهو ينظر في وجهه بهدوء، بينما العرق يتصبب على صدغيه وكذلك رقبته. ولأنه هو نفسه على ما يبدو ليس متأكداً من النحو الذي ينبغي أن تكون عليه التحية، بعد مرور كل هذه المدة، فإنه يقيسه بعينيه طولاً وعرضاً من دون إخفاء، وتعلو قسماتِ وجهه أثناء ذلك، لمسة سخرية أغلب الظن أن المراد بها قميصه المكوي أو حذاؤه اللامع. ونظراً لحاجبيه الكثيفين المبتلين عند الأطراف، فإنه يبدو للحظة وكأن في نظرة ريتشارد شيئاً ذا قرنين.

أكثر ما تغير فيه بصورة ملفتة للنظر هو شعره، الذي صحيح أنه لم يعد مجعداً، ولكنه لا يزال مموجاً. شقرته الفاتحة قبلاً، القريبة من صفرة القمح، أصبحت في لونها درجة أردوازية دهنية معتمة. ربما ترجع أيضاً إلى أنه قد أصبح بحاجة إلى الغسيل من جديد، ويمكن رؤية القشر بين الخصل.. الذقن نابتة الشعر، وهناك وسخ تحت أظافره. وعموما إنه أشبه بمتشردٍ منه بكاتب في متسع من العيش. لقد حضر بالقطار،

إلا أنه– وفق ما سمعه «فولف» من بائعة كتبٍ يعرفها، ثرثارة قليلاً– يمتلك سيارة وشقة في برلين، إلى جانب البيت السابق ذكره في «ليغوريا» والذي تم توسيعه بشكل كبير، وواحد إضافي قد استأجره في منطقة آلغوي حديثاً. حذاء المشي قد بلي، كما أن البنطال المجعد، المصنوع من قماش الفانلة، بالغ الثقل على حر أول الصيف، والسويت شيرت البوليستر الناعم، وقميص الحطابين الكاروهات الذي تتدلى منه الخيوط، كلها تجعله يبدو وكأنه قد خرج لتوه من تحت الجسر.

يتناسب مع ذلك الكيس الكتاني بلون الخيش المدسوس فيه عدد من الكتب وزجاجة مياه، ومع كل ذلك ليس المظهر القذر الذي تفوح منه أيضاً رائحة حمض طفيفة هو ما يدفع فولف إلى أن يمد يده نحو ذراعه الممدودة إلى الأمام وكأنها مقياس لحفظ المسافة في ما بينهما. إنه يريد أن يتجنب ضمة الآخر له في واحدة من تلك المعانقات التي كانت حرارتها– ولم يزل– مشكوكاً فيه. وبما أن ريتشارد يتجاوز بطوله البالغ معظم الناس، فقد كان صحيحاً أنه ينبغي عليه على سبيل الكياسة والذوق ألا يدفن الناس كافة تحت كتفيه، ولكن مثلما اعتاد أن يلصق كل من تفاخر بمعلوماته الأدبية من خلال معرفته التي ما زالت راسخة بالجدار، وأن يطويهم

في غير تحفظ، كان أيضاً يجعل من غالبية المعانقات شعيرة لتدريج الرتب. وبعد ذلك بدا المرء لنفسه دوماً أصغر بعض الشيء مما كان، ومن ثم يصافحه «فولف» فقط، ما ينتج منه لفترة وجيزة وميض برق في عيني ريتشارد: مثل ما يظهر في عينيّ قط عجوز قد هرب منه في التو فأر.

إنه يخاف الكلاب.. كان دوماً يخافها. فتلك الكبيرة الهلباء التي يرعى بها المزارعون على السهول العالية حول «مونته ساكاريللو» قطعان الغنم، قد عضته في العديد من المرات، و«فولف» يحبس «وييستر» الهار في غرفة المكتب. «ألينا»، التي اضطرت إلى السفر إلى «توبينغن» من أجل التحادث مع المشرف المساعد على رسالتها وتنوي زيارة صديقة لها في زيوريخ عقب ذلك، كانت قد رتبت كل شيء قبل رحيلها، ومسحت الأرضيات بمنظف أخشاب معطر، ونظفت حتى الحوائط الزجاجية الكبيرة أمام الشرفة الجنوبية، ولم يتمكن «فولف» من منعها عن عمل تارت بالليمون إلا بعد جهد جهيد. يبرّد نبيذاً، أنواعاً مختلفة من النبيذ الأبيض المز، وزجاجة عرق من باب الاحتياط، بيد أن ريتشارد بعد ذلك يرتمي على أول مقعد، مقطوع النفس من طلوع السلم، من دون أن يرتقب دعوة ولا يريد، مثل امرأته، سوى الماء.

تلك تدع «فولف» يقدم لها كرسياً، بظهر معتدل،

وتشبك يديها في حجرها، ولا تقول شيئاً في بادئ الأمر. رقيقة الابتسامة بشفتين رفيعتين، وجدية وكذلك حزينة قليلاً، يبدو ذلك في عينيها البنيتين، اللتين تحيط بهما خطوط من التجاعيد الرفيعة. شعرها الطويل، الملون بدرجة داكنة، قد رفعته على شكل كعكة مثبتة بطريقة ما بوساطة عصاتي طعام ملمعتين، وعلى بلوزة بيضاء، مقفولة عند الرقبة ببروش من الكهرمان ترتدي جونلة كتانية تصل إلى الكعب، أيضاً بيضاء. ما يحسّ به بشكل قوي هو أنها ترغب في ترقب الجو الذي سينشأ في ما بين كلا الرجلين.. تعبير وجهها فيه شيء حيادي متكلف، وبينما هو يتفحصها من زوايا العينين، لا يملك «فولف» سوى الذهول من مدى اختلاف معالم جسدها عمّا كان إلى حد الآن، يعده تصور ريتشارد المفضل من النساء مثل الكشط على لوحة مرسوم عليها بطبقات سميكة من الألوان الزينية.

وقتما كانا بعد، لا يزالان يتعاملان مع بعضهما بعضاً اعتاد ريتشارد على أن يبدل عشيقته تقريباً كل ربع سنة، الأمر الذي كان يراقبه الأصغر سناً من غياهب سجن حيائه بلا حقد مراقبة لا تخلو من الغيرة. كان ريتشارد واحداً من أزيار النساء الكلاسيكيين هؤلاء، الذين لم يروا في كلمة إغراء، رغم الهالة الأخلاقية المتعفنة من هولها والتي تحيط بها، أي

نوع من الإشكال، والذين يضعون رقيق الحديث وعبارات المديح كما يضع الحلوانية كعك السكر على التورتات. من دون أن يصبح فعلاً متيماً بحب جارف في أي وقت كان، كان يكتب القصائد الغرامية على سير ناقل، وكان إجمالاً مؤمناً بأن الإغواء الاحترافي السليم لا يلزمه أكثر من زجاجة نبيذ، وضوء الشموع، ونار مدفأة. ولكن الشرط الأساسي أن المرأة المراد بها ذلك، يجب أن يكون لها نهدان كبيران، ومن الأفضل ضخمان. كان من الممكن أن تكون النظرة خبيثة أو الابتسامة مزيفة، بطبيعتها أنانية أو جشعة، خاصرتاها تعدان بأكثر مما تحمله المؤخرة في النهاية، ولكن واأسفاه، خيال ظلّ محيط نصفها الأعلى لا تبلغ حتى حد كوبه. كانت قسمات جسدها درة تاج شوقه، وإذا لم يكن للجميلة عقل فليس في ذلك أي ضرر. فقد كان يسد الفجوة بالأزهار، والمناديل الحريرية، والحلويات، ويدفع بها، متزلفاً إليها بالهمس في غير انقطاع، في اتجاه السرير. وفي ما عدا ذلك فإنه يندرج تحت صنف الرجال الذين يحبون النساء إلى حد العبادة، ويرفعونهن على قواعد، لكي لا يعترضن الطريق بصفة مستمرة.

«هانيلور» هو اسم العشيقة الرقيقة، ذات الصدر المنبسط بصورة كلية، التي تمتلك يدين طويلتين جميلتين، والتي هي

بصدد أن يرشف من مائها بحيث تلوح بضع شعيرات مكبرة على ذقنها، من خلال منشور الكوب. كانت قد اتصلت بـ«فولف» منذ بضعة أيام، وبعد عدد من المجاملات سألته بلا لفٍ أو دوران عما إذا كان لديه مانع أن يلقي خطابا، يحتوي على نبذة عن حياته وأعماله، في الحفل الذي تخطط بلدة منشئه الواقعة في شمال ألمانيا لإقامته بمناسبة عيد ميلاد ريتشارد الخامس والسبعين. من شدة فزعه بدأ يتلعثم في كلامه، ليس فقط بسبب الخطر المحدق بعمله الحقيقي، نتيجة لانشغاله عنه، منذ أزمان وأزمان وهو بعد لم ير صوره ويكاد لا يقرأ شيئاً لمعبود الأعوام الخوالي الذي ساعده كثيراً ويريد الآن في ما يبدو أن يحصل الديون. وعلى الرغم من أن الأمر بدا له أكثر تفاهة، إلا أن فولف كان يشعر بأنه لا يستطيع أن يجيب بالرفض في هذا من دون أن ينظر إليه في ما بعد– على أقل تقدير– على أنه مجرد من روح الزمالة. وفي حين أنه كان يرى سلفاً أمام عينيه حفلاً فاتراً إلى حد لا نهاية له، ممتلئاً بالأعيان والأزهار والأصوات الطيبة التي تخترق دخان البخور في زاوية مائلة في قاعة احتفالات بلدية تحيط بها مراعي الأبقار، ولها سقف مستو، إلا أنه فعلها رغم ذلك، فقد ملأ صدره بالهواء واعتذر، لأي سبب كاذب. الصمت الوجيز على الناحية الأخرى من الخط، أغلب الظن

أن الغرض منه هو التأنيب، ولكنه يستمع إلى الموسيقى التي تدور في غرفته، «كارما بوليس» لراديوهيد. ولم تعد لديه الجرأة في هذه الأثناء على إحباط ما أبدته مع كل ذلك من رغبة في «زيارته» في فريدريخسهاين، ولو أن ارتيابه في شدة إلحاح السؤال الذي قد وجه إليه منذ أشهر طويلة، كان في تزايد مستمر، إلا أنه وافق على تلك الساعة من بعد الظهر.

عدم وجود «ألينا» أثناء ذلك، كان من وجهة نظره أكثر من مناسب، فحسن احتفائها بالضيوف كان سيجعله متزعزعاً في تحفظه، وأكثر عرضة للمهاجمة. إلا أنه يريد أن يتوخى الحذر من شخص يعتقد بأنه يعرفه لمجرد أنه كان على صلة به في يوم من الأيام، وها هما الآن يجلسان أمام كوبيهما من الماء المثلج، ويتحدثان عن الجو.. الحرّ غير الاعتيادي، حيث يتظاهر ريتشارد ساندر، وكأنه هو من يشغل وقته، بل والشخص المنزعج، بقدرٍ من عدم التسامح بشكل بالغ الوضوح يتحاشى هو الالتفات إلى رفوف الكتب. وكونه يتجاهل كافة أعراف الأدب، ولا يعلق ولو بكلمة على المنطقة الخلابة، والبيت الذي يقع على طريق عريض ذي أشجار، وتصميم الشقة الفريد، والأزهار المتفتحة فوق قطع الأثاث الفاتحة، فإن هذه في الغالب خطة، وفي ذات الوقت تعبير تذمر يزداد مع مرور الوقت من دون أن يوجه

إليه الأصغر سناً سؤالاً.

بطبيعة الحال لن يطلعه على حاله، كما هو في الواقع أبداً، ولكن هذا لا يمثل له أي أهمية.. إنه يريد أن يسأل عن ذلك، وعقاباً لـ«فولف» على أنه لا يمنحه فرصة الإسهاب في تلك الأجوبة التي تبدأ بمقدمات طويلة، في أغلب الأحيان بـ «اسمع، يا عزيزي...»، فهو يهز قدمه، أو يحملق ببصره في السماء فوق شجرة الزيزفون، أو يتخلل بظفر إبهامه، الفراغات في ما بين أسنانه الرمادية، الميتة ظاهريا، بينما يصب «فولف» لامرأته مزيداً من الماء، ويستمع إلى حديثها عن الدور الذي تؤديه المعالجة الموسيقية بالتحديد، وعن كيفية فك الانطواء التوحدي لدى الأطفال، وخصوصا من خلال العزف على الجنك الذي تقوم بتدريسه. وبين وقت وآخر تعاود النظر إلى رجلها، حيث يكتسب وجهها تعبيراً حنوناً، وكأنها تعتذر في سرها عن كون الحديث يدور حولها وحول شؤونها التافهة، وهزة قدم ريتشارد تزداد قوة.

ثم يتضح لـ«فولف» أن ثمة شيئاً من المؤكد أن يلفت نظره، وهو ما قد لاحظه بطبيعة الحال منذ فترة، من دون أن يبادر بالكلام عنه. في جانب الجلد العلوي للفردة اليمنى من حذاء المشي، هناك ثقب كبير مستدير، فيما يبدو قد تم قصه بوساطة السكين أو المقص، يبرز عبره جزء من ظاهر

القدم خارجياً.. عقدة عظمية يغطيها جورب أزرق. إن هذا لشيء وارد، وخاصة لدى الأشخاص المتقدمين سناً، وحتى الآن يتجاهل «فولف» ذلك ويسأل بدلاً من ذلك عما إذا مازالا لا يرغبان في بعض النبيذ، المثلج؟ كلاهما يجيبان بالنفي.. تمضي برهة وهم يبدون جميعاً وكأنهم ينصتون إلى مشاجرة غرابين، إلى العقعقة الآتية من قمة السقف. «هانيلور» تتفحص قماش إحدى الوسائد بين أصابعها، و«فولف» يعبث بعجلة ضبط ساعة يده، وكأن لها زنبلك، وأخيراً.. يتنحنح ريتشارد، ويلعق بعضاً من العرق من على شفته العليا، ويقول: «إن هذه الشقق التي تحت السقف غير محتملة في فصل الصيف... وأنت يا عزيزي؟ كيف حالك؟ ماذا عن أخبارك؟ إنك تعمل كثيراً، أليس كذلك؟» وعندما يقطب «فولف» حاجبيه مندهشاً، يهز رأسه بعد أن مد أذنيه برهة إلى المطبات المحتملة بداخل السؤال. يقول الآخر: «هنيئاً لك، طبعاً تفعل ذلك! في كل سنتين كتاب منذ أكثر من عشرين عاماً... أنت حقاً طموح، أليس كذلك؟»

ها هي إذاً، الركلة الأولى في خصيتيه، بعقدة عظمية. «فولف» يدفع بعضاً من الهواء إلى خارج أنفه، ويحتسي رشفة من مائه، ولا يبالي بعد ذلك بأن يرى الآخر في ابتسامته تبرجاً، وكأن ذلك يرضي غروره. في الواقع يسره

فقط أن إحدى نعم التقدم في السن، تتمثل في سهولة سبر غور الآخرين. ريتشارد نفسه، كان له سلوك عمل بالغ الجدية، وإن بدا من بعيدٍ وكأنه تمثيلي أو حتى بلطجي بعض الشيء، بالقياس إلى النتائج، إلا أن أثره في نفس الأصغر سناً، قد دام لفترة طويلة. «لا بد لي من العمل!».. كان ذلك يعني من باب أولى أنه يستطيع ذلك، في حين أن «فولف» كان في كثير من الأحيان يسمع صوت الطق الخفيف، الذي تتكسر به أسنة أقلام الرصاص، قبل أن تلمس الورق ليبدأ الكتابة. حياة ريتشارد كلها، بدت وكأن عمله وحده هو الذي يتحكم فيها، فلم يقم برحلة بحرية فحسب، بل كان يعمل على الباخرة، ولم يسافر إلى البروفنس أو إلى أية منطقة جميلة أخرى. فقط قام باستئجار بيتٍ هناك حتى يعمل. وحتى الكميات الهائلة من النبيذ كان يشربها في سبيل العمل، للانفعال كما كان يقول، وامرأة الساعة، أيضاً فنانة في كثير من الأحيان- «طويلة، يافعة الطول»، طالما هو لا يزال معها، و«نصف موهبة بائسة» بعد الافتراق. كانت تتخلص من المتصلين بهذه الإشارة: «إنه لا يستطيع الرد الآن.. لا بد لنا من العمل!» وما إذا تقابلا في برلين، كان يشمر عن ساعديه لكي يري فولف ساعديه، المحروقين من جراء الحمامات الحمضية أثناء عمليات الكشط، أو يعد له

أوراق سلاسل رسومه التصويرية، وفصول روايته الثلاثية، الأمر الذي كان يزيد من ريب الغلام في قدرته الذاتية. ذلك مع أنه قد تعلم منذ سنواتٍ ما يسمى بالحياة المهنية قبل كل شيء، أنه حتى أكثر الناس عملاً وشكوى من عمله، فإنه رغم كل ما قد يظهر عليه من إعياء لم يكن قد عمل بما يكفي، بل إنهم يقولون فقط إنهم مشغولون، كما الجميع، ويزيدون علاوة على ذلك من الريبة في أن عملهم قد يكلفهم أكثر مما في وسعهم. أفلا ينبغي أن يكون هدف الفنان، بل ومسعى كل شخص، أن ينجح في تجسيد عمله؟ فهو في هذه الحالة لن يكون بحاجة إلى أن يموه اجتهاده أمام نفسه وأمام الآخرين بالذهب. وعندئذ لا يمكن أن تكون هناك زيادة أو نقصان.

عندما يقول ذلك، لا يبدو على الآخر الإصغاء.. يحك الجزء البارز من حذائه ويمتص الهواء عبر فراغات أسنانه، فترتسم على وجه السيدة نتيجة لذلك علامات منذرة. إلّا أنه يومئ برأسه قليلاً، أغلب الظن على سبيل التهدئة، وبينما يصب له «فولف» مزيداً من الماء، يمد ريتشارد ذات الساق، ويضع قدمه على كومة من الكتب على الباركيه. «يا إلهي، إن الحي قد غير ريشه تماماً. في الستينيات اعتدت أحياناً على أن أذهب إلى البحيرة، حتى قبل بناء الجدار. فقد كان كل شيء هنا آنذاك مشتت الشمل. ومع ذلك كان من سيم التميز

أن تقطن في فريدرخسهاين. لم يسمح إلا لحسني السلوك ولرجال الأشتازي بالسكن هنا، أو للفنانين الموالين للنظام- كالنحاتين الذين كانوا يستطيعون نحت ذقن ماركس حتى وهم معصوبو الأعين، أو الرسامين بألواح ألوان حمراء داكنة، أو شعراء الطبيعة».

«أي من هم أيضاً معاونو الأشتازي»، تقول امرأته، والضحكة الصامتة المظهرة للأسنان تبدو على وجهها وقد التفت كل منهما للآخر ثم إلى فولف مايتم بغير لباقة عن أن تأييده أمر مفروغ منه، إلى درجة أن «فولف» يظل جامد الوجه. وفضلاً عن ذلك فهو يستقبح فعلة ريتشارد حين أراح قدمه بالحذاء القديم على الكتب بلا مراء، حتى حتى وإن كان يهدف إلى جعله في مرمى النظر أو لأنه يؤلمه. على كل فهو يرى في ذلك صفاقة هائلة.. يخفض عينيه ويحملق في كوبه، وكأنما قد بصق له أحد فيه. إلا أن الآخر لا يريده في الغالب سوى أن يعترض على ذلك وأن يظهر بمظهر تافهٍ محدود الأفق تماماً، فما قيمة الكتب، خاصة لشخص يكتبها. ولكن «فولف» يذهب إلى المطبخ ويفتح زجاجة نبيذ.

إحدى كتابات ريتشارد ساندر الأخيرة، التي قام بقراءتها كانت مقالاً صحفياً عن زميلٍ شرقي قد كشفت حقيقة تعاونه مع الأشتازي.. رجل لطيف المعشر، مترجم عظيم، ولم يتضح

بعد ما إذا كان قد ألحق بأحدٍ ضرراً. الكثير من تقاريره كانت من وحي الخيال. وقد بدا وكأن العاصفة التي نشبت نتيجة لذلك في غابة الأوراق، كان لها وقع ثائر أيضاً، لأن فضيحته قد انكشفت لاحقاً، حيث إن الكتّاب أو الفنانين ذوي المكانة كانت إدانتهم قد ثبتت من قبل ذلك بكثير. وكون الشخص المعني، الذي كان دائماً يعد نزيها ولم يكد يحّس به مخلوق، لم يبادر بالاعتراف على نفسه، فإن ذلك على ما يبدو قد جعل الناس يشعرون بعارٍ مزدوج. وحتى ريتشارد، الذي تجلى في كلامه الفرح التام، بأن رأيه عن أحداث الساعة قد كان مرغوباً فيه– عمّن هم أكثر منه كفاءة– قد ضرب على الوتر نفسه، بل وبتلك الصرامة المتعالية نفسها، والشدة الفاحصة التي تشكل دليلاً لخطة متكررة منذ وقت قديم. من دون أي رادع استغل فرصة أن موقفه أخيراً على حق، في صف الأخلاق الطاهرة، وأضاف إلى مقاله قصيدة تحمل عنوان «شراء الوحل». وعند تدقيق النظر تبين أن جمله كانت لها أشرطة وكتافات الرتب العسكرية، وإن كل فقرة قد كانت تقرقع بالأعقاب، وأنه تحت ظروف تاريخية مقارنة لربما كانت ستصرف على نحو مشابه. ولكونه لم ينوه بهذه الفكرة، حتى ولو بين السطور، فإن هذا كان مدموغاً بدمغة سرية لملف يفضل المرء ألاّ يصير بيده أبدا.

بالمناسبة، السيدة زايدنكرانتس الحلاقة، على معرفة بالمشتبه به، فهو يعيش مثلها في شون أيشيه. «إنه قد انتهى»، ما برحت تقول في آخر مرة قصّ فيها شعره. «يومياً يجر جسده المتثاقل في أرجاء المنطقة متكئاً على عكازتيه في انتظار حلول أجله، مع أنه لم يفعل ذلك آنذاك إلا من أجل ابنته الصغيرة.. كانت ستموت لولا الأدوية الغربية الغالية. لقد كانت في حاجة إلى الإمدادات، التي لم يكن الحصول عليها ممكناً إلا عن طريق السلطات. وبالتالي لم يبقَ أمامه سوى أن يسمح لهم بابتزازه. أما كنت حضرتك ستفعل ذلك مثلا؟»

عندما يعود «فولف» بالزجاجة المفتوحة إلى الغرفة، تتوقف «هانيلور» عن همسها، ويرفع ريتشارد- يبدو أنه قد نال جرعة تأديبية- قدمه من على كومة الكتب، ويسحب إحدى زوايا الفم نحو وجنته، وكأنه يفكر: حسناً، بما أنكما معوجان بهذا الشكل... ثم مع ذلك يأخذ النبيذ، ويسكبه على الثلج في كوبه، وخلال النصف ساعة التالية يتحدثون في أمور ربما كان من الصحيح أن تسمى بالقيل والقال أو الثرثرة المهنية، إلا أن مهمتها الأكبر تتمثل في تحاشي الموضوعات التي تتبدى فيها ولو ذرة من وجهة نظر لا يمكن لأحد مخالفتها من دون الإساءة إلى الطرف الآخر، أو التي لا يمكن لأحد

موافقتها من دون أن يكشف نفسه. فترات ما بين الجمل ما زالت لحظات ترصد بحتة.. تخشخش فيها مكعبات الثلج بصوتٍ خافت، ولكن كلاً من ريتشارد وفولف يتعمد استرسال الحديث بطريقة لطيفة قدر الإمكان عن الناشرين، أو أغلفة الكتب، أو رحلات القراءات، أو الأجر، ويبلغ كل منهما الآخر باعتقاده غير الظاهر أنه لا يستحق أن يطلق في سبيل تبادل الآراء معه من الطاقة أو حتى الحماسة ما يتعدى حد الأنفاس المتعبة. بيد أن ذلك لا يغني عنهما شيئاً، بل إن هذا الإصرار على إدخار القوى بالذات ليس من شأنه سوى أن يجعلهما يعضان على نواجذهما بقوةٍ أكبر، مضافا إليه أن معارضات السيدة بين الحين والحين، وتلويحها المستمر بأكمام بلوزتها الواسعة تشق على أعصابهما، حيث إن الضجر يتغلغل شيئاً فشيئاً إلى أعماق أسارير ريتشارد وإن «فولف» يتحتم عليه أن يتمالك نفسه حتى لا يلفظ بالسؤال الذي يعتمل في صدره، عن السبب الذي جعل الآخر «يزوره» من الأساس، وعما يريده هنا بحق الجحيم، ذلك الممثل الذي يلعب دور الشاعر.

على أمل أن يكتسب الحديث، من خلال تغيير مجراه إلى الأمور الطبية معنى على الأقل ظاهرياً، يوشك أن يتطرق إلى عقدته العظمية المستعرضة على نحو درامي عندما يتنحنح

ريتشارد لإزالة انسداد في حلقه، ويعقب بصوت كانت نبراته الخافتة على حين فجأة وكأنما قد وضعت عليها ورقة رقيقة توحي بحيائه، أو توتره في ما مضى، بينما اللهجة المتثاقلة من شأنها أن توهم بأنه في واقع الأمر لا علاقة له بما يقال: «أذكر بالمناسبة أنني في العام الماضي قد قرأت مقالاً عنك في إحدى الصحف.. لم أعد الآن أتذكر ما إذا كان في صحيفة قومية أو ورقة الجبنة في آلغوي. ثم إن كتاباً آخر قد تحدّث عنك في نحو أربعة سطور، ولكن شخصاً وقحاً قد كتب أن أعمالك يلاحظ فيها شيء مثل التيار الروحي الخفي في العهد الحديث وأشار إلى أن من الممكن إثبات أنه توجد استنادات إلى الإنجيل هنا وهناك. إن هذا ليدهشني، أصحيح، يا حبيبي؟ يا إلهي، قلت في نفسي، ما هذا؟ هل من المعقول أن الصديق قد أصبح متديناً مثلما كان في قديم عهده؟»

ينظر إليه كلاهما في ترقب، بينما انشرح صدر «فولف» فجأة، لأن ريتشارد أيضاً من الظاهر أنه لم يقرأ له المزيد (في ما يبدو أنه يعدّ من اللباقة أن ينوه بذلك على الهامش)، إلا أنه يضطر في الوقت ذاته إلى ضبط نفسه كيلا يبدي دهشته لنسيانه الماهر الماكر. للحظة يعتقد أنه يتعرف في وجهه على شيء من حيويته السابقة. روح العدوانية المثقفة والمسلحة

بالعلم، والتي اشتملت دوماً على شيء مصطنع يكفي أنها لا تتناسب مع طبيعته فعلياً، حيث إنه فرضها على نفسه وعلى ذوقه الخامل بعبارة صريحة. إلا أن ارتيابه الذي تمت صياغته بأسلوب حسنٍ في كل ما قد قاله أي شخص ما لم يكن مجرد وجهة نظر، نشأ عن خوف الكاتب المستنير من إدراك أن العالم هالك بصورة نهائية من دون الإيمان بالروائع.. إدراك هذا يتطلب التواضع دون غيره والذي يعجز عن أن يتزود به أناني أو زنديق يخلط بينه وبين الخضوع.. طرف اللسان على الشفة السفلى، والحواجب مرفوعة، والنظرة يوجد فيها شيء ثاقب، بينما هو ينتظر رداً يقع من نفس «فولف» على حين فجأة موقعاً حزيناً، أشبه بأولئك المهتمين أو المبتهجين بالحياة بصورة بالغة، الذين يقاومون الشيخوخة في مجموعات المشي، أو دروس الكوليسترين، أو مراقص المسنين بطريقة فعالة. «يا سلام»، يقول في النهاية ويضع من جانبه إحدى القدمين على الكتب. «دعهم يكتبون ما يشاؤون. أنا لست متديناً بطبيعة الحال، مثل كل ملاك.. لا يصلي إلا الملحدون».

ريتشارد يصاب بالدهشة، أثناء الضحك الذي يتلو ذلك، من دون لباقة. كما أنه يتفحصه بعينين ضيقتين أثناء ذلك، وهما بالغتا السرور، مضيفاً: «طفولية تقريباً» ليفك التوتر

الذي ساد الغرفة. وعلى الرغم من أن النوافذ كانت مفتوحة منذ بداية الزيارة، إلا أنهم لم يشعروا بالنسيم رطباً إلا الآن. إنها- هذا ما يشعر به ثلاثتهم- تلك اللحظة التي ستجعل ذكرى هذه الساعة محتملة، وربما بهيجة، وعندما ينظر «فولف» إلى الساعة ينهض الآخر، ويفرغ كأس النبيذ في فمه، ويمضغ قطعة ثلج.

«حسناً، يا عزيزي، فلنذهب نحن. فقد أضعنا ما يكفي من الوقت سدىً على البحيرة. لا يزال لدينا ما نعمله». يمد يده إليه بالكأس الفارغة، ويتفحص بعينيه كعوب الكتب المرصوصة على الرفوف، مراعياً ألا تظهر خيبة الأمل على وجهه لعدم وجود شيء تحت حرف الـ S غير Shake-speare (شكسبير). يسحب مجلداً لنوفاليس، طبعة ترجع إلى العشرينيات، ويتحسس الجلد الأزرق الداكن، ويشير به إلى حذائه، العقدة العظمية. «وبما أننا نخوض في الميتافيزيقيات: هل تعرف ما هذا؟ إنه حنف».

ولكن لم يعد أحد يضحك الآن.. السيدة تدس النوتة الخاصة بها في كيس القماش، و«فولف» يفتح باب غرفة المكتب.. فرجة، لكي يهدئ الكلب الذي يعوي. على حاملٍ في الردهة يوجد طبق مشمش، وريتشارد يدس واحدة صغيرة في فمه، قبل أن ينزل السلم المؤدي إلى باب

البيت، مرتعشا بعض الشيء، وكان يمضي خطوة خطوة. أما «فولف» الذي يبدو له فجأة أن كتفيه ضيقتان بشكل يرثى له، فقد رافقهما حتى الشارع، وفتح لهما باب الحديقة. أخذ الثاني يتفحصه أيضاً، بينما كانت «هانيلور» تميل على أزهار عود الصليب في حديقة الجار.

تتنشق رائحتها الطيبة، ويبصق ريتشارد النواة في العشب. «أتذكر نزهاتنا في الوديان، وفوق التلال العالية قرب تريورا؟ فتلك السماء تفوق كل وصف.. كانت «الحلفا» التي تعبث بها الرياح، والكرز البري طعامنا الذي نملأ به كرشينا.. أليس كذلك؟ في بعض الأحيان تعاودني ذكرى اليوم الذي بكيت فيه، بسبب ذلك». ترفع امرأته نظرها.. تقترب وقد أثير فضولها، وهو يمد ذراعه حول منكبيها ويقول: «حقا لقد دمعت عيناه، تصوري. بما أنه من سكان المدينة، لم يكد يصدق أنه لا توجد أسوار في أي مكان، حيث يمكن وبكل بساطة تسلق شجرة كرز على حافة الغابة، وأكل هذه الثمرات التي تفوق حلاوتها كل وصف من دون سابق سؤال. لا يستبعد أن ذلك كان نفحة من الجنة. لقد بكى مثل الطفل الصغير». تبدو على الرفيقة علامات التأثر، وهو كذلك يتبسم بألم، ويتقدم مرة أخرى إلى السور، ويمد إحدى اليدين إلى الأمام حيث إن «فولف»، الذي يظل للحظة غير

متنبه، يلهو مذهولا من شدة الاستغراب، وتتجمد أطرافه، ما يجعل مظهره فظاً. ولكن الثاني لا يرغب في معانقته على الإطلاق، بل إنه يطبطب على وجنته فقط، ويكرر بصوتٍ أكثر انخفاضاً: «مثل الطفل الصغير..».

ثم يستأذن الاثنان في الانصراف، ويبادلانه تحية الوداع.. ظلال الأشجار على جانبي الشارع تسيل على ملابسهما، وعندما ينحرفان إلى الشارع التالي، المنعطف على شكل زاوية حادة يستطيع «فولف» رؤية وجهيهما مرة أخرى.. الضجر المعتاد عليهما، وكذا الانطفاء. تتقدم السيدة بمشيتها المعتدلة، والمتصلبة قليلاً، الرجل الأعرج بعض الشيء بنحو خطوتين، والذي كان يحمل على كتفه كيساً من القماش، ورغم أنهما الآن يستطيعان رؤيته على أدراج المدخل من زوايا العينين، إلا أنهما لم يلوّحا حتى بأيديهما على سبيل التحية للمرة الأخيرة كما يفعل غالبية المنصرفين، فإن ذلك لا يبدو له وكأنه جفاء متعمد فحسب، بل تكمن فيه حقيقة الساعة في جوهرها وصميمها.

إنه ربما يستطيع أن يفهم هذا الرجل الذي لاقى منه في ما مضى كل إعجاب وتقدير، فهو يمكنه أن يحترمه إلى حد معين، ولكنه لا يستطيع أن يحبه بكل تأكيد، فإن ذلك ليكدره– هذا ما يشعر به بقوة– مثل إشعاع حاد. يغلق

الباب من الداخل، ويجلس على مكتبه، وفي ليلة خالية من النجوم قرب نهاية فصل الصيف، وبينما كان فكره لا يزال يحوم حوله، يخرج إلى الشرفة ليبري قلم الرصاص، ويسائل نفسه عن غاية تلك الزيارة وجدواها، وتتم طباعة الإجابة المقتضبة– ولكن التي ستتسبب في شعوره بالخجل لفترة طويلة– لجريدة الصباح، لعمود «أخبار ثقافية متنوعة».. ريتشارد ساندر مات.

-5-

الصباح بعد الموت

تأخر فصل الخريف.. ما زالت معظم الأشجار خضراء.. لا نسمة هواء على حديقة السطح، والشعر الذي ينِدفه «فولف» من الفرشة يظل باقيا على البلاط.. وحرارة الجو أثناء النهار لا تكاد تتلطف حتى أثناء الليل. في وسط المدينة فقط، حيث تغور قضبان الترام في الأسفلت الطري وتطقطق صفائح فتحات التهوية الموجودة في أعلى مداخل المطاعم، يصبح عدد من أشجار الزيزفون أجرد الورق، والدرجات رمادية كلها، الأفتح منها والأغمق، فالتي كانت قد تداخلت مع بعضها بعضاً بلا أطر خلال الأسابيع الماضية، تبرز باختلاف ألوانها مرة أخرى في صورة أكثر وضوحاً.

في أوقات العصاري أيام الأحد، تبدو المدينة أحياناً وكأن أحدا قد خسرها أثناء لعب البوكر. ما من بشرٍ في الشوارع تقريباً، وحركة المرور ضعيفة، وكلب يمر بين الحين والحين. يوصل «ألينا»، التي ينبغي عليها السفر إلى «توبينغن» مرة أخرى، إلى محطة القطار الشرقية، ويذهب بعد ذلك إلى «برينسلاور برغ»، من دون أزهار. «شارلوتيه» تجلس بالقميص الداخلي على الكمبيوتر، وتبحث داخل نصٍ ما،

وعلى الرغم من أنها تستلذ رائحة عرقه، وخاصة في منطقة الخصيتين، فإنه يذهب أولاً للاستحمام. قد علّق روب جديد خلف باب الحمام، لونه أزرق داكن وعليه شعار على الجيب العلوي، ويوجد فوق الخزانة التي فيها مرآة، الكريم نفسه لما بعد الحلاقة والذي يستخدمه هو. يتنشف بلا ترو، وبينما هو يدلكها في رقة يتقطر الماء من شعره على منكبيها، وتتأوه مستمتعة من دون أن ترفع عينيها من على الشاشة. «سأجدها حالاً»، تقول حينما يقترب منها، بحيث يتحتم عليها أو تشعر بكل شيء، وتمتد يده إلى داخل فتحة صدرها حتى يمسح بأطراف أصابعه، أثر العرق بين نهديها.. «حالا سيمكنك أن تدللني».

فمها قد تم الاهتمام به حديثاً، بفضل ماكياج دائم، وهادئ تم عمله بإبرة وشم دقيقة، ليبدو الآن أكثر شبابا بعض الشيء عن بقية أجزاء وجهها الذي اكتسب من خلال ذلك لمسة مفزعة. فم جديد بتسعمائة يورو.. تذكّره بفاتنات الهروين في أواخر الستينيات، وبينما هي تعرف كيف تمنح قبلتها– رغم نفس المكتب الماسخ– مرة جديدة لزوجة العسل بالغ السيولة.. تغلق غطاء النوت بوك بلا تبصر، وتنزع الفوطة من على خاصرتيه، ثم تستلقي على المائدة، وهو يقتعد كرسياً أمامها، ويرفع قماش الساتان حتى سرتها، ويبدأ بتفحصها

كما يروق لها: «كما قطعة اللحم».. يبللها بقطرات من عصير العنب المهروس، ويحتسي بين وقت وآخر رشفة من النبيذ.

إنهما مستعجلان، لأنهما لم يعودا يريان بعضهما سراً، فقد زالت بطبيعة الحال إثارة ما هو خفي كالهمس، ويتراكم أيضاً كم أقل من الثورة العاطفية المبرحة التي يضاعفها عدم تأكيد لقاء ما. ومن ناحية أخرى لقد جدت موضوعية شائقة بنفس الدرجة على الأقل.. تجريب هادئ لما قد قضت به السعادة لجسديهما، وبما أنه لم تعد هناك أية حدود وقتية، بصرف النظر عن ميعاد آخر «مترو».. أي موعد انتهاء عرض سينمائي أو مسرحي مدعو لزيارته وكانت قد تحتمت مراعاته، فقد أصبح بإمكانهما البقاء مستلقيين على الأريكة العريضة لساعات طويلة وكأنهما زوجان، بل إنهما أيضاً يشاهدان التلفزيون أثناء ذلك، وفي مساء هذا الأحد، بينما ملأت ريح لطيفة الستائر بالهواء و«شارلوتيه» تعبث حالمة بعضوه، يصير فجأة موجوداً.. ذلك النشيج الصامت أسفل عظم القص، اللذيذ الذي يشعران به معاً في وقت واحد، بينما تمد ذراعيها حول عنقه بـ «تعال!» خافتة، وكأنما قيلت بنفس واحد وتدخله فيها، الذي قد اشتد ساعده فجأة من جديد، إلى داخلها، إلى المني الدافئ الذي في داخلها، وهو

يعض رقبتها ويصل ثانية إلى نشوته.

«يا إلهي».. تتأوه بعد ذلك بقليل.. «أنت الوحيد تقريباً الذي أصل معه في الوقت نفسه إلى قمة النشوة». وسرعان ما يصير معكّر المزاج، ومتجهماً مرة أخرى، ويبحث عن سرواله الداخلي. ولكونها حاصلة على شهادات جامعية في علم النفس، فإنها لا تستطيع أن تكف عن نزعتها إلى المناورات الفظة حتى في مثل هذه اللحظات، فيبدو له أن ذلك يدعو إلى الشفقة، بل ويسدّ النفس علاوة على ذلك.. يفكر في قدم مصاب بالفطريات داخل حذاء بكعب عال. إن غيرته كانت الطلاء الكاذب الحافظ أو حتى المجدد لحيوية ما يراه هناك في الجانب الآخر في مرآة الحائط.. إنه يستطيع تفهم ذلك بلا ريب، ولكنه يوافق على وجود الرجال الآخرين كل موافقة، خاصة وأنها تعفيه من مطالب أكثر إلحاحاً أو حتى مطالبات لكن نقص الوقت وحده عامل كافٍ لأن تنتهي تلبيتها إلى الفشل. ومن ثم يتجاهل تلك الجملة ويحضر من المطبخ بعضا من جبن الكاممبير.

«شارلوتيه»، التي تهوى التباهي بمغازلاتها أثناء رحلات العمل، وأغلب الظن أنها لهذا السبب فقط تميل إلى الاستغناء عن الخيانة العاطفية، قد تسنى لها أن تدير ثلاث علاقات رسمية بذكاء فائق، وذلك تجاه «أورز»، عالم الطبيعة النووي

السويسري، الذي تشعر بحب عطوف تحار في أمره، يقارب محبة الأم، فيبدو أن كثيف اللحية، ذا المظهر المميز في الصور، والنابه في مجاله، يواجه صعوبات بالغة في تنظيم حياته اليومية، حيث إنها تنتشي بمعنى الكلمة منذ خمسة عشر عاماً بمساعدته. تحشد المحامين، والسماسرة وخبراء الضرائب، والحرفيين له، وتصحح خطاباته، وتنبهه إلى ممارسة الرياضة، وإذا قطع «أورز» لحظات الاتفاق الصامتة، بتقلصات ألم في قسماته أو بنحنحة، تعتذر عن مواعيدها. على طريقة تمثيل الأدوار تتمرن مع ذلك الخجول على المحادثات المهمة التي ينبغي عليه إجراؤها مع رؤسائه أو مع المصالح المختلفة، وما إن لم تتمكن من السفر إلى سويسرا، لكي تباشر أعمال البيت- «المسودات عنده في المقلاة!»-، تشتري له دستتين من السراويل الداخلية العضوية من محل منتجات عضوية للبيع بالبريد، وترسلها إليه بعد الغسيل بالبريد السريع. يتقابلان كل بضعة أسابيع، ويقضيان الإجازات والعطلات الكبرى بمؤسسة تربية الخيل الخاصة بأخته على بحيرة بيال، حيث يجلسان نصف اليوم على كتبهما العلمية، ويأكلان في المساء أمام نار المدفأة، وأثناء الليل يستلقيان جنبا إلى جنب في صمت، من دون ممارسة الجنس. هذا، وقد قالت ذات مرة، إنه ودعها مباشرة عقب بداية رفقتهما. فقد كلفت أنوثتها،

الرجل الطيب على ما يبدو أكثر من وسعه. إلا أنها تحبه حباً جمّاً.

ولأن «أورز» لا يمكن تحويل نظره بعيداً عن صيغه ونظرياته، فقد احتاجت رجلاً للحياة المثيرة في المدينة الكبرى كما تتمثل في مفهومها. لأجل ذلك هناك مارك، الموظف الحكومي، المتزوج الذي يعاني من زوجته السكيرة.. يحب «شارلوتيه» حد العبادة، ويسير في ركابها عن طيب خاطر إلى حفلات الفرقة الفيلهارمونية وحفلات افتتاح المسرحيات أو الأفلام السينمائية، إلى أشهر الملاهي الليلية والمطاعم والمعارض المعروفة. رجل قصير القامة، ذو عقصات قوية، يظن المرء أنه يرى عليه في الصور الصوت الخفيض الذي صقلته كثرة الحديث، والذي تستحسنه «شارلوتيه» أحياناً، هو واحد من أبناء حركة 68[10]، الذين أصبح لهم الطريق الطويل داخل الهيئات الحكومية هدفاً، والتقاعد السريع حلماً. معه تقضي عطلة نهاية الأسبوع في بريتاني تارة، بأكل المحار، أو يقومان بجولات في أي من الدول الجنوبية التي لا يخلو مطبخها من الزيتون. ولكونه مثل الكثيرين من أبناء هذا الجيل، لا يتحدث عن مشاعره

(10) تعد حركة 1968 من أهم الحركات السياسية في ألمانيا وفرنسا وهي حركات طلابية ظهرت في المانيا وتطورت لتنتج لاحقاً حزب الخضر وحركة البادر ماينهوف.

أبداً، بل لا يستطيع الحديث عنها مطلقاً جراء انشغاله بأمور السياسة اليومية، فإن ذلك على ما يبدو ليس بعيبٍ، فيكفيها أنه كان يشتهيها ولو فقط لأن تحتضنه برهة. على أي حال، ذلك على حد تعبيرها ذات مرة، وعندما اتهمها «فولف» بالبرود قالت: «كلا، كلا، لماذا. إنني أحب النوم معه».

عندئذ لم يملك «فولف» إلا الضحك. فقد وقع ذلك من نفسه موقع «إنني لا أجد شوربة الفريك سيئة إلى هذه الدرجة!»، وهي هزت منكبيها. «طبعاً مقارنة بك هناك فارق كما بين السماء والأرض». هو إذاً يلعب دور زير النساء في هذا الرباعي.. دوراً يكفي وحده لأن يروقه أنه يوفر عليه كثرة الكلام. نادراً ما يتفق وقدراته الفعلية، إلا أن مسحة الإثارة الناتجة من تكليفه بأكثر مما في وسعه، تضيف إلى طاقته ما ينقص، وتجعل السرور الباطني بتمكنه رغم ذلك من أن يكون عند حسن الظن أكثر عمقاً. إلا أنه حتى ولو كان يرى مثل شارلوتيه، الطابع شبه الفيزيائي لعلاقتهما– عند بعد معين يكون هناك تجاذب كبير، وعلى مقربة بالغة نوع من التنافر– فهو يتمنى في بعض الأحيان لو أنها بدت أكثر ميلاً وولاءَ له مما يجرؤ على أن يتلفظ به، ولو فقط بذلك القدر القليل الذي يجعلها تخلع ساعة اليد في الفراش ولا تتحقق من شاشة التليفون إذا رن وهو يولج

فيها، الذي يجعلها تدلكه هو الآخر مرة أو تدعه يصل إلى نشوته بلا مقابل وترجوه هامسة برقة ألاّ يذهب بعد، ليس مباشرة. ولكنها لم تقم بذلك أبداً حتى ذلك الحين. من ضمن طقوس يوم الأحد أن يشاهدا معاً بعد ممارسة الجنس، حلقة من برنامج «موقع الجريمة».

وحتى في تلك الأمسية الساكنة، التي غالباً ما تترك أثراً في نفسها، رغم حميميتها لافتقادها لغة الحوار الخاص في ما بينهما، لم يكد هو أن يمد يده إلى جواربه حتى تبدأ تبحث عن جهاز التحكم عن بعد تحت المخدات.. إنه في طبق الفاكهة. «إنك بكل بساطة لا تستطيعين العطاء»، يقول بابتسامة شامتة، ويغلق حزامه، الإبزيم المصلصل، ويرتدي قميصه. جسمها مقلم بخيال الستارة الجرارة، وعلى خاصرتها ونهديها المحمرين عضاً، يقع ضوء متأخر، وقد دست منديلاً في فتحة فرجها، وتتبدى وكأنها لم تسمع شيئاً. لا يتسنى لها أن تشغل التلفزيون. «إنك فقط تستطيعين الأخذ»، يمضي قائلا وينتزع بعض حبات العنب من عنقود الكرم. «ولكن ذلك بطريقة مبهجة للغاية».

يستدير، وبالكاد يكون قد أصبح خارج الباب، فإذا به يسمع آهة بصوت بالغ الرقة، يصعب تخيله في ما بين الجدار العاري وأثاث الباوهاوس، كأنه تدفق من طفولة بعيدة، قبل

أن يعيده السكون الذي أعقب ذلك إلى الغرفة. لقد أفلت الشمس خلف الأسطح، والظلال قد اختفت في لون رمادي عام ندي ومريح للعينين.. تبرق فيه الشاشة المسطحة وكأنها موضع ثالم، وشارلوتيه تبكي. قد وضعت إحدى ذراعيها على وجهها، وأنفها قد ساح، كما أن شفتيها كانتا ترتعشان، وخاصة لأن أول ما يدور بخلده معها– وهي التي بين الحين والآخر تلهج في الفراش أو قبل ذلك بقليل بالحب همساً أو ترطم بنظرتها– هو احترافها التمثيل، فإنه يستطيع أن يرى أنها لا تتصنع البكاء. فيما عدا في أشد لحظات اللذة لم يسبق أن لاحظ دموعا على وجنتيها، وفي شيء من الخجل يجلس على حافة الأريكة وينتظر.. السماء فوق الفناء ما زالت حمراء، بيد أن الغرفة تزداد ظلمة بسرعة.

«شارلوتيه» صامتة ولا يتحرك لها ساكن، وهو لا يكاد يتمكن من سماع نفسها، فقط عقرب الثواني على رسغ يدها، ولكن هذا تحديداً يضفي على حزنها جدية تزيده انكماشا، وأيضاً تجعله مرتبكاً أكثر وأكثر، بينما هو يسأل نفسه في الوقت ذاته عما «معاذ الله» قد كان جارحاً لهذا الحد فيما قد قال عرضاً. ليخيل إليه أن وقع صداه يكاد يكون متملقا على سمعه، وإن شاعرية الجملة على كل هدية، بحسب ما يعتقد، لا تحظى بها كل عشيقة. زد على ذلك أنه سبق أن وقعت

بينهما مواقف فيها من الإساءة ما هو أكثر من ذلك، فقط منذ عهد غير بعيد، حيث قالت «ألينا» عقب مشاجرة حول أحد أمور الحياة اليومية: «يا إلهي، إنك لست متزناً أبداً، اذهب إلى «شارلوتيه» ثانية في القريب العاجل». وعندما حكى لها.. صحيح، وهو مبتسم في رضا، ولكن في كبرياء تام وكلّه إعجاب بمثل هذا القدر من السيادة.. تبقى جامدة الوجه. تحملق ببصرها من النافذة، وتنهل من السكوتش، وفي النهاية تتمتم قائلة: «أظن أنها تعتبرني عاهرة رفيعة المستوى». ولأنه رأى أن ليس من حقها مهاجمة «ألينا»، فتح أنبوبة المرطب وقال عرضا: «نعم، لماذا رفيعة المستوى... ؟»

إلا أنه آنذاك، تطايرت فقط المخدات، وكتاب واحد.. روايته الأخيرة. الآن لا تزال «شارلوتيه» مستمرة في البكاء، وعندما يمسح على ظهرها بيده، ويدلل شعرها بأصابعه تدليلاً رقيقاً تنشج بالبكاء عالياً وتتقلب، ثم تضع رأسها على ركبتيه. شكه بأنه ربما يكون قد لامس جرحاً دفيناً في تزايد مستمر، ومرة جديدة يدرك كم أن ما يعرفه عنها قليل، وذلك ليس لأنها لا تحكي له شيئاً، بل لأنه لم يكد يستمع إليها أبداً من قلة الصبر، أو حدة الشهوة، أو كثرة التعب. والداها القاسيان، وإخوتها الأشرار، وطفولتها العسيرة بسبب معاناتها مع المرض، والفترة التي قضتها في المدرسة

الداخلية الكاثوليكية، وممارستها اليومية للعادة السرية منذ أن بلغت التاسعة من عمرها، ونزوعها إلى أن تصير المثلى دائماً وفي كل مكان، ما كانت لتحتملها من دون أن تحيلها إلى رغبتها. وكافة الرجال الشواذ، ومرضى الاكتئاب والفصام والمتلجلجون ذوو الأيادي المعروقة، انجذبت نحوهم منذ سن البلوغ. يبدو أن في ماضيها عصباً لا ينبغي أن يمسه سوى من يقدر على حزنها. أي حبيب، وربما أي صديق، ولكن بالتأكيد ليس عشيقا. «فولف» على كل حال يجد أن من المريح التوهم بأن آلامها قد خفت في هذه الأثناء، وأنها بالتالي في حاجة إلى المواساة وليس إلى أن تستمتع ببكائها.

تعتدل ببطء، ويناولها علبة المناديل، ولكنها ترفع كيلوتها من على الأرض، حيث تتمخط في النسيج القطني، ثم تشعل سيجارة من العلبة التي نسيها عندها أحد ما.. القداحة عليها شعار إحدى شركات الحاسوب. وجنتاها تنسحبان إلى الداخل، عندما تشد نفساً من الفلتر، والتجاعيد على شفتها العليا تصير أكثر عمقاً. تحملق إلى الأمام بعينين ضيقتين، ثم تنفث الدخان عبر أنفها، وكلما طال صمتها يبدو له منظرها الجانبي أكثر صرامة. للمرة الأولى يرى بوضوح أنها معلمة، ويستطيع أن يتصور الاحترام الذي يكّنه لها زملاؤها في المجموعات البحثية.

«إنني أعطيك الكثير».. تقول أخيراً وتزدرد ريقها.. صوتها يبدو واهياً، ومسناً تقريباً. «إنني أعطيك أكثر مما تعرف، أيها الكلب الأناني».. يدركها السعال، وتطفئ السيجارة ثانية، فقد كانت أصابعها ترتجف، ثم تشبك ذراعيها أمام صدرها. «لولاي لافتقر وجودك بالضبط إلى ما يقيك من اليأس المرير والابتذال، وذلك لأنني بصيص النور في حياتك، فلولاي لكان بيتك المرتب خراباً، بل وظل الخراب، إن كنت تفهم معنى ما أقول». وحينما ينفي ذلك في عناد، ويرفع ذقنه، ويطلب منها ألا تغالي في الاعتداد بنفسها، وبمكانتها في حياته، لا تلبث أن تستشيط غضبا. «لولا مخبأنا هنا لكنت انقبرت في مربع ضاحيتك المحدد، والمكتظ بمعاتيه الشرق والأثاث العضوي من قبل ذلك بكثير! لقد قصرت نفسك على ما هو ضروري، لأنك تخاف ما هو ممكن. أنا اتجرع منيك، ولكنك في الواقع تقذف دموعاً. أنا التي تمنح إيروسيتك الحمية حتى تكتب جملاً يمكن قراءتها بلا صرخات تثاؤبية. أنا أمد لك مؤخرتي، ولولا التنوع الذي أهبك إياه،بل لولا الثياب الداخلية التي أسمح لك بتمزيقها وأفعال الخنازير التي أسمح لك بأن تقوم بها معي لكانت نفسك قد صدت عن امرأتك منذ زمن، والتي يا سلام عليها عاقلة وراسية، ولكانت هي قد نشفت أمام التلفزيون مثل

كل الناس. أنا أبقي علاقتكما على قيد الحياة.. احفظ ذلك في ذهنك، يا عزيزي. والآن أريد أن أنفرد بنفسي».

بظهر أصابعها تجفف آخر دموع عينيها.. وجهها، يكاد يكون أصفر اللون من شدة الكرب.. يبدو الفم وكأنه مرسوم عليه. تسحب عليها بطانية صوفية حتى أسفل ذقنها، وتضغط على جهاز التحكم عن بعد، وتفتح على برنامج «موقع الجريمة»، من دون أن يخفف من وقع خطاه كعادته.. يضرب الباركيه بقدميه، ويأخذ جاكيته من على المشجب، ويفتح الباب على آخره، لكي يتمكن من صفقه بشدة، ولكنه يغلقه بعد ذلك بصوت خافت.

فحاح الإوز في البحيرة، كأنه السكون يسلخ له جلده.

من كبائر الإثم التي يقترفها الكاتب، الكتابة عن موزارت.

بالغة القصر الرحلة عبر الليلة الدافئة.. مستقيم الخط الحديدي وسط الأشجار.. الفروع ترتطم بزجاج النوافذ، وفي الضوء الذي يشع من العربات المترجرجة، تلوح الشجيرات المليئة بالحبات ذات اللون الأزرق المخملي أو الأحمر. هناك أكوام عالية من أخشاب البناء على الطرق.. لقد بهت لونها من النشارة، وهنا وهناك يوجد بيت.

المقاعد في ترام الجمهورية الألمانية الديمقراطية القديم،

صغيرة على نحو فيه إهانة، حيث يخيل إلى «فولف» أنه يشعر بإرادة الدولة القديمة السقيمة في ظهره، التواضع المأمور به. «ألينا»، التي كانت طيلة اليوم– ولم تزل– تعاني من الصداع، تلصق خدها بكتفه، وتغمض عينيها.. الحدقات أسفل الأجفان ترتج في عصبية.. أحياناً تظهر تجاعيد عمودية بين الحاجبين، وبإمكانه رؤية وريدها الوداجي ينبض، بسرعة زائدة، كما يرى. صحيح أنه لا يقول شيئاً، ولكنها تشعر في ما يبدو بأنه مشغول البال، وتطبطب على يده لتهدئ خاطره.. الكلب يضع رأسه على ركبتيها.

الطريق عبر غابة الليل مدته تقل عن عشر دقائق، وينزلان عند ميدان «بيراميدنبلاتس». بلدة «شون أيشيه» قرب برلين تبقى– رغم الشوارع الرئيسية المؤدية إلى منتزه القصر في هيئة إشعاع– بقعة مبهمة المعالم، ومحيرة للعقل بشكل لطيف. ففيهامثلاً ما هو متناثر، وإذا كان المرء في أول الأمر يميل إلى اعتبارها قرية، فلن يمض وقت طويل حتى تصحح له القدمان المتعبتان رأيه، حيث إن الأحياء المنفردة تمتد إلى أعماق الحقول، كثيرة التلال، والغابات المختلطة، وتلك ترمي بظلالها حتى مواقف السيارات التابعة لمحال المفروشات الرخيصة، حيث تنكش دببة الراكون باجتهاد في حاويات القمامة. الشوارع الجانبية قد تم رصفها بالكتل الصخرية

في عصر الإمبراطورية الألمانية، والكثير من الأسوار مصنوعة من سلك، أما المماشي، فمن طين محاط بالكلأ.. على قطع الأراضي الواسعة توجد البيوت الجميلة، والبسيطة في أغلب الأحيان.. تحت أشجار الصنوبر التي تبعد عن بعضها بمسافات تستبعد كل إزعاج من البداية، وتبدو وكأنها لا تفسح المجال إلا للسكون. كما أن الطائرات التي تطير عالياً فوق البلدة في اتجاهها إلى شونيفيلد لا يكاد يشعر بها أحد.

في السابق كان يسكن هنا كبار ممثلي الجمهورية الألمانية الديمقراطية، وفي هذه الفيلا أو تلك قامت الأشتازي بتدريب معاونيها، أو أنزلت الضيوف الذين كان من الأفضل إبقاء وجودهم طي الكتمان.. من قد انكشف أمرهم من النازيين مثلاً، الذين لا يراد الاستغناء عن خدماتهم إلى حين، أو الإرهابيين الشباب من ألمانيا الغربية المطلوبين بتهمة القتل، والذين ينتظرون مع جعة راديبرغر بيلس، والنقانق التورينغية اسلام جوازات سفر جديدة أو تذاكر طيران إلى لبنان.

الساعة لم تتعدَّ التاسعة مساء، ومع ذلك فقد صارت معظم البيوت مظلمة. عن غير عمدٍ يتحدث «فولف» و«ألينا» مع بعضهما بعضاً بصوت منخفض، ويضعان الكلب، الذي بدا لهما متوتراً، في القيد. على عكس قطع الأراضي الخاصة، فإن منتزه «جوته بارك» الصغير الذي تسكن بقربه السيدة

زايدنكرانتس، غير معتنى به، حيث إن شجيرات القراص تتكاثر من حول الدكك المتداعية، في حين ينمو القمح البري بين الطلوح. تلمع الحسكات في ضوء المصابيح القليلة التي رؤوسها ليست مهشمة، وعندما يتوقف «ويستر» عن السير على حين فجأة، ويشرئب بعنقه، في لحظة كل جسده فيها يرتجف، يندفع خنزير بري من وسط الشجيرات.. أنثى هيفاء ممشوقة القد، وطويلة الساقين بعض الشيء، ويفر هارباً وقد وقف الشعر على قفاه. طرقعة مخالبه على بلاطات حجارة الشارع تُسمع وكأنه يعدو على باكليت.

السيدة زايدنكرانتس تبتسم متهللة الوجه، وتفتح لهما باب البيت على مصراعيه. على الجونلة، والبلوزة الكريم ترتدي مريلة بيضاء منشية وذات حمالات مزينة بالدانتيل. ولأن «فولف» ما زال ينبغي عليه أن يمسك بالكلب، فهو يكاد يسحبه من على السلم.. تقدم «ألينا» إليها الزهور. وبسرور بالغ تضرب كفاً بكف، وبحديثها الخافت الذي يقارب الهمس وإن كان الغرض منه مؤكدا هو التعبير عن أنها تكاد تطير من الفرحة إلا أنه يبدو لفولف وكأنها لا تريد أن تلفت أنظار الجيران بغير داعٍ. رغم رائحة الكعك الطازج المنتشرة في أرجاء البيت فإنه يعتقد بأنه يستشعر قليلاً من الكحول في أنفاسها، وقدراً من غبطة العرق في

نظرتها. يشكرها على المكالمة والدعوة، وهي تغلق الباب وتقول: «إذاً فأرجو ألاّ أخيب ظن حضرتكما.. لم أعد الآن إلا الكفتة، وفطيرة مجمدة جاهزة».

البيت الذي لا يكاد يلتفت إليه أحد، ونوعه وكونه منزلاً لأسرة واحدة، يتضح أنه رحب للغاية. وبسبب الإضاءة التي تقتصر على مصباح أرضي، وحوض أسماك فإن غرفة الجلوس المزدحمة بنخيل الأصيص، والمقاعد الجلدية، والأرائك بأركانها الكثيرة تبدو وكأنها قد تمت توسعتها المرة بعد المرة بمرور الوقت، وفي كل مرة بمواد بناء مختلفة: هناك مستويات أرضية مختلفة، وحوائط مجلدة بالأخشاب، أو مكسوة بقوالب طوب بيضاء، أو مغطاة بالقماش علقت عليها الأطباق، والبارومترات، والساعات، وعندما تظهر على «فولف» علامات الدهشة من الأبعاد البهوية تقول السيدة زايدنكرانتس: «حسناً، حافظا جيداً على النظافة! إن زوجي خبير في ذلك ويبني وينجر في كل دقيقة من أوقات فراغه. من كثرة الملاحق لم يعد هناك شيءٌ ظاهرٌ من البيت تقريباً. حتى إن الجيران يسألون متى سيسقف المدافن الملاصقة للبيت. ولكنه الآن في بلغاريا».

تفتح بابا، وتسير بهما عبر ردهة طويلة ضيقة ذات نوافذ كبيرة لا ينيرها سوى ضوء القمر، مليئة بالأرفف التي تنمو

عليها نباتات الصبار.. أعداد لا تحصى. بعضها ضئيلة الحجم مثل الكستبان، والأخرى سميكة كالقثاء، وهنا وهناك يتراءى لأعينهما نوار وردي نضير، أو أصفر، أو أحمر فاقع.. إنها منسقة بحسب أنواعها، وداخل كل نوع بحسب الأحجام، بحيث يولد ذلك رغم أشكالها المضحكة أو أيضاً المقززة انطباع الأرشيف.. بعض الشوك معلق عليه قصاص ورق. «في بعض الأحيان يمكن سماعها وهي تنمو»، تقول هي. «يبدو ذلك وكأنها تهمس».

خلف غطاء شبه شفاف، تضيء أنوار، والسيدة زايدنكرانتس تزيحه جانباً وتدعوهما إلى الغرفة. البستان المعروش الرئيسي هو مبنى زجاجي بيضاوي ذو قبة مدببة، ومكتظ أيضاً بأشجار الحمضيات، وزهر الكاميليا، والنباتات الشبيهة بالسرخسيات التي تبدأ ظلالها تتمايل من جراء الحركة المفاجئة لشعلات الشموع، ما يجعل الأشخاص الجالسين هنا في صمت على طاولة مستديرة، امرأتين ورجلاً، يبدون بلا حراك أكثر وأكثر. بالأذرع على مساند الكراسي البلاستيك البيضاء، ينظرون نحوهم في فضول، ورغم أن واحدة من السيدات تدخن، فإن رائحة زكية تتطاير في الهواء تذكر فولف قليلاً بحلوى من طفولته، ولكن اسمها لا يرد على ذهنه.

السيدة زايدنكرانتس تعرفهما عليهم: الزوجان ماوخ- أكبر منه سناً بقليل- ويسكنان البيت المواجه، وأغلب الظن أنهما ليسا في الأصل من برلين أو براندنبرغ.. كلمة «مساحة الكلأ» على كل، تسمع من الرجل ذي قميص المكتب الأزرق، والذي يتأرجح إلى أعلى من على كرسيه.. بالأحرى مثل «مشاحة القلأ». يضم الحذاءين إلى بعضهما وينكس رأسه المفروق بعناية، عندما يمد إلى «ألينا» يده، ويضيف إلى لقبه اسم «إغبرت» المسنن. ابتسامة زوجته، التي تبقى جالسة، يبدو وكأنها ترجو عدم مؤاخذته. مع فستان أسود من قماش الفانلة بياقة صغيرة بيضاء ترتدي جوارب عليها نقش على شكل معين، وشبشباً سميكاً وتداعب فرو ويستر الذي يلهث.

توجه صاحبة الدعوة وجهها شطر السيدة الأخرى، وهي عجوز ضعيفة البنية، تربط شعرها على شكل كعكة وبين أصابعها سيجارة.. خالتها. العينان الرماديتان الكبيرتان، واللعوبتان بعض الشيء تحيط بهما هالات ضاربة إلى الزرقة. ولأنها بصدد أن تسكب العرق في كوب ماء.. الفودكا الروسية، تحييهما بإيماءة من رأسها فقط. السيدة زايدنكرانتس تقطب الحاجبين «يا بني آدمة، شيء لا يصدقه عقل! أينبغي لك أن تشربي هذا الشيء صرفاً ثانية؟ أرجوك

فكري في قلبك!» إلا أن من وُجِّه إليها الحديث، تأخذ نفساً من سيجارتها الخالية من الفلتر، وتنتف شيئاً غير مرئي من بلوزتها، وتقول بالدخان أكثر مما بصوتها: «لا ينبغي لي أي شيء، يا إيريكا. ولكنك تعلمين أنني سأعمل لك كل شيء إذا حصلت على منفضة».

تضع ابنة أختها أمامها، طبقاً صغيراً من البلور وعلى شفتيها ابتسامة استسلام، ثم تسير مع «فولف» و«ألينا» إلى حائط شبكي من الخشب يشبه جدار التسلق في صالات الألعاب الرياضية، وكانت قد التفت على دعائمه الخشبية الأفقية حتى أسفل السقف الزجاجي أذرع صبارة، في ما يبدو طاعنة في السن وقد بلغت من الكثافة أنها تكاد تحجب الخشب كلياً.. تبدو مثل ثعبانٍ مجدولٍ، متشابك في نفسه، وغير مفرطٍ في السمك. في خضرتها الداكنة توجد هنا وهناك جروح ملتئمة، وحيثما أراد ذراع غالباً أن تلتف على مقبض نافذةٍ ذات مرة كانت قد قلمت. النبتة كبيرة، تفوقهم كلهم حجماً، والاستدارات على الجوانب العليا تبدو كالأكتاف المدرعة بالشوك. ولكونهما يتوجب عليهما أن يرفعا النظر إلى النوار الوحيد، الشبيه بزهرة اللوتس، والمنفرج بمقدار عرض اليد على الأقل، وذي الأوراق الكمية المدببة، والإكليل الأبيض خالص البياض، فإن ذلك ليضفي

على النبات شيئاً جليلاً من شأنه أن يظهره في صورة لائقة.. تلك المهابة الخافتة التي تهمس بها السيدة زايدنكرانتس كما بعد رفع ستار مشغول عليه رمز ملكي: «إذا، فتلك هي ملكة ليلنا».

شذى الرائحة التي تفوح من النور المتلألئ على كرسي الزهرة بلون الفانيليا الأصفر، فيه شيء يأسر نياط القلب، ويبدو للمرء مألوفاً وفي ذات الوقت لا عهد له به. مثلما تحمل سماء النجوم بين جوانحها أكثر مما تحمله سماء، مليئة بالنجوم، فإن بها لمسة تدل على ما يتجاوز حدود البيولوجي، ولو بصورة مبدئية لمجرد أنها كمادة تنبيه تنم عن المستوى المدهش والرقة اللذين تتسم بهما، فما عليها سوى أن تجذب من المخلوقات التي تتفوق في أعماق مجالات صداها عقلية على الإنسان في الذوق والأناقة، حتى لو لم يتعلق الأمر إلا بعثة الغبار. كلما طال تأمل الإنسان للنوار ازداد ما حوله عتمة، وأغلب الظن أن هيئة الشمس التي عليها الإكليل هي التي تقوي الانطباع بأن أمر نبتة الصحراء النبيلة هذه، التي تتفتح في ليلة واحدة من السنة ولمدة بضع ساعات فقط، لا يتعلق بالإزهار بقدر ما يتعلق بالإشراق، بنورٍ تومض الذبابات الضئيلة من حوله.

السيدة زايدنكرانتس تشير إلى جزءٍ آخر من الحائط الشبكي العريض، حيث تقع النباتات المنسقة على غرار

حبات العنب، التي يزيد حجمها على قبضة اليد، والثقيلة وزناً والمكتنزة باللحم بصورة واضحة، والتي يحميها من الخارج غلاف مكوكب من الأوراق الكمية المدببة، من ذات موقع الثمرات، حمراء ضاربة إلى الرمادي وصفراء فاقعة، ولكنها براعم. «وأنا التي كنت قد اعتقدت بأنها قد سلمت لهذا العام. الطبيعي أن أو أوانها قد حان منذ ستة أسابيع مضت. ولكنها تعرف فصول السنة أحسن منا، فقد تركوا لأنفسهم بعضا من الوقت بسبب الحر المتأخر. إذا سارت الأمور على خير فستزهر جميعاً هذا المساء. ولكن لا علم لأحدٍ بذلك... في بعض الأحيان تكفي أدنى إشارة إلى حدوث تقلب في الطقس، وضوء شمعة زائد، وإذا بهم يدعون ذلك جانباً.. يتحتم علينا أن ننتظر من جديد لمدة سنة». باليدين على خاصرتيها تستدير متلفتة إلى خالتها. «غيردا حبيبتي؟ هل فهمتني؟»

ولكن تلك تهز رأسها بالنفي، فترتج شحمتا أذنيها الذابلتين أثناء ذلك. «كلا، يا صغيرتي، أخشى أنني سأخيب أملك. لقد كنت في التو أصغي إلى السيد والسيدة ماوخ، وهما يقولان شيئاً شائقاً للغاية.. شيئاً خليعاً من ناديهما. سأحكيه لكِ على الفور إذا تذكرته..».

تطلق السيدة زايدنكرانتس تنهيدة، وتشير إلى الكرسيين

البلاستيكيين الخاليين، إذ كانت توجد عليهما مخدات داخل أكياس مشغولة بالكروشيه، وبعد أن صبت لها خالتها البيرة في كوب نحيف طبعت عليه قلوب حمراء، مالت على «فولف» وقالت: «حضرتك يعني الأستاذ الكاتب؟ إذا، فلا يمكننا إلا أن نبتهج بأن شعر حضرتك غزير بالمنظر هذا وأن حضرتك تحتاج بين الحين والآخر إلى أن تذهب لايريكا، أليس كذلك؟ وإلا لما كنا سنتقابل تقريباً.. أنا أسكن في تلك الناحية، في شارع هاينريخ مان- أتعرفه حضرتك؟ أحبه أكثر بكثير من أخيه المتبهرج. لم يكن صلداً عديم الذوق هكذا، ولا في أي جانب، والكاتب الأعظم على كل حال من الأحوال... لقد سمعت ذات مرة أنه كان يقع في ورطات، كلما كان عنده مال في شبابه الذي أمضاه في لوبيك. هل أشتري لنفسي المرزبانية؟.. كان يفكر، أم أزور البنات؟ إن ذلك طبعاً سيكون خطيئة، ولكن إذا ظللت طاهر الذيل وأكلت المرزبانية فإنني سأصاب بوجع البطن، ما يشغل بال أمي وأبي علي. إذاً، من الأفضل أن أبقى في صحة جيدة وأن أذهب إلى الماخور. هكذا كان هو!»

السيد ماوخ، الذي يقزقز المكسرات من أحد الأطباق، ينفث بعضاً من الهواء من أنفه، ويهز رأسه، كما أن ابنة أختها تضع إحدى يديها على فمها تظاهراً بالصدمة، ولكنها

كانت تبتسم خلف أصابعها. الخالة غيردا تنظر داخل كوبها «ولكن إذا كنت حضرتك كاتباً، فلا بد من أن يخطر ببالك شيء طيلة الوقت، أليس كذلك؟ إن هذا في تصوري لصعب أيما صعوبة.. أيخطر ببال حضرتك شيء؟»

«فولف» يحتسي رشفة من البيرة، التي تكاد تكون سوداء. « يا إلهي»، يقول: «لا أظن أن خيالي واسع إلى درجة بالغة».

«أهة، أترون؟ لا يخطر ببالي أيضاً شيء البتة، منذ عهد بعيد، فأنا كلما قرأت شيئاً بدا لي مألوفاً، لكنّ شأني مع الروايات لا يختلف عن شأني مع الناس. أيام زمان كان الناس كثيراً ما يقولون: إن أسوأ ما في الكبر هو أنك تظل شاباً، وإنني لبصمت بالعشرة على صحة ذلك زمناً ما. فالآخرون هم فقط الذين يبدون أكثر تجاعيد. ولكن هل تعرف حضرتك الشيء الفظيع فعلاً؟ إن الأمر يستغرق كل ذلك الوقت. إن الموت حمار كسيح إلى هذا الحد. من ذا الذي يشرب كوبي كلّه ثانية وثالثة؟ حضرتك، يا سيد ماوخ؟ ألا يوجد هناك شيء على شفتي حضرتك؟»

وهو بصدد تثبيت كاميرا رقمية على حاملٍ، يلتقط من وجه إليه الحديث أنفاسه بتصنع مسرحي كأنه يود الاعتراض، ولكنه يمد يده إلى الطاولة ويسكب لنفسه قدراً من الفودكا.

زوجته، التي قد قربت إليها شمعتين، وتتصفح مجلة أزياء، تبتسم بزاوية واحدة من فمها وتقول: «لقد كنت أيضاً في حلقة دراسية من هذا النوع لشعراء المنطقة في ما مضى. وما الذي لم يفعله المرء إذا لم يحصل على تلفزيون غربي. ‹لا تدعوا حبل الثقافة ينقطع›، كانوا دوماً يقولون ذلك، حتى في العمل. فأقيمت المسابقات النثرية تحت شعار ‹قصوا علينا كيف تعهدون حياتنا اليومية في جمهوريتنا الألمانية الديمقراطية وكيف تشاركون في تشكيلها، وكيف تواصلون صنيع الآباء الذي يجعل مجتمعنا جديراً بالحياة فيه والدفاع عنه›، وما إلى آخره. حينئذ كتبت أنا: ‹إننا لن ندع حبل الثقافة ينقطع›. خطأ كتابي، كلمة شرف، حيث إنني قادمة من قطاع الاقتصاد الزراعي. ومع ذلك قد مر على القطار».

ضحكتها التي يعلو صوتها على الجميع، تُظهر فجوة طريفة بين أسنانها، ولكي يصرف الانتباه عن نفسه وعن عمله يسأل «فولف» زوجها عن مهنته. في دهشة على ما يبدو من أن الكلام موجه إليه من الأساس، يبتلع حبات الكاجو بصعوبة، ويضع إحدى يديه على صدره أثناء ذلك. «آه»، يقول بصوت خافت.. «لقد كنت مجرد نادل، في لايبزغ– فندق ميركور. ‹سيد القوم خادمهم.›

بعد التحول ورثنا هنا».

زوجته، التي لا ترفع نظرها عن ورقتها، تنبعث من فمها طقطقة متبرمة، وعندما تصحح كلامه بصوت خافت- كان رئيس الندل- ترتسم على وجهه ابتسامة غامضة، ويوجه إجابته بصورة واضحة إلى «فولف» و«ألينا» قائلا: «ولكن، يا سيدة الملاح، لم يكن هناك فوق وتحت عندنا.. هل نسيت ذلك؟ حقا إنني كنت رئيسة قسم الضمانات، هذا صحيح، ولكن فقط بالنسبة إلى بار الموكا. غير أن قدميك تتورمان هناك أيضاً. كانت القشطة تنفد باستمرار، وعندئذ لم أكن ألاقي إلا النكد، لأن مواطنينا يشعرون بالظلم. كنت مضطرة إلى التخلص من عدد لا يحصى من المكالمات وخطابات الشكوى. فقد كانوا يتهموننا بأننا نؤثر عليهم ضيوف المعارض الغربيين، من أجل العملة الأجنبية الغربية».

الخالة غيردا تتثاءب.. «أليس ذلك مثلاً صحيحا؟ هاه؟»، تدمدم وتهينم وتمد يدها إلى علبة السجائر المجعدة.. العقد حول مفاصل أصابعها تلمع وكأنها منتفخة من الألم، وكأن مجرد ضوء الشموع يؤلمها. «كنت أفعل ذلك حتى وأنا عاملة منظفة مراحيض! واحدة من الحجرات التي كانت تظل دائماً خالية».

ينكس الرجل رأسه في تحفظ. «هذا صحيح، يمكن القول

هكذا، يا ست الناس. إلا أن ذلك لم يكن بصفة رسمية.. كان واجبا علينا أن نرد على مخالفة تلك العرائض. مع أطيب التحيات الاشتراكية. صحيح أنه كانت هناك مساوئ، ولكنها ليست أبداً من دون حساب».

صوت كركرته مثل التبرم الخافت، والسيدة زايدنكرانتس، التي يخجلها الحديث بعض الشيء، تضع إحدى يديها على منكب «ألينا» وتشير إلى الحائط الشبكي، حيث يتفتح في هذه اللحظة برعمان، وذلك على نحو لا يكاد يكون ملحوظاً أولاً. بين أطراف الأوراق الكمية، يظهر شيء من بياض خالص، كشكشات ضئيلة لم يطرأ عليها أي تغير لمدة طويلة، كأنما السكوت المفاجئ، والانتباه المصحوب بالتشوق اللذان قد عمّا الغرفة، حاجز لا تجرؤ الأنوار على اختراقه. يكاد المرء يختلق عليها الاستحياء. السيد ماوخ يدير كاميرته، وببطء تتراخى الأوراق الكمية المدببة، الملتفة حول البراعم بشكل حلزوني، ذات اللون الأصفر التبني في الداخل، والتي تميل إلى الوراء لكي تفسح المجال لكل ما تبقى.

«مع أطيب التحيات الاشتراكية!»، تقول المرأة العجوز وتنخر في سخرية. تشير بعود الثقاب المتفحم إلى فولف، وتسأله: بلطفٍ «هل تعرف حضرتك، ماذا كان مكتوباً أسفل

أول خطاب تلقيته من زوجي اللاحق؟ ‹أحبك إلى الأبد. يحيا هتلر، المخلص إليك كورت!› شيء مضحك، أليس كذلك؟ أما كان منتهى الطيش؟ لا أريد أن أعلم كم الأشياء التي أفسدها على نفسه في تلك الأيام. وبعد ذلك بثلاثين عاماً، وأربعة أولاد، واجهاضين، بعد أن كان قد انتقل مع معبودته الجديدة إلى شاطئ بحر البلطيق البولندي، جاء بعد ذلك في خطاب منه ‹أتمنى لو نبقى رغم ذلك أصدقاء. مع أطيب التحيات الاشتراكية. المخلص القديم، ك.› هذا بالنسبة إلى التاريخ العالمي. أين ذهب رمادي؟»

الآن قد بلغ ما ينجلي من تويجات الأزهار، حد أن المرء يفكر بلا إرادة في استدعاء الأزياء القديمة إلى الأذهان عن غير عمد، والأساور الدانتيلا البارزة تحت أكمام مخملية داكنة اللون.. العبير، بحلاوته الطاغية، يبدو وكأنه يطرح قبواً فوق الغرفة الزجاجية.. الحشرات تطير فتصطدم بالزجاج، و«فولف» يدفع إلى السيدة بالطبق البلوري. ترمي بعود الثقاب فيه وهي تتفحص يديه قليلاً، وعندما ترفع جفنيها المتعبين يتبدى في عينيها شيء متدلٍ.. بريق ناء. أحمر الشفاه، الذي وضعته في وقت ما خلال البضع دقائق المنصرمة، قد خرج عن حدود شفتيها قليلاً.. تلتف بعض الشعرات، رفيعة كما خيوط العنكبوت، حول الإصبع المرتعشة التي

تلتمع عليها دبلتا زواج.

رمادية تلك المرأة حتى المسام، حتى أطراف الرموش، فبشرة العنق تتدلى ذابلة، إلا أن ما تعرب عنه قسمات الوجه من طلاقة حالمة، وحزينة بعض الشيء، والتي من الواضح كل الوضوح أنها قد دبت فيها الحياة من ذكرى الحب، يجعلها أجمل مما تدري. لشدة افتتانه بنظرتها الوهاجة، التي يتجلى فيها شوق ووقار معاً، كما في خط بعض الشيوخ الذي يأخذ العقل من وضوحه، يتطلع إليها فولف مدة أطول مما ينبغي، في إلحاح تطفل زائد أيضاً عن الحد، ويبدو لنفسه فظا في رجولته على حين بغتة. يغلق زراً في قميصه. وعندما يسألها محاولاً تحويل انتباهها عن المكان الذي يقع فيه شارع هاينرخ مان في البلدة، ترشف من العرق، وتأخذ نفساً عميقاً قبل أن تشير بالسيجارة إلى النافذة، إلى بضع أشجار من الصنوبر على حافة النجيل. «لماذا؟ هل ترغب حضرتك في زيارتي؟ المفتاح موجود دائماً تحت السلم».

البيت الأبيض بين الأشجار صغيرٌ نوعاً ما.. له سقف سندي فيه روشن خماسي الأضلاع، وشرفة على شكل نصف دائرة في الطابق الأول، يحملها عمودان سامقان، علاوة على نافذة ذات عوارض خشبية تقع في الناحية المطلة على الحديقة، حيث توجد تراسينة، وبركة تحيط بها الحلفاء،

قد أحدق بها الغاب. الأدراج التالفة من الاستعمال، والمؤدية إلى المدخل، يظلل عليها رواق من دعائم وألواح خشبية، وتوجد أسفله زجاجات لبن فارغة. هناك سنونوان على وردة سقف على الجملون. بيت قديم، كما لم يعد هناك اليوم من يعرف بناء مثله. بحسب التصميم بسيط المظهر ومتين في الوقت ذاته، وهو يرجع إلى حقبة العشرينيات من القرن الماضي علاوة على أنه يترك رغم النوافذ والأبواب المغلقة، انطباعاً بأن بابه مفتوح بكل امتنان أمام الجميع. تلوح حافة الغابة من وراء قمة السقف، كما أن «ألينا» تميل بجسدها إلى الأمام، وتنحي فرعاً لزهرة كاميليا جانبا، وتقول هامسة: «يا إلهي، كم هو جميل!»

ضوء القمر يجعل ألواح النوافذ تتلألأ، والمرأة العجوز تنظر معهما عبر النجيل. «أتعتقدين حضرتك؟ لا أدري... لم أعد أرى ذلك. لم أعد موجودة هنا تقريباً. على كل إنه جاف ودافئ. إذا أردتماه حضرتكما، فبإمكانكما شراؤه.. ليس باهظ الثمن. حجرتان في الأسفل، ومثلهما في الأعلى.. إنه بيت مثالي لزوجين. إن لديّ واحداً آخرَ في رانسدورف، ويقع على المياه مباشرة. لكنني أغلب الظن سأذهب في كافة الأحوال إلى ملجأ العجزة، إلى ابنتي. فهي قد بلغت الخامسة والستين أيضاً».

السيدة زايدنكرانتس تضع على الطاولة، سلطانية فيها كفتة، وسلطة بطاطس، وتوزع الأطباق، والسكاكين، والشوك، والملاعق، وتنزع سداد زجاجة شمبانيا «روتكيبشن». في ما بعد لا تزال هناك أيضاً فطيرة تفاح مع آيس كريم الفانيليا والكريمة، وكذلك قهوة طازجة، وهو يملأ فنجانه أخذ فولف يتفحص قاعدة الإبريق، بقدر ما يستطيع من تحفظ. فطبق البلاستيك البني ذو الغشاء الإسفنجي مثبت بواسطة شريطين مطاطين، أخضري اللون يشبهان حمالات البنطال، وقد كانا مشدودين على الهيكل الصيني، وسلسلة قصيرة من النحاس الأصفر على غطاء الإبريق. وبالإضافة إلى ذلك، فإن مصب الإبريق يكسوه غلاف إسفنجي له أجنحة فراش مصنوعة من الصاج، وفي عميق افتنانه بأنه قد كان في ما يبدو اتحاد مصانع بأكمله واقفاً على حماية المواطنين ومفارش سفرهم من قطرات القهوة المتساقطة، يصبح غير متأكدٍ للحظة مما إذا كان ينبغي عليه أن يعدّ الدولة البائدة شاعرية أم جبارة.

بينما تصب الخالة غيردا لنفسها، جرعة من الفودكا في الفنجان وتتأمل ملكة الليل دون أن تنبس ببنت شفه، تتجاذب «ألينا» مع كل من صاحبة الدعوة، والسيدة ماوخ أطراف الحديث حول إمكانيات التسوق في فريدرخسهاين

وما يجاورها. تقوم بحفظ رقمي تليفونيهما في محمولها وتريهما في هذه المناسبة بضع صور: صورة توأمي أخيها حديثي الولادة. ولأن لا أحد يرغب في أي إزعاج، لصمت النبتة المعبر، ولاستغراق المشاهدين، يتحدث الجميع بالهمس بصورة شبه دائمة، ومرة جديدة يلفت نظر «فولف»، تغيّر سلوك امرأته وما يحيط بها من هالة حالما تكون بين الناس، حيث تبدو قسماتها أكثر رقة في حين تكون نظرتها أكثر إشراقاً. وكأنما قد تحررت من وجوده وحده، دون غيره، ومن التراب الناعم الذي يكسو خلوتهما معاً.. تتجلى ملامحها في مصاحبتها أناساً آخرين أكثر وضوحاً وانتعاشاً، ويتجدد ظهور سحرها في ميزان آخر للقوى.

يلمع الشعر بلونٍ نحاسي، وميناء أسنانها، عندما تبتسم، ببياض خالص، ما يجعلها تبدو أكثر شباباً، كما الفتاة الصغيرة، بيد أن هذا الإشراق بالذات يبرز أيضاً ظلالاً غريبة. فمنذ بضعة أسابيع، وهو يعتقد بأنه يلاحظ حزناً جديداً في وجهها.. حملقة غارقة في أفكارها، تجاعيدَ أكثر عمقاً بين حاجبيها، وتمنيه نفسه بألاّ يتعلق الأمر بحزنٍ على علاقته مع الأخرى، أو بالخثارة المرة للمشاجرات الكثيرة.. صغيرها وكبيرها والتي قد ترسبت على مدار كل هذه السنين. كثيراً ما تبدو متعبة، ومنهكة القوى، وعندئذ يلوح له أنه

لا يتوصل إليها بكلماته إلا من بعيد، الأمر الذي تبرره في أغلب الأحيان بتركيزها على دراستها، ولكن إذا ما أصبحت بعد ذلك معتدلة المزاج، فيبدو له ذلك متعمداً. على أي حال ثمة شيء قد صار مختلفاً، وفي بعض الأحيان يراها من جديد على مثل الغموض الذي كانت عليه في الفترة الأولى بقرب محطة زودشتيرن، حيث بلغت عزة نفسها التي تجل عن الوصف وهي تتخطى عتبة بابه بحذر أن بدت وكأنها تعبر الحدود الرقيقة لمستقبلها، ولما كان استحياؤها الصامت حكمة دفينة، ما كان أغلب الظن فعلاً كذلك، وذلك لأن «ألينا» كانت آنذاك– ولم تزل– تتميز عنه بالجدية الخالصة التي تقصد الحب، والتي لا يتحصل عليها إلا الأشخاص الذين هم فعلاً أقوياء، وفعلاً أحرار أيضاً. بينما كان هو لا يزال يفكر في سريره الذي ليس مرتباً ويتعب نفسه في حمام الحانة، مع ماكينة بيع الواقي المستعصية، كانت هي على دراية بأن لقاءهما فريدٌ منذ أمد طويل، وعندما كان يرجع إلى طاولتهما المزدحمة بالأكواب الخالية، كان هناك شيء في عينيها، يراه الآن أيضاً فيهما من جديد: الإيجاب الخالص رغم خوف غامض، والاستعداد رغم كل شيء، أيضاً على الألم.

مؤكدا أنه بعد كل هذه الأعوام، وبعد كل ما أثقل عليها

به بحسه عديم المبالاة والذي لا يراعي إلا نفسه وعمله، أصبح شبه مستحيل أن يعد حبها حباً من دون تحفظات. ومع ذلك لديه بصيص أمل في أن يؤثر عليها في الأيام السعيدة ما يساويه هو في عينيها، مهما كان ناقصاً، تماماً مثل موسيقى معينة قد تبدو غير متكاملة في الوهلة الأولى، ولكنها في الحقيقة تستلزم فقط بعضاً من الصبر، مثل تلك الأغاني أو المقطوعات التي تترك أثرا في النفس، بل وتهزها، لأنها لا تشبع الرغبة في المتعة الأزلية بشكلٍ تام، ولا تملأ المنحنيات الداخلية للقلب على النحو الأمثل، بحيث يتوجب على المرء إكمال الناقص باهتزازات الروح الذاتية. ويكون ذلك عندئذٍ أرقى كمالاً.

يقرب كرسيه من كرسيها.. يبدو أن الغرفة ما زالت ممتلئة بالنور.. تتدلى عناقيد كاملة من أوراق التويجات المتفتحة من الفروع الشائكة للنبتة، وبينما يشاهد السيد ماوخ عملية الإزهار، التي استمرت نحو ساعتين على الأقل– منذ التفتح المتريث للبراعم إلى السناء الفجائي، الذي ينفك في ملفات لولبية عن النسق الحلزوني للأوراق الكمية، التي كما لو تصطدم في دفعتها الذاتية، ترتد على نحو زنبركي من جديد، وحتى الانتفاش الأشبه بالطيور للنواوير ذات المذاق المخصلة، صياحها الأبيض الصارخ بـ «نعم!»– على

شاشة كاميرته من خلال وظيفة العرض السريع، ينظر كل من «فولف» و«ألينا»، التي تداعب أصابعه، إلى الظلال المائلة للأشجار ذات الأوراق الإبرية على النجيل، وزجاجات اللبن اللامعة في باب البيت الذي قد كان في هذه الصورة حلماً لهما منذ أمد طويل: بيت صغير بنوافذ كبيرة، على مقربة من الغابة. يقفز عقعق فوق السقف.. تختفي قطة تحت السلم عن الأبصار.

الوقت ينقضي، والسيدة ماوخ قد وافاها النوم، وصاحبة الدعوة، التي قد وضعت لها غطاء على ركبتيها المنفرجتين، لم تعد تحصي النواوير منذ وقت طويل، بل إنها تعد البراعم التي ما زالت متبقية. وبالفعل فإن الرائحة الطيبة التي تنبعث في أرجاء الغرفة تصير متعبة، إلا أن ألواح النوافذ يجب أن تبقى مغلقة، نظراً للحشرات والفراش والخفافيش التي تطير فتصطدم بالزجاج بصفة متكررة، وبطرقعات أقوى كذلك، مما يجعل الكلب مضطرباً على نحوٍ متزايد، فيختبئ تحت الطاولة. البدر يأفل خلف الأشجار.. خلف شريط قممها المسنن، ويمكن استشعار مسحة من الفجر في الشرق. وأخيراً، لقد تفتحت كافة التويجات، بل إن بعضها قد خبا من جديد. هنا وهناك تتدلى بقايا القشور من المبايض.. ذابلة ورمادية حمراء، وعندما تقص السيدة زايدنكرانتس أن الناس

في الماضي كانوا يقطرون منها علاجا للقلب، كانت تنظر إلى الخالة، نظرة شديدة الصرامة، في حين كانت الأخرى تشعل لنفسها سيجارة جديدة في عناد. «نعم، نعم»، تدمدم وتهينم وتدس العلبة في جيب جونلتها. «في الحياة القادمة لن نعمل إلا الأشياء الروحية.. شرب الماء المقدس ونحوه..».

تنهض بمشقةٍ، امرأة طويلة بأكثر مما تصوّرا.. تضع وشاحاً مشغولاً حول منكبيها، وتصافح «فولف» و«ألينا». «إذاً: البيت اسمه رقم ثلاثة وعشرون.. حضرتكما تعلمان مكان المفتاح. ألقيا عليه نظرة عندما يتوافر لديكما بعض الوقت. سأعطيكما سعراً جيداً، فإنني لا أرغب في كسب المزيد من المال. المهم أن تحصل ابنة أختي على جيران لطفاء. والآن أكتفي بهذا القدر، يا أولاد. بالنسبة إلى امرأة قد ذبل شبابها يكفي هذا القدر من الشاعرية.. سأذهب إلى الفراش، فعلى الأقل أستطيع أن أدخن هناك في سلام».

إعلانات النعي لم تكن إلا قصيرة، وبعض الجرائد قد خلت منها تماماً، وكأنما قد أراد الناس معاقبة ريتشاردساندر على الظرف المقزز بعض الشيء، بأنه قد توفي بعد أن كان قد عاش أطول من شهرته. النقاد الشباب ذكروا براعته التعبيرية، بأسلوب يرجع الفضل فيه في ما يبدو إلى برامج الكتابة المتوافرة على أجهزة الكمبيوتر الخاصة بهم، أو

إلى حول العينين في اتجاه الساعة. على كلٍ، فقد طبعت له قصيدة نثرية في الجريدة المحلية بموطنه على خليج فلنسبورغر فوردي، قصيدته الأخيرة، «نشيد الرماد». وقد بعثت رفيقته بنسخة إلى «فولف» الذي تركها وسط الفوضى، التي تعم مكتبه مدة حتى بات لم يجد لها أثراً ذات يوم. ولكونها مكتوبة باقتضاب متحدٍّ من قبل شخصٍ كان الملك قد وضع أحد أصابعه على شفتيه، فإن النص الصغير قد كان بمنزلة شكوى منصبة على كل ما ينساب من بين يدي المرء على مدار الحياة، وكان لها خاتمة لا تنسى. «قنوط الإنسان من أن يكون رماداً»، كان مكتوباً، «فإن ذلك هو الجمر، وقنوطه من أن يكون مفلساً، فإن تلك هي الحياة. ولكن لا تخافوا! ليس عليكم لله دين ولو حتى قدر سنت».

حينما يعود «فولف» في يوم من الأيام التالية من عند «شارلوتيه» تكون «ألينا» جالسة على الأريكة تقرأ، ولأنها ترد تحيته بإيماءة من رأسها فقط، يضيء مصباح السقف ويرى أنها قد بكت.. الرموش شبه عديمة اللون، ما يمنح النظرة شيئاً أعزلَ من كل سلاح، وطاقتا الأنف محمرتان، وصحيح أنه قد جف أثر الدموع على وجنتيها من جديد، إلا أنه ما يلبث أن يجالسها حتى تصبح عيناها مبللتين ثانية.. جبهتها ساخنة الملمس، وكأن درجة حرارتها مرتفعة. ولأنها تنفي ذلك،

فإنها تعاني فقط من بعض الصداع، ولكي لا يرى وجهها تلصقه بصدره.

كانت تقرأ في الإنجيل.. في المزامير، وهو يدير رأسه، وينظر خارج النافذة.. كانت زيارته للأخرى فاشلة.. ناسية نفسها، بسبب زميلٍ تصدر معه مجموعة من الأبحاث العلمية، ويريد نظراً للمجهود الأكبر الذي بذله أن يُذكر اسمه على غلاف الكتاب.. في المرتبة الأولى. قد سكرت «شارلوتيه»، وهذا، في رأيها، هو مكانها وفقاً للترتيب الأبجدي. من ناحية أخرى، بدا له الأمر محزناً للغاية أن يتنازع أشخاص راشدون ذوو رسالة تربوية على ذلك نزاعاً مريراً إلى هذا الحد، بل ويجّرون بعضهم بعضاً إلى إدارة الجامعة، حتى أنه لم يملك سوى أن أعيته الحيل كيلا يخيب رأيه في تلك المرأة. صحيح أنهما قد ذهبا إلى الفراش معاً، إلا أنّه لم تحدث إثارة جنسية تستحق الذكر. فقد لعقها بأدب، وهي بقيت في بادئ الأمر وقتاً طويلاً من دون أن تصل إلى قمة نشوتها، ثم بلغتها بعد ذلك في تأوه غريب، وكأنها عاضة على نواجذها، ولأنه أراد أن ينصرف بأسرع ما يمكن، فقد نسي أن يغسل نفسه. وكان قد لفت نظره في الترام أن رائحتها ما زالت تفوح من حول فمه، ولكي يكون هناك سبب يتملص به من «ألينا» ينهض بتعليق فكاهي عن الثانية.

«كلا، كلا»، تقول هي وتتمخط. «لا أريدك أن تنهي ذلك، فأنا أرى أنه يعود عليك بفائدة.. ربما أن كلينا يطبق بالفعل على نفس الآخر بعض الشيء. ولكن أيضاً ليس من الممكن ألا يهمني هذا بتاتاً، أليس كذلك؟ لو لم أبالِ بالأمر إطلاقاً لكنت قد استغربت نفسي.. هل تريد أن تأكل شيئاً؟»

إن أمر تدبير المال، أبعد ما يكون عن التصور. لا يوجد احتياطي، ولا تأمينات، ولا تعاقدات مع أحد صناديق البناء، حبذا لو كان هذا في الإمكان، وأن يمنح أحد البنوك قرضاً لكاتب ذي إيرادات أقرب إلى أن تكون معنوية، فإن ذلك لا يحدث ولا حتى في الروايات. كذلك إن «ألينا» عاطلة عن الكسب، ومن ثم لا يتبقى إلا الناشر، الذي بدا منه اهتمامٌ مجاملٌ في ما يتعلق بظروفهما المعيشية مرات ومرات في الماضي، والذي يكتب «فولف»- بعد رحلة جديدة إلى شون أيشيه ومعاينة البيت، الذي له سلمٌ داخليٌ حلزونيٌ وكسوة من ألواح خشب الكرز على الجدار والذي تبدو حجراته كبيرة بما يكفي حتى يتجنب المرء وصفها بالصغيرة- له خطابا. بيد أنه يشعر نحو ذلك بعدم الارتياح، حيث يصوغه مرة ومرتين من جديد، ويحاول أن يمنح خطه العفة التي تفتقدها شجاعته.

بدافع مختلط ما بين الغريزة والتفكير استطاع أن يتجنب أية تبعية لدار نشره إلى الآن، حيث إن أدنى قدر من عدم الحرية، سيلحق الضرر بعمله، وسيجعل من رؤاه «مشاريعَ»، وستسلب فشله الاستفادة ولغته الهيام.

ما من مرة طلب مقدماً لكتاب لم يكتب بعد، ولم يتقاضَ أجراً حتى على الكتب الكاملة إلا بقدر ما ستدخله من خلال المبيعات المتوقعة، أدنى ما يمكن توقعه، من جديد. ولكن أن يقدر لنفسه من هذا المنطلق جدارة ائتمانية، فإن هذا يبدو بالفعل من السذاجة إلى درجة أن ينتابه قلق شديد يشغل باله كثيراً على اعتبار المتلقي خلال المحاولات الأولى لإعداد مخطط خطابي.

حقاً إن ناشره الوجيه، يكون أكثر من مجرد رجل أعمالٍ في بعض الأحيان، ولكنه لا يقل عن ذلك أبداً، كما أن لمزاحه حدوداً يمكن التعبير عنها بالأرقام. وعلاوة على ذلك فإن الرفض لن يعني فقط عدم تمكنهما من شراء بيت ثمنه أكثر من متساهل، حيث إن هذا كان من الممكن سلواه، بل إنه سيدل قبل كل شيء على أنهما لا يظنان قدرات الكاتب، الذي أصبح في الخمسين من عمره، كفيلة بالكتب التي تعوض عن ذلك المبلغ. وحتى ما يسميه ناشره تدفقات متوقعة فإنه مفروض اكثر مما هو ملموس، حيث إن مجرد تصوره للحياة

من دونه أو حتى فقط من دون افتراضه، يكفي لأن يسلبه الطاقة بشكل محسوس. ولكنه في النهاية يتغلب على ضميره الحي، ويسلم الخطاب إلى مكتب البريد.

يتأخر الجواب، لأيام طويلة، الأمر الذي قد أصبح يعده ردة فعل، بل وردة فعل باردة على وجه التحديد. لم يعد يستطيع العمل، وأصبح متوتر الأعصاب قليلاً، ويعاني من الآلام المعدية مجدداً، علاوة على أنه لا ينام جيداً.. يجوب مع الكلب في الساعات المظلمة من الصباح، والتي يشعر فيها المرء ببرودة الضباب الأرضي عند ركبتيه، رغم أنه لم ير بعد، الغابات حتى «جروناو»، بل وحتى مخيم «كوهلي» فامبيه. لقد اشترى لنفسه منظاراً صغيراً ويعشق أن يراقب به حيوانات الصيد، والانتقال الصامت بين الأحياء المقسمة إلى مساحات مربعة الشكل. حتى في صباح اليوم الذي قدر أن يتقرر فيه كل شيء، ذهب أيضاً إلى هضبة على البحيرة.

في مكان ما تولول بومة قزمية.. يتبدد رجع صدى الصوت الموسيقي في مكان بعيد.. يخشخش شيء في وسط الغابة.. يقرقر الماء، ثم يعّم السكون من جديد بصرف النظر عن الناموس الذي يزداد هجومه عليه عنفاً، كلما اقترب من مراغة الخنزير البري. لقد أخذت رائحة قار الشجر تقترب، وأرض المستنقع ترتد أسفل خطاه على نحو زنبركي، وإذا

ما توقف عن السير، سمع فرقعة الفقاقيع، والأزيز الخافت الذي ينشأ لدى تجمع المياه عند موطئ قدميه. بعد وصوله إلى مرتفع صغير ينظر إلى أسفل.. إلى البقعة الجرداء، دلتا مجرى مائي ضحل. لقد غشي الضباب المجرى، وشاطئ البحيرة، والخليج المتواري الذي تشرب منه الحيوانات، ولكنه ليس بكثيف، وتتخلله قمم متناثرة من أشجار التنوب، وبضع شجيرات بندق، وإلى الشرق يلتقي الزان بالغابة الصنوبرية،.. بأشجار الصنوبر ذات العقد الملتوية، فقد ابتدأ الضباب يتبدد ويصعد في رقاع إلى أعلى المنحدر.. يزداد نور السماء بطئاً.

ثمة شيء يحدث صوتاً خفيفا في المجرى.. خافتا للغاية، وكأنما قلب التيار حجراً مسطحاً. قمم الأشجار على الهضبة قد ابتدأت تتلون بلون وردي، و«فولف» يحدد للكلب المطيع مجلسا بجانب السلم، ويعلق المنظار على ظهره، ويرتقي أدراج السلم النقالي.. صمغ شجر الشربين الذي استخدمه معاون خفير الغابات لا يزال يلتصق باليدين، وباب برج الصيد مغلق بقطعة خشب فقط لا غير، وتوجد سدادات، وأعقاب سجائر على أرضية الكشك الخشبية، وقصاصات من إحدى المجلات، وخشبة بندقية الصيد ممتلئة بالحزوز، كل حز منها موت.. يتخذ مجلساً على المقعد الخشبي ويتحسس سترته باحثا عن السجائر، التي كان قد

وجدها منذ عهد غير بعيد على طاولة ف احدى المقاهي.. ماركة فرنسية، وشد بضعة أنفاس بين الحين والآخر.

إلا أنه عندئذٍ يتحرك شيء وسط الأشجار، وهو يأخذ منظاره. وعلى الرغم من أنه مصنوع من البلاستيك، إلا أن دوائر العينين ملمسها مثل المعدن البارد.. ببطء تقترب بضعة غزلان من المياه، ولكنها تستمر في الاحتماء.. تتحرك ظلالها بين سيقان الأشجار. وحدها أنثى عجوز ذات ندوب على خاصرتيها، قد أصبحت بالغة النحول عند الحوض، وتمتلك الجرأة على الخروج من الغابة، وتنزل المنحدر خطوة بخطوة.. تحرك أذنيها أثناء ذلك في توتر، وتتوقف عن السير مرارا وتكراراً، لكي تلقي على المنخفض نظرة.. تحرك فمها، الذي يتدلى منه عود واحد، ماضغة، وهناك بالأسفل يمكن رؤية نفسها في البرد.

تبقي جذعها، الذي تغطي الأعشاب المرجية نصفه، عرضيا في اتجاههم، كي تكون على استعداد للهرب، وبعد أن فتشت الخليج عن كافة الأخطار الممكنة وأنفها الأسود يرتعش تقف بحافريها الأماميين في البحيرة، وتبدأ في الشرب. والآن فقط تنزل الغزلان الأخرى إلى أسفل المنحدر.. مجموعة صغيرة من أمهات وأخشاف لا تزال على فروها بقع بيضاء. تبدو الهيفاء وكأنها تطفو على العشب.

وحده تيس يظل فوق التل.. حولي وذو فرو فاتح اللون.. يترنح ليتفادى شجر الشربين، ويرتطم قرناه بالسيقان مراتٍ ومراتٍ، بحيث تتطاير جذاذات من القشور، أو يكوم الطحالب والأغصان الجافة بحافريه الأماميين ويهرع نحو الشجيرات التي يحجبها الضباب.. حادة رائحة البول التي يجلبها معه من المبيت.. مروثة خاصرتاه. من الظاهر أنه يمر بدورته النزوية الأولى.. يتقطر اللعاب المزبد من فمه، وفي موجات تسري رجفات التهيج في فروه. إلا أنه عندما يشرع في الاقتراب من الشاربين والآكلين، تتوارى الأخشاف خلف الأمهات، وتنقض عليه الأنثى العجوز. مدت عنقها إلى الأمام بشكل شبه أفقي، وثنت ركبتيها في زاوية حادة، ثم طاردته على مدار مسافة بعيدة بين أرجاء الغابة، ولا يزال صراخه الثائر، يدوي في الأدغال، بينما كان القطيع قد واصل السير.

بعد أن دخن واحدة من تلك السجائر القوية، حيث اعتراه دوار لطيف.. حزم المنظار وفتح الباب ذا المفصلات الجلدية التي لا صوت لها. أشرقت الشمس، وأومضت أشعة الفجر وسط سيقان الأشجار، ونزل هو على السلم عبر خصل من الهواء الساخن وكان قد بلغ منتصفه عندما رأى التيس مرة ثانية. يمشي بتصلب وحيداً وسط مياه الشاطئ الضحلة، ثم

يتوقف عن السير، ويشرب جرعة من الماء، وينظر إلى أعلى البحيرة التي ترتعش فيها صورته المنعكسة، فإذا بـ«فولف» يستطيع أن يرى أنه مصاب. هناك صدع طويل بامتداد جانبه الأيسر تكسوه قشرة سوداء محمرة، ويتجمع عليه الذباب، ويبرز منه ضلع، وحين يدير رأسه ويبصره على السلم لا يصيبه أي رعب. ينظر إليه برهة بعينين غير لامعتين ولسانه الرمادي ينبض في فمه المفتوح، ويضرب الحصى بحافريه إلى حين قليل، ويشرب مرة أخرى، ويغيب عن البصر في غير عجلة في أعشاب الغابة الطويلة التي تلتحم من خلفه.

يهدل الحمام في مكان ما، وبرمشة عين تلوح أجنحتها وبطونها الفاتحة بين قمم الأشجار. تتمايل كيزان الصنوبر دون أن يتساقط واحدٌ منها. المكان أمام الدرج الأسفل خالٍ، والكلأ الذي كان الكلب مستلقيا عليه قد بدأ يعتدل من جديد. في دهشة يدير «فولف» نظره في ما حوله ويدلي بطرقعة اللسان التي يستجيب إليها «ويستر» في العادة، ولكنه لا يظهر. في مكان ما ينقر نقار الخشب، ويقع ذلك على السمع وكأنما الأشجار جوفاء.

نعم، إن هناك بعض الآثار لأقدام حيوان في الطين، ولكنها تضيع بعد ذلك في الأدغال. «فولف» ينادي ويصفر، يبحث عنه في كل مكان على شاطئ البحيرة، ويطوف بالغابة مفرقعاً

بأصابعه، وإذا كان يلوم نفسه لأنه لم يربطه، ففقط بالنظر إلى «ألينا» وفزعها، بل وحزنها عليه. أمام سلم نفق المدوي الذي يمر تحت نهر الشبري، يجعل مشبك القيد يصلصل، ويعجب مع كل هذه اللهفة على الرغم من نفاد صبره من هدوئه، الذي ليس بدليل على عدم الاهتمام أو البرود، بل يرجع إلى الشعور الأكيد الذي كان يجهله حتى تلك اللحظة بأنه لا يمكن لحيوان أن يضيع، وبأنه بالتالي أيضاً لا يضل طريقه.

حتى عند اختفائه يعطيه دروسا، ذلك الكلب الذي قد كثر ما عليه له من أفضال. منذ أن أصبح يعيش عندهما وهو يشعر بأنه أكثر طاقة، وأفضل صحة، فتسكن ثائرة حماسته هازاً ذيله، وهدوؤه لطالما قد نزع عنه الكثير من القلق. كل شيء من حوله يبدو أكثر حيوية لمجرد أن «ويستر» لا يسمح له بأن يكون تافهاً، وكثيراً في الليل، عندما تكون النوافذ مظلمة في الشارع، ويثبت «فولف» بصره على «ويستر» يكون محملقاً، ونصفه في الغرفة الصغيرة، يبدو له اللهاث تحت المكتب وكأنه نبض الهواء. أغلب الظن، هذا رأيه، يعتقد أن الكلب سيجد أيضاً من دونه الطريق إلى البيت. بالإضافة إلى أنه يتذكر حديثاً دار بين «ألينا» وخفير المنطقة.. رجل طويل اللحية، قد ألصق أوسمته وأنواط استحقاقه منذ عهد الجمهورية الألمانية الديمقراطية على المرآة الداخلية

لسيارته الجيب: إذا هرب كلب، فينبغي على صاحبه أن يحفظ بذاكرته وقت ضياعه، وأن يكون كل يوم موجوداً في المكان الذي فقده فيه في التوقيت نفسه، فإنه سيظهر ثانية من وسط الأدغال في يوم من الأيام، وسيعلق القيد حول عنقه ويذهب إلى البيت.

«الخوف لطالما كان صديق الرجل الوفي».. يعيش به الإنسان، وهو موجود دائماً. كما أنه عندما لا يكون هناك ما يدعو الإنسان إلى الخوف، فهو ينميه ويربيه، وعلى الرغم من أنه يمثل صورة من صور الدوار، واحدة مرتعشة، إلا أن الإنسان يجد نفسه به متنبها، وأكثر استعدادا للدفاع، وذلك ناجم عن شعوره بأنه محروس، أو بأنه مسير، أو بأن الخلق قد اكتمل به.. كلام ميتافيزيقيا السلطة هذا كله يتبدد في الهواء دفعة واحدة عند تحسس عقدة في الترقوة، وعند رؤية نقطة دم في البراز، وعند قراءة رسالة وداع من حيث لا تدري. «من الكوارث»، قال رجل أعمال سكران ذات مرة في قطار أخذه «فولف» إلى إحدى القراءات: إنه لا يحب جو الدرجة الأولى، والجدية العبوسة في الأوجه، ونظرات الشزر المختلسة التي تعاين بها الأحذية والحقائب، والأحاديث التليفونية الاستعراضية في لهجة تجارية، بل إنه يستفظع، ذلك العالم الذي يتظاهر فقط بناء على الأرقام، وكأنما الأمر هنا لا

يتعلق بالنصفيات، كما في كل مكان، ولكنه يحب المقاعد المنفردة إذ لا توجد إلا وسيلة واحدة للوقاية من الكوارث وهي الخوف منها.

ورغم أن البريد لا يمكن أن يكون قد وصل، إلا أنه يلقي نظرة في صندوق البريد. «ألينا» غير موجودة في البيت. أغلب الظن أنها قد ذهبت إلى المخبز، أو إلى السوبر ماركت، الذي أصبح في العهد الحديث مفتوحاً على مدى أربع وعشرين ساعة، وهو يعد مائدة الإفطار، ويعصر بعضاً من البرتقال، ويتمدد مرة أخرى على السرير المرتب، حيث يغشاه النوم ولا يفيق إلا قبل الظهر بقليل. يحلم بوالديه المتوفيين اللذين قد أصبحا يعيشان في نيوأوليانز، في حي اسمه مانيغاردن، ويحلم بالكلب.. بنباحه الذي يطن طنين الخطى، أثناء هبوط السلم. ثم يحس بالشمس بعد ذلك على وجهه، ويفتح عينيه، ولا يستطيع أن يفهم وضعه في بادئ الأمر. جائع وينادي «ألينا» من دون أن يحصل على رد. يدير نظره في ما حوله، ويأخذ تفاحة من الطبق الذى بجانب السرير، وينادي بصوت أعلى، ما يبدو وكأنه يزيد السكون في الشقة كثافة، وعندما يجلس في السرير، ويشد الهاتف من السلك إلى عنده، ويطلب رقمها، يرن جرس المحمول في درج المكتب.

الحجرات هي بعينها، ولكنها ليست هي. وعلى نحو لا يكاد يكون ملحوظاً تتحرك ندائف التراب تحت السرير والخزائن، والضوء في أواخر أيام أيلول منبسط وكأنه مطمورعلى الباركيه، الذي يطقطق في الحرارة بصوت خفيض، بينما تزداد معالم الأشياء وضوحاً، وكذلك حزماً.. إمضاءات من الذكرى. تطفو ذبابة على سطح عصير البرتقال.

يتقلص الوقت، وآخر ثمار الكستناء تتساقط على أسقف السيارات، وعند رفعة البصر التالية تجد الأشجار جرداء، والليالي جمة الخلاء، وطبل المطر الخافت على زجاج النوافذ المائل يستدعي إلى ذهنه أنها بالفعل شبهت حبها ذات مرة بكنيسة.. في مكانٍ ما على البحر البريتاني.. بكنيسة مهجورة تسمع فيها صرخات النوارس. كان ذلك في «سان مالو».. يخمن هو، بينما كانت الأضواء المنعكسة لصواريخ احتفالات رأس السنة الزرقاء، والصفراء، والخضراء تمرق في أرجاء الشقة المعتمة في سرعة خاطفة وهو جالس من دون أي حراك في السكون، في خفق الظلال. أم بالأحرى في «بريست»؟ كانت هناك مرآة عملاقة معلقة داخل بقايا الأسوار.. شيء فيه بقع صدأ، وله إطار ذهبي قد أمكن لهما أن يريا نفسيهما فيها.. وكتفاً إلى كتف على الدكة: صورة

من لونين أبرز فيها أحدهما الآخر، وأعطي الاثنان معاً لوناً ثالثاً لا اسم له، لم تسبق رؤيته قبلاً، ولم يكن مرئياً فعلاً، ومع كل ذلك كان نابضا بالحياة بشكل يدعو إلى الاستغراب.

يمتد الوقت، وضوء الثلج في آذار لا يزال يبدو وكأنه ضائع سدى لمن ينتظر مكالمة، كلمة خلاص، بينما النبض يخفق في أذنيه.. انقباضاً وانبساطاً، وعيناه تحرقانه من الأرق. بينما كانت البراعم الجديدة تنبت من نبات الحجرة اليابس.. العصافير تبدأ ببناء أعشاشها وتنقر الشعر من حديقة السطح، من طحالب في شقوق الأرض، سوداء وحمراء لامعة بعض الشيء.

عن اقتناع متجدد بأن الكاتب لا بد من أن تكون له أدوات كتابية جميلة، وأشياء يحلو له أن يمسكها في يده أو يستلهم منها، فقد أهدته «ألينا» على مدار السنين إلى جانب الورق الفاخر، والمفكرات المجلدة بغلاف من الجلد أيضاً، قلماً ثميناً من «مونت بلانك» بريشة ذهبية، وقلماً جافا ثقيل الوزن، مصنوعاً من عظام السلحفاة صقرية المنقار، وأقلاماً لولبية عالية الذوق. وبطبيعة الحال يستخدم هذا وذاك غير مرة، ولكن ليس أحب إليه من البضائع السوقية التي تبتاعها البيوت التجارية، الكراسات ذات الحلقات المعدنية، والورق الليفي، والسطور رديئة الطباعة، والأقلام

ذات الرأس اللبادي، أو أقلام الرصاص ذات الصرير والتي تفوح منها رائحة خشب الأرز، ويهوى دس خرطوشة جديدة في قلم مدرستها الحبر القديم قدم الزمن ماركة جيها، المصلح بالشريط اللاصق، والذي يبلغ من خفة وانسياب كتابته أنه يدفع بالمرء من حيث لا يدري إلى ما بعد هامش الورقة. وما أفلح في شيء، يسر من أصابعه الزرقاء مثل سروره بالشقوق والجساءات الأولى في يديه، عندما كان عامل بناء تحت التدريب، والتي صحيح أنها مزقت للفتيات جواربهن، ولكنها كانت للوالدين والأصدقاء دليلاً على أنه قد كد «بحق وحقيق».

عندما صفق الباب انتفضت واقفة.. يكتب هو ويصحح على الفور:... همت واقفة. وعلى الرغم من أنها علمت أنه لا يحب التمدد في تلك الوضعية، فقد التصقت به طوال الليل، إلا أنه ليس قربها.. مشاجرة القطط في الحديقة، قد أيقظته من النوم، والصراخ الحربي الذي أغمضت من جرائه عينيها بسرعة، ثم هدأت الضجة حتى أنها لم تسمع ذهاب رجلها فقط، وخطاه الهادئة بحذائه الشتوي الغليظ، بل وكذلك خربشة كفوف الكلب الخافتة على بلاط الشارع.

السماء شبه خالية من النجوم التي من الممكن رؤيتها عبر النافذة المفتوحة، ولكن لا بد أن القمر قد كان ساطعاً في

مكان ما خلف البيت. كان ظل الجملون واقعاً على الفناء، وكانت الطحالب فوق سقف العربخانة تلمع وكأنما عليها نفحة من الفضة. نظرت إلى الساعة، وارتدت «تي شيرت»، والجينز، وبلوفر ثقيلاً، وتخللت شعرها بأصابع يديها الاثنتين.. لم تضع أي مكياج، ولو حتى على العينين، ولم تأكل شيئاً، بل بلت ريقها بمياه غازية من الزجاجة البلاستيك الصغيرة، المملوءة حتى منتصفها ووضعت الزجاجة في جيب سترتها الفرائية، ثم فرشت مفرش السرير، وأعطت النباتات قدراً من الماء، ونثرت حفنة من بذور عباد الشمس على الشرفة، وتحققت مرة أخرى من محتوى درج المكتب. وأخيراً.. قبلت الأيقونة الصغيرة المعلقة على الجدار، وهي القديسة حنه مع مريم العذراء والسيد المسيح، وأطفأت النور، ونزلت السلالم ببطء.

خشب منحنى الدرابزين أملس، وجاكيت القطيفة القديم على الكلاب.. إن كل دمع بكته هو أيضاً دمع الأمل، كل يأس قد عانته، ورغم ذلك ضاق الخناق عليها عندما دخلت في غرفة مكتبه، فالطاولة بالغة الصغر، وهي في الأصل ضمن أثاث المطبخ، وأكوام المسودات على الأرض، والغيتار المترب، والخزانة التي تفوح منها رائحة نبات اللافندر، والأريكة الجلدية، والمصباح الأرضي المفكك كلهم لم تبدُ

لها جادة ومعبرة هكذا من قبل، مثل رموز هيروغليفية من زمن سعيد.. كانا يمرحان به على الوسائد، ويتحدثان عن الروايات والقصائد وكأنهما العالم، ويشربان الشاي على الشرفة الصغيرة. صورتها الوحيدة في الغرفة، بصرف النظر عن عدد من بطاقات البريد المصقولة، التي علقت في إطار فضي وسط الرفوف المكتظة بالكتب، ولم تفهم أبداً السبب في أن تلك بالتحديد هي لقطته المفضلة. على الأرجح لأنها لم تكن على دراية بأنها تصور وبالتالي فقد بدت على طبيعتها على الإطلاق. فقط إلى حد الكتفين كان من الممكن رؤيتها.. عشرون عاماً مرت ولا تزال غزيرة العقصات.. قد أمالت رأسها لكي يجعل الفلاش شعرها أقرب إلى البياض كما أنه منح جبهتها ضوءاً فريداً.. شيئاً فيه من طهارة العذراء، مع أنها كانت تحضر عصيدة السمك في تلك اللحظة.

أخرجت الرسالة من جيب سترتها، ووضعتها أمام الحاسوب المحمول الخاص به، الذي أُلصقت عليه قصاصات تذكرة صغيرة صفراء. كانت قد قرأتها مراراً وتكراراً، وسوت الظرف المكشكش\ المجعد، وكتبت عليه إلى أعز إنسان بقلم رصاص.. كانت أصابعها ترتعش أثناء ذلك مما اضطرها إلى أن تضغط عليه بقوة أكثر لكي تتمكن من إكمال الكلمة، ولذلك انكسر سن قلم الرصاص، أثناء جر

خط تحت الكلام. صوت الكسر المفاجئ، طق رقيق، أذعرها مثل شكة دامية في قلبها، وأغمضت عينيها قليلاً. ولئن كانت الفجوة في الخط ضئيلة، كأنما قد كانت هناك شعرة على الورقة، إلا أنها قرأت لطرفة عين قصتها فيها كاملة. تصببت عرقاً، واضطرت إلى الجلوس.. جلد الأريكة كان بارداً بشكل مريح.. طنت حشرة خلف الستار، ثم وضعت مفتاحها بجانب الظرف، وخرجت من الغرفة، ومضت في الممر من دون أن تنظر في المرآة مرة أخرى.. أغلقت باب الشقة من الخارج وراءها.

المصابيح القليلة بين المنازل، كانت تشع ضوءاً معتماً عليها، وقطرات الندى تلألأت على الأسوار المعدنية. ما من شخص في الشارع، وحذاؤها الرياضي ذو الرباط لم يكد يصدر من نعله الطري أي صوت. ولأنها علمت أن رجلها على البحيرة برفقة الكلب، كشأنه بصفة شبه دائمة، فقد اتخذت الاتجاه المغاير، وعبرت تحت الجسر الحجري عند محطة الترام، ومرت على سيارات الأجرة بالسائقين النائمين.. الضباب الخفيف، بارتفاع رسغ القدم.. كان يغشى مروج متنزه الاستشفاء. ترامت صافرة إنذار من بعيد، ومن بعدها صلصلة قطار في وسط المدينة.. نجم الصباح تألق فوق أشجار الحور، وبسرعة مرت بالمتنزه ذي البساتين

الصغيرة خلف ملعب التنس، وحادت في الممر الذي بجانب مجرى مولينفليس. كانت ضفتاه مدعمتين بحاجز مضفر من خشب الصفصاف، والماء الصافي قرقر بصوت خافت.. كان هناك مالك حزين واقفاً في نور الفجر.

كان عند مقر حارس الغابات القديم، مبنى نصف خشبي مدبب السقف.. عبرت الشارع، البلاط الإثلبي الوعر. إذا كان الطريق الضيق قد مضى إلى هناك على امتداد البساتين، ومباني الشؤون الاقتصادية لملجأ العجزة، ومسترادات نادي سباق الخيل، فإن وادي نهر الإربيه الخالي تماماً من العمران قد أصبح أمامها، مستنقع مقفر حدته غابات البلوط وامتد بسرخسه، ونباته من البطباطيات نحو الشرق تحت سماء لا نهاية لها.. فاحت هنا رائحة معادن غريبة.. رائحة تربة معدنية التكوين أو حتى حامضة بنسبٍ مرتفعة جداً. ولأن المرء لا يظن مثل هذا الامتداد في برلين، فمنذ القدم والمنطقة تطوي بين أجنحتها شيئاً ما غير واقعي بالنسبة إليها، مثل وعد باطل أو إعداد مسرحي ماهر، ما قد اتسق مع أن تلك الشجرة التي لم تجد من الأرض سنداً حامياً لها أثناء العواصف والصواعق البرقية التي ضربت المنطقة في الفترة الأخيرة، شمخت في السماء مهشمة كلياً، أو أن أشجار الصفصاف القصيرة، مقطوعة الرأس ارتعشت إذا مشى الإنسان بخطوات ثقيلة.

قد طلع النهار، واتجهت طائرة نحو شونيفيلد، ورأت حيواناً على مسافة غير قصيرة، كلباً بنياً كما كانت تعتقد في البداية. كان يسلك طريقها نفسها، وكان يسير بخطوات حثيثة ولكنها متراخية نحو الأفق.. مديراً نظره إليها بين الحين والآخر، إلا أنه مع زيادة الضوء تبين لها أنه ثعلب، بالغ النحول، ومشعث الشعر بعض الشيء، وعندما وصلت إلى جزء موحل من الطريق، توقفت للحظة عن السير، وشاهدت كيف تمتلئ آثار الكفوف المتعاقبة في صف مستقيم مطرد بالمياه بطيئاً. لقد غمرتها مسحة من شفق الصباح من دون أن يتراءى من الشمس شيء.. بريق نحاسي اللون قد انمحى على حين فجأة.. أغمضت عينيها كي تقاوم الدوار، وأخذت نفسا عميقا، وحادت عن الطريق وظلت خطاها تتعثر. غاب الثعلب عن البصر، وصرخ بوم في الغابة.

أرغت المياه في المجرى أمام سد.. تعلقت ندائف مال لونها إلى السمرة بالبوص وبفروع أشجار الصفصاف الباكي من حوله، وحينما واجهتها الطاحونة القديمة.. مبنى طوبي مقرمد قد نزعت منه العجلة منذ وقت طويل، تلفتت مرة أخرى إلى المدى الذي أصبح وراءها. في المبنى النصف خشبي الذي نفثت مدخنته الدخان فُتحت نافذة، ووُضع نبات أصيص على البسطة.. اهتز ضوء فرملة دراجة

بخارية على الجسر المرصوف بالحجر، وأقفلت هي سترتها وحادت في ممر ضيق، لا يكاد يكون ظاهراً وسط القراص، والحميض، ولسان الحمل الذي يكسوه الندى.. أثر ضعيف لحيوانات الصيد، يصير أكثر وضوحاً عند الطحالب في ما بين أشجار البلوط المتناثرة، أيضاً أكثر تفرعا، قبل أن يضيع على الناحية الأخرى فيما وراء طريق في الغابة وسط أدغال لا يكاد يمكن اجتيازها.

وعلى الرغم من أن الصباح قد انفلق في السماء، فوق قمم الأشجار، إلا أن الليل كان هنا لا يزال شبه مهيمن عليها، وضغطت على زر كشاف اليد الصغير الذي كانت قد أخذته معها، ورفعت إحدى الذراعين أمام وجهها، وجشّمت نفسها عناء المرور تحت الفروع المتدلية كثيراً إلى أسفل، وسيقان أشجار الشربين التي دك عاليها سافلها.. أوصال خشبية رفيعة، عناء الدخول إلى الظلام.. فروع بعضها ميت وغليظ وحاد اشتبكت بملابسها، وشعرها، وانكسرت تحتها جحور الأرانب مراتٍ ومراتٍ.. وسمعت بين الحين والآخر صوت فرقعة رؤوس خفيفاً كلما دهست على عش غراب. ذلك الجزء من الغابة لم ينل إلا قليلا من الرعاية، ما قد يرجع في الغالب إلى وعورة مسالكه أمام وسائل نقل الغابات، حيث إنه يتألف من حفر انفجار عميقة كثيراً أو قليلاً منذ

أيام الحرب الأخيرة غطت عليها النباتات البرية. في ضوء النهار كان من الممكن رؤية أنقاض مخابئ عسكرية في بعض الأماكن، وكانت هناك لافتات معلقة في كل مكان تحذر من بقايا الذخائر، وتحظر الدخول.

لكي لا تضل سبيلها، قدرت اتجاهها على نحو تقديري، بناء على الطائرات التي حلقت عالياً من فوقها، بين وقت وآخر، والتي رأت ضوء إشارتها في بعض الأحيان، ولكنها في معظم الأوقات سمعت منافثها فقط إذ كانت شونيفيلد تقع في الجنوب.. غاصت قدماها في الوحل حتى أعلى رقبة بوتها، ورفعت نفسها مجدداً إلى أعلى عند المنحدر التالي، بوساطة فروع نباتات أخرى، وتوقفت عن السير لحظة وسط أشجار البتولا النحيلة. استرسل قلبها في دقات متتابعة، وأطفأت الكشاف، وقاومت الشعور بالغثيان، الذي داهمها فجأة.. تفوح رائحة شيء متعفن.. رائحة روث، وبدا لها السكون في الغابة مثل كتم الأنفاس، بل انحباسها، حتى سمعت فجأة صوت طق على مقربة، تشظي الخشب.

لا بد أن الذي يركض هنالك عبر أشجار الشربين المتشابكة حيوان ثقيل، فقد بدت الأرض الإبرية تحت وزنه وكأنها نابضة.. تأرجحت قمم الأشجار الغضة والأكثر ضعفاً. للحظة تساقط الندى، ومرة أخرى اجتازت حفرة قنابل مليئة

بالأدغال.. تمطقت الأرض تحت حذائها القديم، الذي لم يعد محكماً غير نفاذ، وتعثرت قدمها بكتل من الخرسانة التي نمت عليها الطحالب، ومزق لها حديد التسليح الجينز، وتزحلقت مراراً وتكراراً في منحدر أردوازي لامع كالزيت.. لم يسعها إلا أن تسرع السير عندما تفتتت صفائح الحجارة الرقيقة، وأخذت تلهث من شدة التعب.. أحرقها العرق في عينيها، وأكلها صوف الياقة المبتل، ولكنها وجدت نفسها فجأة في بقعة جراء مليئة بأعشاب المروج، بارتفاع وسطها، وكانت السماء من فوقها تقريباً قد أصبحت زرقاء.

مسحت يديها بسترتها.. لم يضل طريقه إلى هنا سوى جامعي عيش الغراب، أو أصحاب الكلاب الذين تبعوا حيواناتهم الجاسية أثناء تنقيبها. وعلى هذا النحو فقد اكتشفت هي أيضاً البركة خلف أشجار الزان.. حوض مائي بيضاوي يقع وسط وهدة وقد نمت حول نصفه الحلفاء، في حين طبعت على وحل ضفافه آثار كبيرة وصغيرة لحيوانات برية. الأشجار الضخمة ذات السيقان الرمادية، الضارب لونها إلى الفضة والتي تكشفت عنها على ارتفاع الرجل فأعلى حروف متشابكة.. سيريالية، أوحت بجدية خيل لها أنها عطوفة، بل ورشيدة، حتى لو أن اللاريس الصغير في ما بينها قد بدا وكأن وجوده أقرب إلى أن يكون محتملاً وأنه

نصف ميت جوعاً من قلة الضوء الذي يصل إليه هنا بالأسفل، إذ إن حزم أوراقه الإبرية كانت قد أصبحت صفراء.

كان هناك حوض أسفل واحدة منها، قد اختبأ فيه «ويبستر» منها ذات مرة، بزغبة متصببة دماً في فمه.. وفرشت سترتها، وجلست عليها، ونظرت إلى أسفل.. إلى شاطئ البركة، حيث كان العشب لا يزال منبسطاً من جراء الحيوانات التي ربضت هنا ليلاً. وبعد أن تعمقت اكثر في الغابة تبينت لها كتلة ملح فوق عامود خشبي.. كتلة دائرية، زرقاء فاتحة اللون، كانت بلوراتها تتلألأ مثل الصقيع في نور الفجر. صرخ طائر خلف البوص، وبدا وكأنه يضرب المياه بجناحيه، ثم عمّ السكون من جديد، ونزعت هي غطاء الزجاجة الصغيرة، واحتست رشفة، استشعرت أثر طعمها في فمها، وأخذت تراجع أمورها مرة أخرى.. نقطة نقطة.

الرسالة إلى «فولف».. كانت تعرفها عن ظهر قلب، مثل هاتين اللتين إلى والديها وأخيها، فتلك التي كانت للثانية قد مزقتها مجدداً، وبعثت إليها رسالة SMS قصيرة، وضعت فيها اسمه باعتباره اسم المرسل.. ببساطة «اتصلي بي إذا سمحت». جميع المستندات والتوكيلات كانت قد وضعتها تحت هاتفها المحمول في درج مكتبها، مكتوبة بخط اليد، وكذلك رسم الأشعة التقليدية والمقطعية، ونتائج

جميع التشخيصات المرضية: الأول الذي كان من مستشفى شاريتيه، وكذلك التاليين من المستشفى الجامعي بتوبينغن، والمستشفى الجامعي بكانتون زيوريخ. كانت قد علّمت على العبارات الأساسية بقلم تخطيط- كما لو أن التفكير في ذلك له جوهر مادي- وشعرت بضغط على العصب البصري، وأخذت نفساً عميقاً، وأخرجت ساعة «فولف» من جيبها.. الأوتوماتيكية القديمة التي كانت تربطها حول رسغ يدها.

فكت رباط حذائها، وتحسست الجلد.. مضت برهة وهي تجلس من دون أن تحرك ساكناً، فقد كانت تتابع بعينيها سنجابين وهما يتلاحقان في مسارات حلزونية إلى أعلى على ساق شجرة صنوبر، ويتواثبان، بعد أن وصلا إلى أقصى فروع القمة، بمخالب منبسطة من قمة شجرة إلى أخرى.. تساقطت كيزان صنوبر في وحل الشاطئ، ورفرفت فراشة أبو دقيق الملفوف بالغة الشحون، من وسط العشب، وفجأة طن السكون طنينا آخر. نحت بضعة فروعٍ جانباً، وضيقت عينيها، ولكنها لم تتمكن من رؤية شيء.. ليس بوضوح. تحركت ظلال وسط الشجيرات والأشجار، والتي ربما تولّدت من الخوف والأسى، من دون أن يصدر عنها ولو حتى حفيف. أغلب الظن أنها كانت لأيائل أو غزلان ترغب

في الشرب، ولكنها لم تجرؤ على الخروج من مأمنها. اكتسى زجاج الساعة بالبخار.

سقطت أشعة الشمس مائلة بين السيقان العالية، وبدت خيوط العنكبوت المنسوجة على السرخس أكثر وضوحاً. بعض تلك النباتات المعمرة، التي كان لونها قد أصبح بنياً، اكتست بها كلياً. فالشبكات الرفيعة، التي برزت منها أجنحة الحشرات، انتفخت ثم هبطت مع نسمة هواء. في مكان ما هدل حمام بري، وسماء الصباح التي لم تشبها أية شائبة انعكست على المياه، ودلت على أن الطقس لن يزداد برودة في ذلك اليوم أيضاً، بل بالعكس. ورغم أن الوقت ما زال مبكراً إلا أن رائحة صمغ الأشجار الصنوبرية، كانت قد ابتدأت تفوح.. عبير نفحة دافئة، وتلألأت على بعض السيقان قطرات وليدة التو والساعة في صفاء خالص، كما البلور.

خيل للناظر أنها تنثر ضوءاً في أدق الأشعة.. لونها بلون قوس قزح، رقيق هنا وهناك، فما تمالكت أن ابتسمت. ذلك الصباح قبل موتها، شعرت بأنه سيكون الصباح بعد الموت، فروّح ذلك عن نفسها وغمرها بالسكينة التي كانت تتمنى أن تنعم بها في تلك اللحظة. انتزع ذلك من قلبها الخوف، وحال دون أن ترتعش وهي تخرج الأمبولة من

المنديل، وتكسر العنق الزجاجي، وتفرغ المحلول، الذي لم يكن له اسم، في زجاجة البلاستيك المملوء نصفها.. فارت قليلاً مرة واحدة.. كان ضباباً لبنياً ولكنه صفى بسرعة، حيث بدا بعد ضربات قليلة من القلب مجدداً، وكأن تلك الزجاجة لم تكن فيها سوى المياه، المياه الصافية المقطرة.. الأكثر نقاء.

ليس مؤكداً إذا ما كان الكلب قد وجدها وهي لا تزال على قيد الحياة. على الإبزيم بسوار الساعة كانت هناك بضع شعرات عالقة من الفرو. اثنان من جامعي عيش الغراب كانا يتحركان في محيط البركة وسمعا النباح ولكنهما ما عبئا به في البداية. كانا يبحثان عن فطر الروسيلا، وحبات الكستناء، وفقط بعد مرور نصف ساعة على الأقل، عندما لم يتوقف بعد، تجرءآ على الاقتراب، رافعين سكينيهما. «لابرادور» بني اللون، وبالغ الرشاقة، استلقى على الأرض منبسطاً وأخذ يهز ذيله من الفرح، وحينما نزع أحد الرجلين عنه الكمامة، وانحنى كي يداعب شعر رأسه، لعق يده وتقلب على ظهره. كان يحمل بطاقة ضريبية في رباط عنقه، وواحدة من تلك الكبسولات الصغيرة التي يوجد فيها اسم صاحبه وعنوانه. كانت هناك وسط العشب، فردتا حذاء رياضي برباط مغطاتان بالوحل، وقد وضعت زجاجة

مياه فارغة في داخل واحدة منهما، وعندما اقترب الرجل الآخر أيضاً، وأخرج قطعة خبز من سترته، ومد يده بها إلى الكلب، عثر على الشعر الأحمر، والبشرة بالغة الشحوب للمرأة التي وراء فروع السرخس المتدلية على حوض، مستقر حيوان بري. باليدين المنبسطتين فوق الضفيرة الشمسية، كانت راقدة هناك كما لو كانت في الضريح الموسد. ورغم الضوء والظلمة اللذين يقتسمان حمرة الشفق التي تلألأت فيها إحدى فردتي قرطها، فقد برز منظر وجهها الجانبي الجامد، بالذقن المتقوس، والأنف المستوي، المعقود بعض الشيء قبل الجذر، في وضوح تام. بدت الأظافر شمعية، وما من نبض في رسغ اليد. فالعينان ذاتا الرموش الفاتحة كانتا مغمضتين، كما كان الفم مفتوحاً قليلاً، وبدا الصدغ وقد التصق به عدد من أوراق الشربين. وبينما أخرج أحد الرجلين هاتفه من جيبه، نزل الكلب إلى المجرى، وشرب قليلاً، وتلقف فراشا أبيض لاعباً، واختفى بعد ذلك في الغابة عن الأنظار.

على صفحة عنوان أطروحتها نصف المكتملة لدرجة الدكتوراه، يمكن قراءة جملة مقتبسة من مايستر إيكهارت على سبيل الاستشهاد، ليس بمستبعد أنها شعار، فقد كتبت بالقلم الرصاص على عجل ولم تمسحه جيداً: «اعلموا أن

روحي تبلغ من الصبا ما كانت عليه حين خلقت.. بلى، أكثر من ذلك صبا!»، ومكتوب عليها أيضاً: «واعلموا أنني لن أعجب منها إذا ما صارت في الغد أكثر صباً مما هي اليوم!»



نبذة عن المؤلف:

ولد المؤلف الألماني رالف روتمان عام 1953 في شليسفغ بألمانيا ونشأ وترعرع في منطقة الرور بولاية نورد راين فستفاليا الألمانية. يعيش منذ عام 1976 في برلين. ومن مؤلفاته: «غزال على البحر». وهو عبارة عن قصص قصيرة نشرت عام 2006. وفي عام 2004 نشرت له رواية باسم «ضوء غض» وكأن قد نشر في عام 2003 رواية «حَر». اعتبر النقاد رواية «نار لا تشتعل» من أهم أعماله الادبية وقد وصف من قبل رولنغ ستون بأنه أفضل روائي في ألمانيا.

نبذة عن المترجمة:

ولدت المترجمة ياسمين خالد في الإسكندرية عام 1985 ودرست في المدرسة الألمانية هناك ثم تابعت الدراسة في ألمانيا. درست بجامعة يوهانس غوتنبيرغ ماينتز -غرمرسهايم في ألمانيا وحازت على شهادة دبلوم الدراسات العليا في الترجمة.





نار لا تشتعل

من جديد يبحر بنا رالف روتمان في رحلة حب تجمع كاتباً روائياً بطالبة دكتوراه. كانت قصة الحب تسير بهدوء وانسجام. إلا أن الأزمة تبدأ حين تظهر فجأة الحبيبة القديمة وهي أستاذة جامعية. فيصبح البطل موزعاً ما بين حبين وحبيبتين. إحداهما تعيش دوراً أشبه بدور الزوجة الوفية. والأخرى تجد فيه وسيلة لإفراغ رغباتها..

الأحداث تأتي في إطار تاريخي مهم. يمثل تلك الانعطافة حادة البروز في جسد التاريخ الألماني بعد هدم جدار برلين وتوحيد البلاد. وبعد عشرين عاماً على ذلك. لا تزال الفروقات موجودة. ولا تزال عملية الانصهار بين الشرق والغرب تمر بصعوبات عدة.



ISBN 978-9933-407-05-6





